كتاب الهلال



الدكتور زيفاجو

الجزء الثاني

بوريس باسترناك

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٠٦ ـ رجب ١٣٧٩ ـ يناير ١٩٦٠

No. 106 — January 1960

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

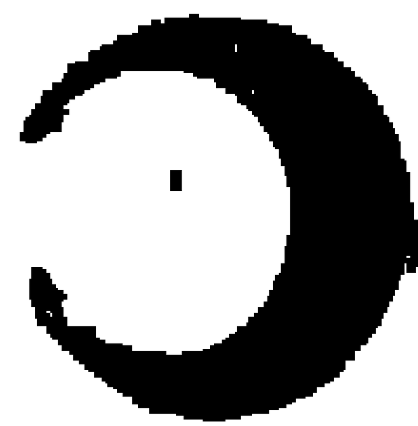
المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ـ فى الامريكتين ٢/١ ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الدكتور زيفاجو

ك . ب

بقلم

بوريس باسترناك

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

خلاصة الجزء الأول

يورى فتى يتيم ، ماتت أمه التى كان يحبها حب العبادة . أما أبوه فكان مليونيرا مقامرا سكيرا متلافا ، هجر والدته منذ سنوات ، فتعهده بالتربية خاله . وآل أمه ثراة وعلماء فى الكيمياء وأساتذة أدب وحكمة . وبعد فترة وجيزة مات والده منتحرا بعد أن تهدده الافلاس ، بأن ألقى نفسه من القطار السريع ، على مقربة من مزرعة كان يورى يزورها مع خاله نيقولا الكاتب الاجتماعى التقدمى

وفى هذه الفترة استقرت فى موسكو سيدة فرنسية الاصل اسمها مدام جيشار ، مات زوجها المهندس البلجيكى بجبال الاورال . وترك لها ثروة ضئيلة وطفلة وطفلا . فقامت بتأسيس مصنع للثياب ، وساعدها فى الادارة وقضاء المصالح صديق قديم لزوجها هو المحامى « كوماروفسكى » ، ولم يلبث أن صار عشيقها . وذهبت الطفلة لارا الى المدرسة وكذلك أخوها الصغير ..

وبمرور الزمن بدأت رياح الحياة تهب على الجيل الناشىء ، فبلغ يورى مبلغ الشباب الباكر ، وكذلك الفتاة لارا . ودخل يورى مدرسة الطب . وكان فتى شاعرى النزعة، صافى النفس ، ذكى الفؤاد . وصارت لارا فاتنة قوية الشخصية مستقيمة الاحساس والتفكير . ولكن الفتى والفتاة كانا من عالمين منفصلين تماما .. الى أن جمعتهما صدفة غريبة

ففي ذات ليلة ، وقد أقام أحد أخوال يورى حفلا موسيقيا،

كان العازف الاكبر فيه شابا موسيقيا يقطن الحجرة المجاورة لحجرة مدام جيشار فى الفندق ، وفى أوج الحفلة حضرت خادمة الفندق لتستدعى الموسيقى على عجـــل لأن مدام جيشار شربت السم . وأسرع رب الدار فى صحبة الموسيقى وذهب معهما يورى . وهناك رأى لارا لاول مرة .. ولكنها كانت رؤية عابرة لم تثمر فى حينها شيئا . ورأى المحـــامى الداعر كوماروفسكى وهو يداعب الشابة لارا فى ركن مظلم مداعبة تدل على التواطؤ . وفعلا كان المحامى على عـــلاقة بالفتاة . غرر بها واغتصبها وطبع نفسيتها بطابع الحقـــد والمرارة والتمرد

وفى تلك الفترة أحب يورى ابنة خاله « تونيا » وأحبته ، وأعلنت خطبتهما ، وتم الزواج على أثر تخرجه فى مدرسة الطب بدرجة ممتازة .

وفى الوقت نفسه كان « باشا انتيبوف » الطالب النابغة ابن أحد عمال السكة الحديدية قد أغرم بالفتاة لارا . وكانت لارا تختلف الى الجامعة بقصد اتمام دراستها وسلوك طريق مستقل فى الحياة ، كى تكون بمنجاة من سيطرة قوى الشر المتمثلة فى كوماروفسكى ..

وباشا انتيبوف شاب طاهر القلب والعقل ، صاحب مبادىء سامية ، ومتبحر فى الرياضيات والآداب القديمة والاقتصاد السياسى . وبمجرد تخرجه تزوج لارا ورحلا الى الاورال . وبنشوب الحرب العالمية الاولى نرى الجيل كله وقد انخرط فى سلك الجندية ، حتى لارا نفسها تطوعت ممرضـــــة فى مستشفيات الجبهة ، عسى أن تعثر هنـــاك على خبر أو اثر لزوجها باشا انتيبوف الذى انقطعت عنها كل اخباره ، وقيل لها انه مفقود ، ولكن قلبها اكد لها أنه لم يمت ، وأنه على قيـد الحياة فى مكان ما

وفى السنوات القليلة السابقة على الحرب كانت لارا قد انجبت طفلة اسمها كاتيا ، وكان يورى قد انجب طفلا وطفلة هما ساشا وماشا . وجميع هؤلاء الاطفال هجرهم ذووهم بسبب الاعمال العسكرية فى خط النار ..

وفى أواخر الحرب ، فى سنة ١٩١٧ اندلعت الثورة الروسية البلشفية ، ونشبت الحرب الاهلية ، وعاد كثيرون من الاسرى الروس فى المانيا لكى ينضموا الى الجيش الاحمر .. ومن بين هؤلاء كان باشا انتيبوف ووالده . أما باشا فاتخذ اسما مستعارا هو سترلينكوف .

ووجد يورى المثقف الشاعر نفسه فى أزمة فكرية ، فقرر اعتزال العمل ، بعد أن اصيب بجرح وشفى منه ، وصمم على الرحيل الى موسكو . وبدأت بذلك رحلة من أشق الرحلات ، يسودها الاضطراب الذى خلفته الثورة . وتعرض يورى للهلاك أكثر من مرة . وفى موسكو كانت الحياة شاقة للغاية ، لقلة المؤن ، ووسائل التدفئة وسيادة الفوضى التامة لجميع المرافق . فمرض يورى وكاد يهلك لولا معونة أخيه غير الشقيق « افجراف » الذى كان له فى الحكومة الجديدة نفوذ غامض .

وبعد شفائه ، قرر يورى أن يرحل بالاسرة وحميه الى مزرعتهم القديمة فى جبال الاورال . وكانت الرحلة عذابا مقيما ، لايدرون متى ولا كيف ينتهى .. فالخطوط مقطوعة أو مطمورة بالثلج ، والفحم قليل • والمثونة نادرة • والعربات اشبه بعربات الحيوانات . وحركات التمرد تهدد الحياة . والحرائق تأكل القرى على طول الطريق ...

وفى احدى وقفات القطار ، تعرض يورى للقبض عليه بتهمة الارستقراطية . وكان الحاكم هو سترلينكوف ، أو باشا انتيبوف . ولكن كلا منهما تجاهل الآخر . وانتهى الامر بسلام .. واستانف القطار سيره نحو الاورال

شخصيات الكتاب

- انتيبوف (أو « باقل » أو « باشا » أو « باشكا ») بن Antipov باقل وداريا فيليموفوفنا · مدرس ثم جنرال في الجيش الثورى الاحمر تحت أسم سترلينكوف « Strelnikov »
- لارا أو « لاريسا » انتيبوفا Antipova بنت مدام جيشار Lara وزوجة انتيبوف ، ولهما ابنة هى كاتيا Katia
- فاسيا أو « بريكين » ،فتى من العمال المجندين للسخرة، Vassia ورفيق الدكتور زيفاجو فى سفره
- مارينكا أو « مارينا » ابنة الحمال ماركل Markel وخليلة Marinka الدكتور زيفاجو الاخيرة
- نيكا أو دودوروف ، ابن فوضوى مشـــهور من الاميرة Nika نينا · وصديق زيفاجو
- جاليولين ابن البواب هماز الدين وفاطمة · ميكانيكى ثم Galiouline جنرال فى الجيش الابيض مدة الثورة
- جوردون أو « ميشا » ، ابن محام يهودى وصديق زيفاجو Gordon
- جروميكو أو «اسكندر» ، استاذ جامعى وزوج أنا Anna Gromika وله منها ابنة هى « أنتونينا »
- تونيا أو انتونينا ، زوجة زيفاجو · ولهـــا منه طفـــلان Tonia الصبى ساشا والفتاة ماشا

• مدام جيشار أو أميلى ، فرنسية أرملة مهندس بلجيكى Guichard وأم « روديا » Rodia ولارا Lara

• يورى أو يورا ، وهو الدكتور زيفاجو ابن رجل من Youri رجال الصناعة الاثرياء فى سيبيريا ، وأمه ماريا نيقولايفنا

• جرانيا Grania زيفاجو ، اخو الدكتور غير الشقيق

• كولوجريفوف رجل ثرى من رجال الصناعة ، Kologrivov ووالد ناديا ، وليبا ، وهما زميلتا لارا فى المدرسة

• كومارونسكى محام وسياسى ، عشيق مدام جيشار Komarovski وحاميها ، ثم عشيق ابنتها لارا

• نيقولاى نيقولايفيتش ، أو العم كوليا ، خال الدكتور Nicolaï زيفاجو • كاتب فيلسوف تقدمى

• ماشا تصغير ماريا ، ابنة انتونينا والدكتور زيفاجو Macha

• ساشا أو ساشنكا ، او شورى ، تصغير أسكندر Sacha ابن انتونينا والدكتور زيفاجو وشقيق ماشا

• سامديفياتوف موظف بلشفى كبير وحامى زيفاجو Samdéviatov

• تانيا ابنة لارا انتيبوفا من الدكتور زيفاجو Tania

• تيفرزين ابن عامل بالسكة الحديدية ، وهو ايضا Tiverzine عامل بها ، ثم صار عضوا في محكمة ثورية مع صديقه أنتيبوف

الجزء الثانى

الفصل الثامن

نهاية الرحلة

وقف القطار الذى يقل عائلة يورى (زيفاجو) على الرصيف، تحجبه عن المحطة بضعة قطارات أخر ، وكانوا حتى هذه اللحظة يعتبرون أن اتصالهم بموسكو قد انتهى ، وأنهم فى طريقهم الى بلاد أخر ريفية لها طابعها الخاص . وأبرز صفات سكان هذه البلاد التعاطف والتآخى

وكانت المنطقة قد أخليت من المدنيين ، وأحاطت بها وحدات الجيش الاحمر ، وبالرغم من ذلك كان المسافرون يقدحون أفكارهم فتتفتق عن وسائل عجيبة للتسلل الى العربات ، ثم يتدافعون من الابواب ، ويتنقلون بين مقدمة القطار ومؤخرته ، فى جماعات

وأخيرا لمح المسافرون يورى يعود وبرفقته خفير بسلاحه ، وقد ضربت الشمس بأشعتها سطوح العربات والقضبان ، وأضفت على بقع الزيت لونا أصفر ، فامتدت الايدى خارج العربة ترحب بعودته وتساعده على الصعود ، فقدر يورى لهم شعورهم ، وقال :

ــ شكرا ... سأصعد اليكم

وفى خفة الغزال قفز الى العربة ، وكان أول ما فعله أن عانق تونيا (انتونينا) ، وفى لهفة قالت له :

ــ حمدا لله ... انتهى الامر بسلام ، لقد كنا نشعر من أعماقنا بذلك

ــ وهل كنتم على علم بما جرى ؟

ـ كنا على علم بكل شيء خطوة خطوة !

ـ كيف كان ذلك ؟

ـ وهل كان فى مقدورنا أن ننتظر ، لولا أن أخبرنا الخفراء . لقد كدنا ـ أنا والوالد ـ نفقد صوابنا ! أترى كيف راح فى سبات عميق ، ولا يمكن ايقاظه ، فقد أرهقه الضيق . سأعرفك بمن جد من المسافرين ، هل تعلم أن الجميع لا حديث لهم سواك ، وهم يهنئونك ؟ !

وفجأة استدارت وعادت تقول لزوجها :

ـ هذا أحد المسافرين الجدد الذين حدثتك عنهم

فقدم المسافر نفسه ، قائلا :

ـ سامديفياتوف

ذكر اسمه وهو يشق طريقه نحوهما ، وقد رفع قبعته ثم عاد يقول :

ـ هل أخذتك الرهبة وتملكك الخوف من سترلينكوف ؟ قل الحق !

ـ كلا ! فقد كان حديثنا وديا ، ان شخصيته فذة وقوية !

ـ أغلب ظنى أنه من موسكو ، وليس من هذه الجهات

وقطعت تونيا حديثهما حين قالت ليورى :

ـ هاهو ذا أنفيم أفيموفيتش ، يقول ان لديه معلومات عنك وعن أبيك ، كما يعرف جدى ، بل يعرفنا جميعا

ثم أردفت :

ـ أظن أنك تعرف أنتيبوفا أيضا ... المعلمة !

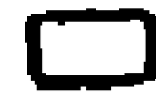
فقال سامديفياتوف دون أن يعطى اهتماما لملاحظتها :

ـ ماذا تقصدين ؟

على أن يورى لم يشترك فى هذا الحديث ، فاستطردت تونيا موجهة الكلام الى زوجها :

ـ يورى ... أرجو ان تعلم أن أنفيم أفيموفيتش بلشفى ،

ويجب أن تكون حذرا عندما تتحدث بقربه
ـ لقد ظننت أنه مجرد فنان ، ولم يدر ذلك بخلدى حقا !



لم تنقطع الحركة فى المحطة ، فكانت تقطر عربات ، وتفصل أخر ، والقطار ينقل من خط الى آخر . والمدينة أمامهم تمتد على مدى البصر ، يحجب الريف المنبسط بعض معالمها ، ولكن سطوحها العالية كانت تظهر للعين ، وكذلك ابراج الكنائس بصلبانها ومداخن المصانع ، وقد لمح القوم احدى الضواحى تحترق وقد امتدت ألسنة الدخان من عل

وجلس يورى وسامديفياتوف على أرض العربة ، وقد سرح سامديفياتوف ببصره ، وجعل يوضح ليورى مايريانه . وكانت زمجرة القطار تطغى على صوته ، فيضطر الى الانحناء نحو أذن يورى ، الذى يقاطعه هو الآخر :

ـ هذه دار سينما ، أحرقوها ، وقد كانت محتلة ببعض ضباط الاحتياط الذين استسلموا ، ولكن القتال لايزال دائرا ... هل ترى تلك البقع القاتمة التى تعلو قبة الكنيسة ؟. انهم رجالنا يمطرون التشيكيين برصاصهم

قال سامديفياتوف ، وقد غابت عن ناظره ملامح المدينة المحترقة ، والخزانات وعمد التلغراف ، وطالعته مناظر التلال والاحراج :

ـ هيا بنا نعد الى مقاعدنا ، فبعد قليل سأغادر القطار ، كما ان محطتكم بعد المحطة التالية ، حاذر ان تفوتك

ـ لعلك ملم بدقائق هذه المنطقة !

ـ كما أعرف كل شبر فى بيتى ، ان عملى كمحام يجعلنى كثير التنقل

ـ حتى الآن

ـ نعم
ـ وهل توجد أعمال فى هذه الايام ؟
ـ صفقات قديمة لم تنته بعد ، أعمال تجارية ، مقاولات ، عندى منها الكثير !
ـ ألم يقض النظام الجديد على هذه الاعمال ؟
ـ اسميا لا فعليا ، والناس يمارسون نشاطهم ، وفى كثير من الاحيان بطريق المقايضة . أممت كل المؤسسات ، ولكن مجلس السوفييت المحلى فى حاجة الى الوقود ، والمجلس الاقتصادى يحتاج الى ما ينقل عليه المؤن ، وكل فرد يريد أن يعيش . انها فترة انتقال ، هنـــاك فرق بين النظريات والتطبيق ، وهذا الوقت يحتاج الى كل ماهر ، وبارك الله فيمن يغضى ، اننى مازلت أذكر كلمة قالها والدى « لكل ضر سبب » اسمع ياعزيزى .. ان أغلب أهالى المقاطعة يعتمدون على الماثل أمامك فى معيشتهم .. قد أكون ذا فائدة لكم فى فاريكينو ، فان صلتى بآل ميكوليتسين طيبة
ـ أتدرى لماذا نحن ذاهبون الى هناك ، وماذا سنفعل ؟
ـ الى حد ما ... حنين الانسان لمسقط رأسه ، والامل فى الحياة بعرق الجبين
ـ ألا يروق لك ذلك ؟
ـ أمر يدل على السذاجة ، أتمنى لكم الحظ والتوفيق
ـ هل يمكنك أن تخبرنى كيف سيستقبلنا ميكوليتسين ، قوميسير المنطقة ؟
ـ أسوأ استقبال ! سيمنعكم من الدخول ، بل سيطردكم ويلهب ظهوركم بالعصى ، وهو فى ذلك محق ! فهو فى محنة ، والحالة كما ترى : مصانع مقفلة ، عمال عاطلون ، لا طعـــام ولا شراب ، ثم تأتون . لئن قتلكم فلا يلام
ـ هذا رأيك ... انك بلشفى ، ومع ذلك تقرر أن ما يجرى

الآن ليس حياة ، بل انه كابوس وجنون

ـ لا شك انه كذلك ، ولكنه أمر محتوم مكتوب علينـــا ، ويتحتم علينا تقبله

ـ ولماذا تقول محتوم ومقدر ؟ ألا يمكن تجنبه ؟

ـ أتتكلم بلغة الاطفال ، أم انك تتظاهر بذلك ؟ هل أنت قادم من المريخ ؟ الرأسماليون الجشعون نقفون خلف صفوف العمال الخاوية بطونهم ويقذفون بهم الى الموت ! ولكن هل تظن أن الامور ستبقى هكذا ، دون أن تتطور الى ما هو أشد سوءا ، هل غاب عن ذهنك أن الشعب محق فى غضبته ونزوعه للعدالة والمساواة ؟ أم تظن أن تغييرا شاملا يمكن أن يحدث بالطرق البرلمانية ؟



نزح ميكوليتسين من بطرسبرج ، واستوطن هذا المكان منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما ، وكان فى ذلك الوقت طالبا فى المعهد الصناعى ، ثم أبعد ووضع تحت الرقابة . فلمـا حط رحاله ، اشتغل مديرا لاملاك أحد أصحاب الضياع يدعى كروجر الذى كان له فى ذلك الوقت أربع أخوات ، اشتهرن بالجمال ، مما جعل الشبان يتهافتون عليهن ، وقد تزوج ميكوليتسين أكبرهن سنا

وبعد فترة رزقا بولد ، خلع عليه أبوه ـ لحبه للحرية ـ اسما غريبا . اذ سماه « ليبريوس » أو ليفكا ، وقد شب مشربا بالشراسة ، ولكنه ماهر فى كل مايفعله . كان فى الخامســة عشرة عندما نشبت الحرب ، فذهب الى الجبهة متطوعا بعد أن زور شهادة ميلاده ، ولقد ماتت أمه عند اندلاع الثورة اذ لم تحتمل تلك الصدمة

ووضعت الحرب أوزارها ، وعاد ليبريوس الى داره « بطلا »

برتبة ملازم ، تزين صدره أوسمة ثلاثة ، وطبيعى أنه تشرب بالبلشفية

ــ هل سمعت عن « آخوان الغابة ؟ »

ــ لا أظن

ــ اذن لاداعى لسرد القصــــة ، لماذا تحدق هــكذا خارج النافذة ؟ ماذا يدهشك من مناظر الطرق العامة ؟ الانصار ...

انهم عصب جيش الثورة فى هــذه الحرب الاهلية ، ان أهم ما تتسم به قوة هــذا الجيش : التنظيم الذى استولى على زعامة الثورة ، والجندى الذى رفض بعد الحرب الاخيرة اطاعة السلطات السابقة . ومن هذين العاملين ولد جيش الانصار ومعظمهم من الفلاحين الرقيقى الحال ولكن كان معهم بعض الرهبان المجردين من كهنوتهم ، وبعض الفوضويين ، وأناس ليس لهم لون سياسى ، وبعض الطلاب الذين فصلوا لسوء سلوكهم ، وكذلك أسرى حرب من الالمان والنمساويين غرر بهم ووعدوا بالحرية والعودة الى الاوطان . واحدى وحدات هذا الجيش المختلط تدعى « اخوان الغــــــابة » وعلى رأسهم الرفيق ليبريوس بن أفيركى ستيبانوفيتش ميكوليتسين

ــ هل تعنى ما تقول ؟

ــ تماما ، دعنى أتابع القصة . فقد ماتت زوجــة أفيركى ستيبانوفيتش ، فتزوج مرة ثانية ... تزوج ايلينا بروكلوفنا، وكانت لا تزال طالبة ، طيبة الى درجــة السذاجة . وكانت صغيرة السن ، ورغم ذلك كانت تتظاهر بأنها أصغر مما هى . فتفعل مثلما تفعل الفتيات الصغيرات . وعندما تراك تبادرك بأسئلة غاية فى الغرابة ، وسترى كل ذلك بنفسك بعد لحظات .

أما الرجل العجوز فله طباعه ، وقد درس الهندسة البحرية ، وهو يواظب على حلق ذقنه ، وغليونه لايفارق فمه ، ولذا يتكلم من بين أســـــنانه ، فكه الاسفل بارز بشكل ملحوظ ، وهو

بالاضافة الى ذلك ثورى اشتراكى ، انتخب نائبا عن المنطقة فى الجمعية التأسيسية

ـ اذن فالوالد والولد عدوان سياسيان !؟

ـ هما كذلك نظريا ، ولكن فى الواقع ، الغـابة لا تحارب فاريكينو ... دعنى أكمل القصة ، ان الاخوات الثـلاث الاخريات ، اخوات زوجة ميـكوليتسين الاولى ، يعشن فى يورياتين حتى الآن ـ كاهن عوانس ، وقد تغيرت الايام ، وتغيرت معها البنات كذلك . والآن حان الوقت لأتوقف عن الحديث ، فقد اقتربنا ... هذه محطتى ، ومحطتكم هى التالية ، وأفضل أن تستعدوا

وقالت تونيا ، بعد أن غادر سامديفياتوف القطار :

ـ اننى أشعر أنه رجل طيب ، ولو أننى لا أدرى ما رأيك فيه ، لكنى أرجح أنه سيكون طالع سعد فى حياتنا

ـ هذا جائز ياتونيا ، ولكن ما يزعجنى هو أن الجميـع يعتقدون أنك حفيـدة كروجر ، المشهور ، وقد سـألنى سترلينكوف عندما قلت له ان مقصدنا فاريكينو عما اذا كنا ورثة كروجر !

ثم استطرد يورى يقول :

ـ لقد غادرنا موسكو وكنت أظن أننا سنكون فى أمان ، ولكن يظهر ان الشك يحوم حولنا ، ولا أدرى ماذا يمكن أن نعمله ازاء ذلك ، كما أن الندم لا يجدى . وعلى العموم ، خير لنا ان نتمسك بهدوئنا ، وأن نظل كما نحن فى المؤخرة ... اننى لا أشعر باطمئنان ، لقد اقتربنا ، هيا نوقظ الآخرين ونستعد



على رصيف محطـة تورفيانايا ، وقفت تونيا مع أفراد الاسرة وتملكهـا القلق ، وقـد ظل طنـين العجـلات

الرتيب يرن فى أذنيها ، رغم أن القطار كان ساكنا لا يتحرك ، فحال ذلك دون التفكير السليم

واخذ المسافرون يلوحون لها من القطار باشارات الوداع ؛ ولكنها ، وقد سبحت بها الافكار ، لم تتنبه اليهم ، بل أنها لم تشعر أن القطار قد تحرك الا بعد أن وجدت أمامها السماء الزرقاء والحقول الخضراء

وجلس أفراد أسرة زيفاجو على مقاعد المحطة وقد وضعوا حقائبهم على الارض ، وكانوا هم الوحيدين الذين نزلوا فى هذه المحطة ، وقد أدهشهم سكونها ونظافتها ، اذ كانت على النقيض من المحطات الكبرى التى تزدحم بالاصوات الصاخبة ويعلو فيها الضجيج

وتحيط بالمحطة غابة ، كانت أشجارها تهتز حينما يخترقها قطار ، فكانت ظلالها تتحرك فى هدوء فوق وجوههم وأجسامهم، وفوق الارض والجدران . وكان الجو باردا ، وزقزقة العصافير توحى بشعور غريب وهى تحلق فوق الغابة ، شعور بالطهر ينبىء بالحياة الطبيعية الساذجة . ولم يكن فى الغابة سوى طريقين : طريق السكة الحديدية ، والطريق الريفى ، وكلاهما تعلوه أغصان الاشجار

وتجلى كل شىء فجأة أمام ناظرى تونيا : جمال الطبيعة ، أصوات العصافير وهى تغرد أغاريد لا يفهم معناها الا خالقها ، هدوء الغابات ، السكون الشامل الذى لايعكره ضجيج وصخب المدن

ودار بذهنها أنهم لن يصلوا سالمين، وأنمسلك سترلينكوف ليس الا مجرد تظاهر بالكرم ، وانه لن يلبث حتى يلاحقهم باشارة برقية يأمر فيها باحتجازهم فور وصولهم ، لانها ــ فى هذه الايام خاصة ــ لا تثق بالعواطف النبيلة ، وتعتقد أن الخداع ديدنهم

وانبسطت أمامها مناظر الطبيعة الساحرة ، فنسيت ما جال بذهنها ولم تلبث أن صاحت :

ـ ما أجملها !

ثم انفجرت تبكى

وعلى صوت بكائها ، تقدم نحوهم رجل مسن : لاح من سترته انه ناظر المحطة ، وسألهم فى تأدب ، بعد أن حياهم بلمس قبعته

ـ يظهر أن أعصاب السيدة متعبة ، فهل ترغب فى مهدىء للأعصاب ؟ انه لدينا فى الخزانة الطبية

فقال الكسندروفيتش :

ـ شكرا . شكرا . ستتحسن بعد لحظة ، ان الامر لا يدعو الى القلق ، لقد ائتمر عليها قلق الرحلة ومتاعبها ، والحر اقائظ . . . وأحداث يوريانتين ، فقد شاهدنا النار ونحن فى القطار

ـ هل أنتم من الروسيا الوسطى ؟

ـ من صميمها !

ـ من موسكو اذن ! وكيف تفقد السيدة أعصابها ، وهم يقولون أن موسكو أضحت خرابا

ـ انهم يبالغون ، على أننا رأينا الكثير . انها ابنتى ، وهذا زوجها ، وهذا طفلهما الصغير ، أما هذه فممرضته نيوشا

ـ آه . . . هؤلاء أنتم اذن ! كيف حالكم ؟ يسرنى أن أراكم ، فقد اتصل سامديفياتوف تليفونيا من ساكما ، وأخبرنى أن

ـ الدكتور زيفاجو صهرى ، وها هو ذا ، أما أنا فاسمى الدكتور زيفاجو وأسرته فى طريقهم الى هنا من موسكو ، وطلب منى أن أقدم أقصى ما يمكن من المساعدة

جروميكو ، اننى أستاذ فى الزراعة

ـ معذرة ان كنت قد أخطأت ، تسرنى رؤيتكم ويشرفنى

التعرف بكم

ـ اذن فأنت صديق لسامديفياتوف ؟

ـ من هنا من لا يعرفه ؟ ذلك الكادح العجيب ، انك لا تتصور كيف تكون حالنا بدونه ، كان الموت يدركنا ولا شك ، لقد طلب الى أن أقدم ما استطيع من المساعدة ، وطبعا أجبته بأن ذلك يسعدنى . أرجو أن أعرف ما أنتم بحاجة اليه ، هل تريدون حصانا ؟ الى أين تقصدون ؟

ـ فاريكينو وجهتنا ، هل هى بعيدة ؟

ـ فاريكينو ! أننى لادهش بمن تذكرنى ابنتك ! هذا يفسر الامر ! ان كروجر الشيخ ، والماثل أمامكم ، بنينا هذه الطريق معا . سأبحث عن حصان ، وسأدعو رجالى ليبحثوا عن عربة

ثم خاطب أحد الرجال قائلا :

ـ دونات ، خذ هذه الحقائب الى حجرة الانتظار ، ثم أسرع الى المقصف وأعد ما يمكن لهؤلاء الضيوف الكرام . الحصان كان مربوطا هنا فى الصباح ، الا يزال فى مكانه ؟ أخبرهم أن أربعة مسافرين الىفاريكينو قد وصلوا لتوهم ومعهم بعض الحقائب الثقيلة ... أسرع ... أما أنت يا سيدتى ، فأنصحك ان تكونى حذرة فيما تذكرينه عن نسبك . ومن الخطر أن تتحدثى طويلا مع الناس فى هذه الايام

كان الجواد فرسا بيضاء وضعت منذ أمد قصير ، أما السائق فعجوز مترهل الجسم ، شعره ابيض مشعث ، ولم يكن شعره فقط هو الابيض ، بل كان كذلك حذاؤه الجديد ، وقميصه ولباسه قد استحالا الى بياض لقدمهما

وأخذ المهر ، بلونه الاسود الفاحم ، يتبختر وراء أمه بناصيته القصيرة ، وهو يضرب الارض بقوائمه الصغيرة

واستند المسافرون الى جدران العربة ، وهى تقفز علىطريق

وعر وقد اطمأنت قلوبهم ، الى انهم قاب قوسين أو أدنى من نهاية الرحلة ، وأن حلمهم قد تحقق ، وقد أخذت ســـاعات النهار تتهادى ، لتطيل من صفاء النهار وبهائه

وكانت العربة تخترق بعض الغابات أحيانا ، وبعض الحقول أحيانا أخرى ، فكانوا ينزعجون كلما اصطدمت عجلاتها بجذر بارز ، فيتملكهم الخوف ، ويلتصقون ببعضهم وهم يهمهمون، وكان يحدث لهم ذلك عندما يخترقون احدى الغابات ، أما في الحقول فكان يسودهم الهدوء والطمأنينـــة ، وكأنهم فى نزهة خـــلوية .

وكان للتلال التى تغمر المنطقة تعبيرها الخاص ، وطابعها الفريد ، اذ كانت ترتفع من بعيد ، وكأنها أشباح تراقب ، فى صمت ، مرور المسافرين ، وتنشر فى الحقول ضوءا ورديا يبعث الطمأنينة فى النفوس ، فيهدىء أعصابهم ويذكى الامل فى قلوبهم

وفجأة استدار السائق وأخذ يحدق فى عينى تونيا ، وقال :

ــ هل تظنين أيتها السيدة الشابة اننى لم أعرف من أنت ؟! انك تكونين ساذجة أيتها الشابة لو دار بخلدك هذا ! فلتسحقنى اللعنة اذا لم أكن قد عرفتك ! .. انك صورة حية طبق الاصل لكروجر ، كدت لا أصدق عينى ! ألست حفيدته ! ومن غيرى يمكنه أن يتعرف على أحد من سلالة كروجر ! لقد أفنيت زهرة شبابى وأنا أعمل عنده ، فى المناجم ، وفى الغابات ، وفى الاسطبلات

وراح الشيخ يتدرج فى الحديث ، الى أن ذكر لهم ماكانوا قد سمعوه من سامديفياتوف عن عائلة ميكوليتسين ، وكان يسميهم ميكوليتش وميكوليتشنا ، فكان يقول أن ميكوليتشنا هى الزوجة الثانية للمدير ، وأن الزوجة الاولى كانت من طراز الملائكة ، ولا أبالغ ، ان قلت ، انها كانت ملاكا حقا . وعندما تطرق

به الحديث الى قائد الانصار ليبريوس ، علم أن خبره وصيته لم يبلغا موسكو ، وأنها ـ أى موسكو ـ لاتعلم شيئا عن اخوان الغابة ، فلم يصدق ذلك ، وقال متعجبا :

ـ كيف لم يسمعوا بالرفيق رجل الغابة ! أيتها الملائكة .. أليس فى موسكو آذان ؟ !

وأقبل المساء ، فأخذت هواجسهم تتراقص أمامهم ، وكانوا يسيرون وقتئذ فى طريق منبسط ، وتنتصب هنا وهناك ، فى مجموعات ، جذوع طويلة وأعشاب ذات أزهار ، كانت تبدو كالاشباح ، وكأنها حرس لمراقبة السائرين

ومن بعيد ، كانت تلوح لهم سلسلة من التلال عبر الطريق، خلفها منحدر أو جدول ، فبدا لاعينهم كأن الفضاء يقوم عليه حاجز ، وأن الطريق يقود الى بابه

وعند قمة المنحدر، قام منزل ذو طابق واحد، فقال باخوس:

ـ هل ترون المنظر عند قمة التل ؟ هناك يقيم ميكوليتش وميكوليتشنا ، وتحت التل واد يدعى شوتما

وانفجر صوت طلقين ناريين من التل ، تردد صداهما فذعر المسافرون ، وسألت تونيا فى جزع :

ـ ما هذا ؟ هل الانصار يطلقون النار علينا أيها الجد ؟

ـ اطمئنى ، ليس الامر كذلك ، انه ميكوليتش يطارد الذئاب فى الوادى

كان منظرا مؤثرا ، ابتدأ بالصمت ثم تدرج حتى أصبح ضجيجا صاخبا ، عند لقائهم الاول مع آل ميكوليتسين فى فناء بيت المدير

وعادت ايلينا بروكلوفنا الى البيت من نزهة فى الغابة ، تسير عبر الفناء ، تلاحقها أشعة الشمس الذهبية ، وترتدى

ثوبا هفهافا ، وراحت تجفف وجهها بمنديل صغير من شدة الحر ، بينما تعلقت قبعتها وراء ظهرها بخيط رفيع حول عنقها الماجى

وأقبل زوجها ليستقبلها عند المنحدر ، وهو يحمل بندقيته وفى هذه اللحظة فاجأهم باخوس مندفعا بعربته ، وقد صمت الآذان طرقعة العجلات فوق الاحجار ، حاملا المفاجأة الكبرى

وظهر المسافرون ، وأخذ الكسندروفيتش يثرثر ويتمتم ، وهو يرفع قبعته ثم يعود فيضعها فوق رأسه

وعقدت الدهشة لسان المضيفين ، فلم ينبسا بكلمة ، كما شمل الاضطراب الضيوف ، وارتسمت علائم الخجل على وجوههم ، فكان الموقف أشد حرجا للجميع على السواء

وقطع ميكوليتسين حبل ذلك الصمت الموحش ، أخيرا ، حين قال :

ـ أننى لا أفهم من الامر شيئا ، بل ليس عندى الاستعداد لكى أفهم ، ماذا أرى ؟ ! ماذا أتى بكم ؟ وهل فكرتم فى المسئولية التى ستقع على عاتق لافركى ستيبانوفيتش ؟ لا تقاطعينى يالينوتسكا .. هل تدبرتم الامر وعرفتم مبلغ العبء الذى تلقونه علينا ؟

ـ مهلا ! لقد هولتم الامر وأسأتم الظن ، ليس فى نيتنا أن نثقل عليكم ، أو نعكر صفو هنائكم .. أمنيتنا متواضعة : حجرة فى بناء قديم ، وقطعة أرض بائرة ، نزرع فيها شيئا من الخضر ، وقليل من الحطب نجمعه من الغابة ، هل ذلك عبء ثقيل ؟

ـ ان العالم فسيح ، لماذا وقع اختياركم علينا دون سوانا من عباد الله ؟ مالنا نحن وما تريدون ؟ !

ـ لأن أناسا أخبرونا عنك ، ونرجو ان يكون قد وصل الى علمك خبرنا ، فلا نكون غرباء

ـ انكم تمتون بصلة القرابة الى كروجر ، وهـذا ما حدا بكم الى ذلك ، ولكن هل هذا هو الوقت الملائم لما أقدمتم عليه ؟

على أنه بعـد فترة اخـذ يخفف من حـدة لهجته ، وبدأ يلين ، فقال :

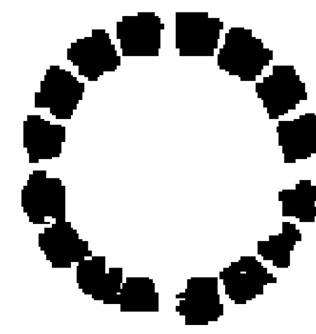
ـ لا بأس ، الفناء ليس مكانا لائقا للنقاش ، يجدر بنا أن ندخل ، وليس ذلك امتنانا منى عليكم ، بل لأننا نرى شبحا من خلال الزجاج ، لسنا وثنيين فنطردكم الى الغـابة حيث تفترسكم الدببة

ثم وجه الكلام الى لينوتسكا قائلا :

ـ لعل أفضل مكان لهم ، أن نفرد لهم مؤقتا الحجرةالكبيرة التى بجوار المكتب ، ونرى فيما بعد ما اذا كان فى الامكان أن يستقروا . تفضلوا الآن بالدخول .. احمل حقائبهم ياباخوس .. وبعد ذلك أفضل أن ندبر لهم مكانا فى الحديقة

وأخذ باخوس ينقل الحقائب ، وهو يتمتم :

ـ يا اله السماء ! ان حقائبهم قليلة بقدر ما هى صغيرة



الفصل التاسع

فاريكينو

حل الشتاء ، ووجد يورى أندريفتش فسحة من الوقت . فأخذ يكتب مذكراته ، وعندما اقترب الربيع ، كتب الطبيب :

« لقد أخبرت تونيا أنها حامل ، انى اعتقد ذلك ، بل متأكد ، ولكنها لم تصدقنى . فمن مهنتى وتجاربى عرفت ظواهر الحالة ، فان وجه المرأة يتغير ، بحيث لا يمكنها التحكم فيه ، لانها تتأثر بالمستقبل الذى ينتظرها ، فهى تفقد سيطرتها على مظهر جسدها ، فيبدو فى حالة انهيار ، ويخبو وجهها ، بينما تقل نعومة بشرتها ، وتلمع عيناها ببريق لاينم عما تكنه ، وبالجملة تصبح فى حالة عجز الى حد اهمال نفسها

« اننا نقتل الوقت فى قراءة القصائد . . . وصل سامديفياتوف أمس ، ومعه كثير من الهدايا : أطعمة شهية ، وغاز للمصابيح ، وقد تحدثنا طويلا فى مختلف الفنون

« وكنت دائما أعتقد أن الفن ليس شيئا مقولا ، وليس عالما غامضا ، بل على النقيض ، شىء محدود ، ومبدأ موجود ، نلمسه فى كل أثر فنى ، وانه قوة وحقيقة ، اننى لم أر الفن كشكل ، بل كشىء خفى من المضمون ، اننى أفهم ذلك بوضوح ، بل أحسه بجميع مشاعرى ، ولكن من الصعب التعبير عن الفكرة

« ان الاثر الادبى يجتذبنا بوسائل شتى ، بموضوعه ، وفكرته ، وأجوائه ، وأشخاصه ، ولكنه قبل كل ذلك يؤثر فينا لوجود الفن فيه . ان الفن دون غيره فى « الجريمة

والعقاب » هو الذى يطبع فينا أعمق الاثر ، وليست قصة الجريمة

« ان الفن البدائى ، سواء المصرى أو الاغريقى ، أو فننا نحن ، واحد على ما اعتقد خلال الاجيال الطويلة ، وفى مقدورك أن تعتبره فكرة أو رأيا فى الحياة ، شاملا ، بحيث ان أية ذرة منه فى أى أثر ، تفوق كل شىء شأنا ، وتكون هى جوهر الاثر بل قلبه النابض

« بماذا أشعر ؟! سعال ، برودة ، وفى أحيان أخرى حرارة ، لاينقطع تنفسى طول النهار ، وكأن عائقا فى مخرج التنفس ... اننى فى حال يرثى لها ... لعل هذه أولى الظواهر التى تدل على اننى ورثت الداء عن أمى ــ لقد عانته المسكينة طول حياتها ، فهل حقا ما انا فيه ؟ وهل بهــذه السرعة ؟ ان اجلى لقريب وبقائى فى هذه الدنيا لن يطول ان كان الامر كذلك

« ان تونيا تكوى الثياب ، وتضع فحما فى المكواة ، لذلك أتنسم رائحة فحم ، ان ذلك يذكرنى بأمر لا أذكره ، ولعل هذا بسبب حالتى الصحية

« سأبادر الى مكتبة المدينة ، عندما تتحسن صحتى ، لاقرأ ماسطر عن تاريخ المنطقة وسكانها ، علمت أنها تضم مجموعة ثمينة من الكتب ، وهناك أجد مايحفزنى على الكتابة .. لن يلبث الربيع أن يأتى ، فلأسرع ، والا فلن أجــد متسعــا من الوقت لما تصبو اليه نفسى

« أحس بآلام الصداع تشتد يوما بعد يوم ، ولم أصب قسطا من النوم ، مر بى حلم باهت لا أذكره ، الا ما أيقظنى منه .. لقد سمعت صوت امرأة يتردد فى الهواء ، ظللت أقدح الذهن كى أتذكر صاحبته ، ورحت أستعرض جميع من عرفتهن من نساء ، عسى أن أتبين من هى صاحبة هــذا الصوت الناعم ، العميق ، فلم أوفق . ظننته صوت تونيا ، واننى لشدة الالفة

لا اتبينه ، وحاولت أن أبعد عن ذهنى أنها زوجتى ، وأنه لاتربطنى بها صلة ، لكى أعرف جلية الامر ، ولكن الصوت لم يكن صوتها ، كان صوتا غامضا . ولقد درج الناس — فيما يتعلق بالاحلام — على أن الانسان يحلم بما يؤثر فيه تأثيرا قويا أثناء النهار ، ولكن يبدو أن الامر على النقيض ، فكثيرا مايحلم الانسان بأمور لم يعرها أى اهتمام ، بل لم يفكر فيها . فتأتى فى شكل حلم فى المنام ، كأنما هى تريد أن تعوض نفسها عن نصيبها من الاهمال فى اليقظة

« أقبل الربيع بأزهاره ورياحينه ، لشد ما يسعدنى أن أكتب ، ولكن عمر الربيع قصير ، واذن لامفر من الانتظار حتى الشتاء

« وحضر لى — على زحافة — فلاح مريض ودلف الى ساحة الدار غير عابىء بالوحل المختلط بالجليد ، ولا بالمطر المنهمر ، يقصد أن أفحصه ، فرفضت ، بحجة أننى لم أعد امارس الطب ، وذكرت له أن لا دواء عندى ولاأدوات طبية . واذهلنى ان اراه يلح ، قائلا :

— لا أطيق لمس جسدى من شدة الالم ، رفقا بى ، فاننى مريض .

« وماذا يمكن ان أفعل ازاء تضرعه واستعطافه !؟ هل أنا بشر بلا قلب ؟ ولم اتمالك ان طلبت اليه ان يخلع ثيابه ، ثم فحصته . ويأله من تعس ، فقد كانت علته داء الرئة . وبينما أنا مستغرق فى فحصه ، حانت منى ألتفاتة عن غير قصد الى زجاجة دواء فوق النافذة ، من أين جاءت ؟! لقد حملها الينا سامديفياتوف ضمن ماحمل من الهدايا ، ولعله أتى بها لعلمه بأنها من الحاجيات التى لا أستغنى عنها

« وفجأة — ودون سابق اخطار أو انذار — دلفت زحافة أخرى الى ساحة الدار ، وظننته مريضا آخر فى طريقه الى ،

ولكن الدهشة أخذتني عندما تبينت أن القادم أخي ايفكراف ، هبط علينا من السماء ، لاندري كيف جاء ! والتفت حوله العائلة ترحب به ، ويسأله كل فرد كيف جاء ؟! ومن اين جاء ؟ ولكنه ، على عادته ، يتجاهل استفساراتهم ويتهرب من الرد عليها ، ويكتفي بالابتسام ، وهز كتفيه ، وان تكلم ، فكلمات أقرب الى الالغاز

« ورحل الى يوكاتين ، بعد أن قضى بيننا نحو أسبوعين ، ثم انقطعت أخباره ، كأنه رحل الى القمر . ومن عجب أنني لاحظت أنه يتمتع بنفوذ أقوى من سامديفياتوف ، وأن حركاته وأعماله يكتنفها الغموض ، فتساءلت :

ــ ماذا هو الآن ؟ وماهي طبيعة عمله ؟ وماسر هذا النفوذ الذي يتمتع به ؟

« وكان قد وعدنا بأن يمهد لنا سبيل حياة أوفر رغدا ، كي يتيح لتونيا قسطا اكبر للعناية بساشنكا ، ويتيح لي مجالا أوسع لممارسة الطب والكتابة ، ولما أردنا أن نعرف منه كنه معاونته ، اكتفى بالابتسام ، ولكن الدلائل كانت تشير الى أنه سيبر بوعده ، وأن احوال معيشتنا ستتحسن

« ما اغرب هذا الامر ! فهو أخي من أبي فقط . ونحمل نفس الاسم ، ومع ذلك أجهل عنه كل شيء !

« هذه هي المرة الثانية ، التي يدخل حياتي فيها كطالع سعد ، لينقذني مما يلم بي ، ولعلها قوة خفية ، تظهر في شكل انسان ، لنجدة الغير من غير دعوة أو استغاثة ، وأغلب الظن أن أخي يقوم بدور الكريم المبهم »

ووقف يوري عند هذا الحد في كتابة مذكراته ، فلم يستأنف كتابتها بعد ذلك



توجه يوري الى المكتبة ، واتخذ مكانه في غرفة القراءة ،

وانتقى بعض الـكتب وأخذ يتصفحها . وتتسع الغرفة لعدد كبير من القراء ولهـا عدة نوافذ ، وقد وضعت المـكاتب فى صفوف تنتهى عند النوافذ

وكان المعتاد أن تغلق المكتبة أبوابها عند الغروب .. وكانت بلدة يوريانتين ، التي فيها المكتبة ، لاتضاء فى الربيع ، ولذا كان زيفاجو يغادر المكتبة قبيل هبوط الظلام ، فيأخذ الجواد الذى حصل عليه من ميكوليتسين ، والذى كان يتركه فى اسطبل سامديفياتوف ، ثم يقفل عائدا الى فاريكينو فى المساء

ولم يكن يورى قد زار يوريانتين، اذ لم يكن له فيها مصالح خاصة ، فكان لايعرف شيئا عنها . أما وقد طالع أهل البلدة وهم يتوافدون على المـكتبة ، ويأخذون مجالسهم فى الغرفة التى يجلس فيها ، فقد شعر بأن معالم البلدة ليست غريبة عليه ، وانه بدأ يتعرف اليها

وبنظرة من النوافذ ، كان فى وسع المرء أن يرى صـورة حقيقية ليوريانتين. ففىمواجهة احدىالنوافذ يوجد وعاء ملىء بالماء ، كما كان جمهور المطالعين يهبطون ، فى فترة الاستراحة ، الىالبهو ، للشرب أو للتدخين ، ثم يسرحونبأبصارهم لاستجلاء مناظر البلدة

ورواد المـكتبة نوعان : الاول وهو الغالبية من الشـيوخ المفكرين ، وأما الثانى فهو من الذين اتخذوا القراءة هواية للاستزادة من معلوماتهم . ومعظم النوع الاول كان منالنساء ، وكن يرتدين الملابس القديمة ، وقد انتفخت وجوههن بسبب الجوع ، أو الترهل ، وكن من رواد المكتبة المواظبين ، ولذا كن يعرفن موظفيها ، وبسبب مثابرتهن على الحضور كن يشعرن بأنهن فى منازلهن

أما ماعدا اولئك من الرواد ، فـكانوا من ذوى الاناقة فى ملابسهم ، يلجون المكتبة فى تأدب وحياء ، وكأنهم يدخلون

بيتا من بيوت الله ، وكانت لهم أصوات رتيبة فى القراءة ، تطفى على من عداهم

ويجلس مدير المكتبة ومساعداه على مكتب يطل ، خلال فجوة بالحائط ، على النافذة ، ويفصل بينه وبين الغرفة حاجز مرتفع . وأحد المساعدين امرأة تميز وجهها بالعبوس ، لاتنفك تضع منظارها على عينيها ثم ترفعه ، فى حركة لاشعورية . وترتدى المساعدة الأخرى قميصا أسود اللون ، تبدو وكأنها ذات صدر ضعيف ، اذ كانت تتنفس فى اجهاد ، وتتكلم من خلال منديل لايفارق فمها

وكانت وجوه الثلاثة تشبه بعضها البعض من حيث الطول والترهل ، شأنهم فى ذلك شأن معظم الرواد ، وقد اصطبغ جلدهم ذو الثنيات باللون الازرق ، فاضحى بلون التراب الرمادى . وكان الثلاثة يتناقشون فى همس مع الجدد من الرواد فى شرح القوانين ، والأنظمة وتفسيرها . ويوزعون بطاقات طلب الكتب ، ثم يقومون باعطاء الكتب لطلابها ويستردونها ، وهم يتناوبون هذا العمل فيما بينهم ، وفى أثناء ذلك كانوا ينشغلون فى تحرير التقارير

وعاد يورى بمخيلته الى الوراء ، يتخيل منظر المدينة ، عندما جلس سامديفياتوف الى جواره على أرض العربة فى القطار ، كما تذكر ملاحظاته فى هذا الشأن . وارتسمت فى مخيلته هذه المناظر والخواطر ، وهو يرى الآن المدينة على حقيقتها من خلال النافذة ، كما رآها داخل الغرفة . ولفت نظره أن وجوه الجميع متورمة ، كأنما هم جميعا مصابون بداء واحد ، فتذكر لتوه وجه المرأة العبوس التى كانت تتولى أعمال التليفون فى المحطة ، غداة وصوله . وحاول أن يربط بين ماسمعه وبين مايراه .

وجلس يورى فى مكان قصى فى آخر الغرفة ، وقد بسط

امامه احصاءات عدة عن أراضى تلك المنطقة ، كما كان أمامه كثير من المراجع عن أصل سكانها ونشأتهم . وطلب مزيدا من المراجع عن تاريخ بعض الثورات ، ولكن المساعدة ذات القميص الاسود ، التى تتكلم من خلال منديلها ، أفهمته أنه لايحق له الحصول على عدد آخر من المراجع ، وأن عليه أن يعيد بعض مالديه اذا أراد استعارة غيرها

ازاء ذلك ، عكف يورى على ما أمامه ، وأخذ يستوعبها فى جد وعجلة ، كى يحتفظ لديه بما هو فى حاجة اليه ، ويستبدل بالباقى المجلدات التاريخية التى تهمه . وحصر جميع أفكاره فى ذلك ، فلم يلتفت يمنة أو يسرة ، ولم يشعر بمن حوله من القراء ، كأنه وحيد فى الغرفة وليس فيها أحد سواه .

وتحركت الشمس وانتقلت من الزاوية الشرقية للغرفة ، واخذت ترسل أشعتها فتلقي بها على وجه قارىء قريب . ونهضت المساعدة التى لايفارق المنديل فمها ، وأخذت تسدل الستائر البيضاء على النوافذ ، لتحد من شدة الضوء ، وتركت النافذة الاخيرة ، اذ كانت لاتزال فى الظل ، وعندما اقتربت من يورى ، لتنشر الستار ، فاجأتها نوبة من السعال . وبعد عشر عطسات أو أكثر ، أدرك يورى انها شقيقة زوجة ميكوليتسين ، وانها احدى فتيات تونتسيفا اللواتى جاء ذكرهن على لسان ساملديفياتوف ، ورأى نفسه ، كما فعل سائر القراء ، يرفع راسه وينظر اليها

وأدهشه أن يلاحظ تغييرا فى الغرفة ، اذ جلست قارئة جديدة فى الطرف الآخر منها ، واذهله ان يعرف فيها لتوه انتيبوفا ، رغم انها كانت تجلس وظهرها اليه ، وقد استغرقت فى حديث مع المساعدة المريضة ، التى انحنت فوقها . ولاحظ من ملامح الموظفة ، أن الحديث ترك أثرا حسنا فى نفسها ، اذ فارقتها نوبة السعال ، وبدا عليها الهدوء ، بعد ما انتابها

من توتر عصبى ، فما كان منها الا أن ألقت نظرة امتنان حانية الى أنتيبوفا ، ثم رفعت المنديل عن فمها ودسته فى جيبها ، وعادت الى مقعدها ، وقد لفتهــا الفرحة ، وارتسمت على وجهها ابتسامة

ولاحظ القراء ماحدث ، فابتسموا ، وقد أخذوا ينظرون الى انتيبوفا بعين الرضا والامتنان ، فتبين ليورى أن أنتيبوفا تحظى بقسط وافر من المحبة من الجميع

وقفز الى ذهنه خاطر ، هو أن يذهب اليها ويحدثها ، الا أن حياءه ، وكان قد تسلل فيما مضى الى علاقته بها ، منعه من تنفيذ ما جال بخاطره ، ففضـــل الا يزعجها وأن يستمر فى قراءته . وأدار كرســـيه كى يتحاشى النظر اليها ، وأمسك كتابا وراح يحاول القراءة

ومع ذلك حانت منه التفاتة اليها فرآها ترتدى قميصـــا شفافا مزركشا بخطوط متعارضة ، يحيط خصرها حزام ، وقد انهمكت فى القراءة بشغف ، وقد مال رأسها قليلا الى كتفها ، كما كانت تتوقف عن القراءة بين الحين والحين ، تتأمل وتفكر ، تارة ترفع بصرها نحو السقف ، وتارة تنظر أمامها الى الافق البعيد ، ثم تعود الى نفسها ، فتسند خدها الى يدها ، وتدون فى مفكرتها مقتطفات مما تقرأ بحركة خاطفة

ولاحظ يورى ماسبق أن عهده فيهــا ، أنها لا تسعى الى الحصول على اعجاب أحد ، أو أن تبدو جميلة ، وقال لنفسه :

ــ انها تكره هذه الحوافز فى طبيعة المرأة ، وكأنما تريد أن تنتقم من نفسها لأنها جميلة ، ولـكن هذا التصرف من جانبها ، يجعلها اكثر فتنة وأشد فتكا . انها ساحرة فى كل شىء ، فى جمالها ، وحسن هندامها ، فى حركاتها وسكناتها ، حتى فى قراءتها ، فهى تقرأ فى سلاسة وبساطة ، كما لو كانت تأخذ ماء من بئر ، أو تقشر بطاطس

وكانت هذه الخواطر بمثابة البلسم لدى يورى ، فهدأت من روعه ، وأشاعت الطمأنينة فى نفسه ، وزايله شرود الذهن ، ولم يتمالك نفسه من الابتسام ، ان ظهور انتيبوفا فى محيطه ترك أثرا فى نفسه ، كما أثرت فيه المساعدة المريضة

واذ هدأت أعصابه ، وشمله صفاء الذهن ، استأنف القراءة فترة طويلة من الوقت ، كان فيها أكثر انكبابا منه قبل مجيئها ، فقد استوعب كل ما امامه من المراجع ، فوضع جانبا ماهو بحاجة اليه ، وقد ساعده صفاء الذهن أن يطالع بامعان أكثر من مقال

ورأى أن ماقرأه فى يومه فيه الكفاية ، فجمع الكتب وأعادها ، وخطر له بعد ذلك الجهد ان يمنح نفسه فسحة من الوقت ، يزور فيها صديقا قديما . وما ان عقد العزم على ذلك ، حتى نهض واجال نظره فى الغرفة ، ورأى أن انتيبوفا قد غادرت مكانها ورحلت

وألقى نظرة على الكتب التى كانت معها ، فوجدها عن الماركسية . ففهم انها تريد مضاعفة ثقافتها ومعلوماتها ، لكى تتمكن من أن تعود لمزاولة عملها السابق ، وهو التدريس

ولمح عنوان أنتيبوفا على قائمة الطلب ، وقد ظهرت بين صحائف الكتب وبحركة لاشعورية حفظ العنوان ، وأدهشه أن يجده « شارع التجار أمام منزل التماثيل » . واستفهم من أحد الرواد عن ذلك فأجابه :

— منزل التماثيل اصطلاح متداول فى يوريانتين ، مثلما هى الحال فى موسكو ، فيسمى شارع باسم مبنى هام قائم فى الشارع

ومنزل التماثيل ، يشير الى منزل رمادى اللون ، تزينه تماثيل آلهة اغريقية ، وربات الشعر الحاملات قيثارات وأقنعة شيده أحد التجار فى القرن الماضى ، وجعله مسرحا للتمثيل

خاصا به . وبعد أن مات ، باعه ورثته ، وأصبح الحي كله يعرف باسم هذا المنزل ، الذى صار الآن مقرا للجنة الحزب في المدينة ، تلصق على جدران الدور الاول منه الآن البلاغات والمراسيم ، بعد أن كانت تعرض عليها فيما مضى برامج الحفلات ، والاعلان عنها



كان يوما من أيام الشتاء العاصفة الباردة ، وفرغ يورى من أعماله ، وهم بالتوجه الى المكتبة ، ولكنه ، فجأة ، عدل عن رأيه ، واستقر على أن يزور انتيبوفا ، التى حصل على عنوانها من بطاقة الطلب فى المكتبة

واخذ طريقه ، يغالب الريح والريح تدفعه ، وقد أثارت الغبار حوله من كل جانب ، فكان يضطر الى أن يغمض عينيه ، ويتوقف عن السير حتى تخف حدة الريح والغبار ، ثم يتابع السير

ويقع منزل انتيبوفا على ناصية شارع التجار ، فى مواجهة منزل التماثيل ذى اللون الرمادى الداكن ، والذى يقع عليه نظره للمرة الاولى ، وقد لاحظ أنه يطابق مسماه

وأدهشه أن يجد الطابق العلوى محاطا بتماثيل نسائية ، فى نصف حجم الانسان الطبيعى ، تمثل قصصا من قصص الاساطير . وخيل اليه ، من خلال الغبار المنتشر ، ان هذه التماثيل نسوة خرجن من المنزل ورحن ينظرن اليه فى فضول

وكان للمنزل بابان ، أحدهما يقع فى شارع التجار ، أما الباب الآخر فكان فى زقاق خلفى ضيق ، ولم يلاحظ يورى الباب الرئيسى الاول ، فدلف من الباب الثانى

وفى اللحظة التى وقف فيها امام الباب ، هبت عاصفة هوجاء ، أطاحت بالقاذورات فى الفضاء ، فحجبت الفناء عن

عينى يورى ، كما أثارت العاصفة الدجاج ، فأخذ يطارد بعضه ، ويصيح ، ويجرى بجانبه

وأخيرا ، هدات العاصفة ، واسـتقر الغبار على الارض ، فلمح الطبيب أنتيبوفا عند البئر ، حيث كانت قد ملأت دلوين ، علقتهما فوق كتفها . وقد ربطت شعرها بشال عقدته من الامام ، لتتقى الغبار ، وقد ضمت ساقيها على ثوبها الذى تعصف به الريح . ويممت شطر البيت ، ولكن عاصفة أخرى اعترضتها ، وانتزعت الشال عن رأسها ، وأطاحت به بعيدا الى نهاية سياج الفناء ، حيث كانت الدجاجات تصخب فى صياحها

ورأى يورى ماحدث ، فأسرع الى الشال ، وعاد به اليها وكانت لاتزال بجوار البئر . ورغم المفـاجأة ، التى لم تـكن تتوقعها ، فقد احتفظت أنتيبوفا برزانتها ــ كما هى عادتها ــ وحرصت على الا يبدو منها أنها فوجئت ، وكل مافعلته انها قالت فى بساطة :

ــ زيفاجو !

ــ لارا !

ــ ماذا تفعل هنا بحق السماء ؟

ــ دعينى أحمل عنك هذين الدلوين

ــ ليس من عادتى ان أتسكع فى الطرقات ، أو أن اترك عملا دون أن أتمه . اذا كان حضورك من أجلى ، هيا بنا ... ندخل !

ــ دعينى أولا احمل عنك الدلوين ، فمن العار أن اقف هكذا وأنت تحملينهما

ــ وهل ترى فى ذلك مشقة على ؟ دعهما ، حتى لايسقط الماء على السلالم ، خبرنى أولا ، اننى أعلم انك هنا منذ اكثر

من عام ، الم يكن لديك ، ولو دقيقة واحدة طول هذه المدة ، تحضر فيها لتراني ، حتى الآن ؟!

ـ كيف وصل ذلك الى علمك ؟

ـ الاخبار كالهواء تنتشر بسرعة ، كما أنني لمحتك فى المكتبة

ـ ولماذا لم تحدثيني ؟

ـ وهل لم ترني بدورك ؟

ثم تقدمته فى السير نحو المدخل ، وهى تنوء بما تحمله ، فوقفت ، ووضعت الدلوين على الارض ، ثم جففت يديها من اثر الماء ، وقالت :

ـ اتبعني ، سنسير الى البهو الامامى عبر الممر الداخلى ، فانه أوفر ضوءاً . وتنتظرنى هناك برهة ، الى أن أصعد بالدلوين من السلم الخلفى ، وابدل ثيابى ... لاتقلق ، فلن يطول غيابى ... انظر الى سلمنا العجيب ... درجات حديدية مكشوفة ، ترى منها كل شيء . لاشك أن المنزل قديم ، بل عريق فى القدم ، وقد اضعفت المدافع بنيانه ، وتلاحظ ذلك من تقلقل بعض الاحجار عن مكانها ، هل ترى هذه الفجوة التى فىالاطار ؟ فيها نضع أنا وكاتنكا مفتاح المسكن حينما نخرج

ثم نظرت اليه واسترسلت تقول :

ـ تذكر ، لاتنس ، فقد تأتى يوما أكون فيه خارج البيت ، هاك مكان المفتاح ، تلتقطه ، وتفتح الباب ، كأنك فى بيتك ، وتنتظرنى حتى أعود . هذا هو المفتاح ، وطبعا لست فى حاجة اليه الآن ، سأدخل من الخلف ، وأفتح الباب من الداخل . على أن مايزعجنى و يثيرني كثرة الفئران ، ومن المستحيل التخلص منها ، والسبب فى ذلك كثرة الشقوق التى تتخلل الجدران القديمة ، اننى الجأ الى سد ما أستطيع منها ، ومع ذلك ذهبت جهودى عبثا ، قد تساعدنى يوما ... والآن انتظر فى هذا البهو ، واشغل نفسك بالتفكير فيما يروق لك ،

وكما ذكرت لن أتأخر كثيرا ، سأعود بعد برهة

وشغل نفسه بالتطلع الى الجدران ، وقد زال عنها طلاؤها والى درجات السلم الحديدية ، وقال يحدث نفسه :

ـ جال بخاطرى فى غرفة المطالعة بالمكتبة أنها كانت مستغرقة فى القراءة بالحماسة نفسها التى تبذلها فى أى أمر صعب . وهذا صحيح ، فهى تحمل الماء من البئر بنفس السهولة والخفة اللتين تقرأ بهما ، وهى تتسم باللباقة والظرف فى حركاتها وسكناتها ، وكأنها سبقت عمرها فى كل ماتفعله ، وقد رتبت حياتها وفق نظام خاص ، بسهولة وبغير تكلف ، تلاحظ ذلك فى حركتها ، وفى ابتسامتها ، وقد انفرجت عنها شفتاها ، كما تلاحظ ذلك فى حديثها وأفكارها

وقطع عليه حبل افكاره صوتها وهى تناديه من عل :

ـ زيفاجو !!

فاخذ يرتقى درجات السلم صاعدا اليها



قالت أنتيبوفا :

ـ ستضطر الى اجتياز غرفتين حالكتى الظلام ، وقد تكدس فيهما الاثاث ، أخشى أن تصطدم بشىء ويصيبك أذى ، ناولنى يدك ، واتبع ما أشير به

ـ حقا انه ممر معقد ، وماكان فى مقدورى أن أتلمس طريقى ، لماذا هو هكذا ؟ أليس هناك من يعمل على ترميم المسكن ؟

ـ كلا • لانه يخص أحدهم ، لا أعرف من هو • ان لى مسكنا خاصا بمبنى المدرسة • وعندما استولت ادارة السكن المحلية على ذلك المبنى ، منحت أنا وكاتنكا جزءا من هذا المنزل ، اذ رحل جميع سكانه وتركوا اثاثهم ، ويوجد منه الكثير ، ولكنى أربأ بنفسى أن أطمع فيما ليس لى ، لذا جمعته فى هاتين

الغرفتين ، وطليت زجاج النوافذ بالجير ، حتى أرد عنه أشعة الشمس •• يورى •• لاتترك يدى لئلا تضل الطريق .. لقد وصلنا ، هيا الى اليمين ، الآن خرجنا من المجاهل ، هذا بابى ، وستنقشع الظلمة بعد قليل ، ولكن حاذر •• أمامك درجة

وفيما هو يتبعها الى داخل الغرفة ، أطل من النـــافذة على الفناء فأدهشته المناظر التى وقع عليها نظره ، ســــاحات واسعة خالية قريبة من النهر ، وسطوح منازل قليلة الارتفاع، وكانت الاغنام والماعز ترعى ، وجلودها ذوات الصوف الطويل الذى يتدلى حتى يلامس الارض ، كما لمح لافتة كتب عليها : « مورو وفتشنكن • آلات زراعية »

وكان الطبيب قد مر بها غداة وصوله من موسكو ، فتذكرها لتوه ، وشرع يصفها للارا . وغاب عن ذهنه ما أشيع من أن سترلينكوف كان زوجها ، فراح يحدثها عن لقائه بالقوميسير فى القطار ، وقد أثر فيها ذلك تأثيرا عميقا ، وسألته بلهفة :

ــ هل التقيت حقا بسترلينكوف؟ لن أخبرك الآن ، ولـكنه أمر غريب ، لعله قدر لك أن تلتقى به ، ســأخبرك بدقائق الموضوع يوما ما ، وستأخذك الدهشة، واذا صدق ظنى ، فقد تترك فى نفسك أثرا طيبا

ــ نعم ، بصفة عامة ، وكان المفروض أن يثير تقززى • لقد مررنا بالمنطقة التى حل فيها الموت والدمار ، وكنت أتوقع أن التقى بجندى فظ ، أو ثورى عديم الرحمة ، ولكنه لم يكن هذا ولا ذاك . انه جميل حقا أن يكون الشخص خلاف ما يتخيله الانسان ، وهذا دليل على انه ليس من طراز معين معروف به ، وعلى العموم لقد سما فوق ذاته ، وان فيــه شيئا من العظمة والخلود

ــ يقولون انه ليس عضواً فى الحزب

ــ أعتقد ان هذا صحيح • ماذا يحبب الناس فيه ؟ انهرجل

لاشك هالك ، وأعتقد أن نهايته مؤلمة ، وانه سيدفع جزاء ما اقترف من آثام • ان الثوار المتمردين ، لايثيرون الرعب لانهم مجرمون سليقة وطبعـــا ، بل لانهم مسيرون كالآلات التى لا ضابط لها او التى أفلت زمامها . ان سترلينكوف أحمـق كغيره ، ولكن حمقهليس وليد نظريات ، بل مما عاناه من آلام• ان سره مغلق ، ولكنى واثق بأن لديه سرا • أما انحيازه نحو البلشفيك ، وتحالفه معهم ، فأمران عرضيان ، وهم يتحملونه طالما هم بحاجة اليه ، فطريقهم الآن واحدة ، وعندما يكونون فى غير حاجة اليـه ، سيلفظونه غير مبالين او آسفين ، بل سيسحقونه كما فعلوا مع غيره من الخبراء العسكريين

ـ هل تعتقد ذلك ؟

ـ اننى واثق كل الثقة

ـ أليس فى استطاعته أن يهرب ، فينجو بنفسه ؟

ـ أين المفر والى أين يذهب ؟ لقد كان فى مقدوره أن يهرب فى سالف الايام ، أيام نفوذ القياصرة ، ولكن هيهات له ذلك فى ايامنا هذه يا لارا !

ـ اننى آسفة ، لقد جعلتنى ارثى له ، يورى ... اراك قد تغيرت ، فقد كنت فيما مضى تتحدث عن الثورة بلهجة اكثر هدوءا واتزانا ... لم تكن تقسو فى حديثك عنها

ـ هذا هو لب الامر وجوهره ... يا لارا ... هناك حدود ومعايير لكل أمر . لقد كان من الواجب أن يتم شيء محدد فى هذا الوقت . ولكننا نرى أن الذين أوحوا بالثورة ليسوا على قدر كاف من الحنكة والدراية ، وأن جل همهم كان تغيير الحال وأثارة القلاقل . وأن يكون ذلك على نطاق واسع . أما فترات الانتقال ، والتكوين من جديد ، فهى عندهم غاية فى حد ذاتها ، وهم ليسوا مدربين على شيء ولا يعرفون شيئا ، هل تعلمين لماذا لا تنتهى هذه الاستعدادات ؟ انه أمر لا جدوى منه ولا

طائل من ورائه ، لانهم مفتقرون الى المقدرة الحقة ، وهم يشكون العجز والقصور . لقد خلق الانسان ليحيا لا ليهيىء أسباب الحياة . ان الحياة فى حد ذاتها ، هبة الحياة ، أمر من الضخامة بحيث يأخذ بمجامع القلب ! فلماذا نستبدل بها هذه الهزازل وهذه المغامرات ؟! أظن فى ذلك الكفاية الآن ، ودعينى أوجه اليك بعض الاسئلة :

لقد وصلنا صبيحة يوم الاضطرابات ، فهـل أصابك شيء منها ؟

ـ وهل فى ذلك شك ؟! حاصرتنا النيران من جميع الجوانب ، والذى يبعث على الدهشة حقا ـ رغم ذلك ـ أن المنزل لم يحترق ، لقد تزلزلت أركانه وكاد يسقط ، وتوجد بالفنـاء قنبلة ، حتى الآن ، لم تنفجر . لقد حلت بنا الكوارث ، من سلب ، ونهب ، وتشريد ، وناهيك بطلقات البنادق ، وقصف المدافع ، وهذه حال لابد منها عندما يتغير نظام الحكم فى أى بلد من البلاد . ولقد تعودنا تلك الحال ، فلم تكن هذه هى المرة الاولى . أن الحياة فى كنف الروس البيض لم تكن أفضل حالا ، فقد كان القتل ، والسلب ، واغتصاب المال ، هى وسائل تسوية الخلافات . يالها من فوضى ، ولكن الم يبلغك ذلك الخبر المثير ؟! اتدرى ما آل اليه أمر جاليولين ؟! لقد انضم الى التشيكيين ، وأصبح حاكما عاما أو ما يشبه ذلك !

ـ وصل ذلك الى علمى ، هل التقيت به ؟

ـ أكثر من مرة ، وقد عاوننى معاونة صادقة على انقاذ نفوس عديدة ، لقـد سلك سلوكا نبيلا ، ولم يتشبه بهؤلاء الافاكين ـ ضباط القوزاق ، رجال البوليس ، على أنه ممـا يؤسف له أن هؤلاء هم الذين يسيرون الامور . اننى أقدر لجاليولين أفضاله ، ليحفظه الله ، أننا صديقان قديمان ، كما تعلم ، فكثيرا ما كنت اتردد على المنزل الذى نشأ فيه وانا طفلة ، وكان أغلب سكانه من العمال . لقـد عانيت الفقر فى

صغرى ، ولذلك فأن نظرتى الى الثورة تختلف عن نظرتك اليها ، انني ألم بالكثير من دقائقها . ولكن الذى أغلق على فهمه، أن يصبح جاليولين ــ ابن البواب ــ ضـابطا كبيرا ، هـــذا ما يدهشني ولا أكاد أصدقه . ليس بين أفراد أسرتي جنود ، لذلك فان معلوماتي عن الرتب العسكرية محدودة ، لان حقل نشاطي ينحصر فى التدريس . . . وعلى العموم ، بفضله أمكننا أن نساعد كثيرا من الناس . لقد كنت أسعى لمقابلته . وقد تحدثنا عنك . ولا أخفى عنك انه كان لي أصدقاء فى كل عصر ، ولكن من المؤسف أنني منيت بخيبة أمل فيهم جميعا . ألا يكون الانسان مغمورا اذا قصر نشاطه على دور واحد فى الحياة ، فيكون مقامه محدودا فى المجتمع ! لماذا تدين بمبدأ واحد فى حياتك ؟

وفى هذه اللحظة اقتحمت الغرفة فتاة لم تتجاوز الثامنة من عمرها ، وقد عقدت شعرها اللامع فى جدائل هى غاية فى الروعة ، ينبثق من عينيها الصغيرتين بريق ماكر . انها ابنة لارا ، سمعت صوتا غريبا على اذنيها ، فعرفت أن لدى امها زائرا . وتظاهرت بالدهشة ، ثم حيت الضيف ورشقته بنظرة حادة جريئة تصدر عن طفلة سبق تفكيرها عمرها

فقالت لارا :

ــ انهـــا ابنتى ، كاتنكا . أرجو أن تســـود بينكما المودة والصداقة !

ــ رأيت صورتها معك ونحن فى ميليوزييف ، لقد كبرت وتغيرت !

وقالت لارا تحدث ابنتها :

ــ ظننت انك خارج المنزل . لم أسمعك وأنت تدخلين

فأجابت الفتاة :

ــ تناولت المفتاح من فرجة الجدار ، وكان فيها فأر ضخم ، قفز امامى فبعث الرعب فى نفسى

ـ اذهبى الآن ، سيتناول العم الطعام معنا ، سأناديك حين تحضر الكاشا (١)

فقال يورى :

ـ شكرا ، انني لن أبقى طويلا ، اننا نتناول طعامنا فى الساعة السادسة ، بسبب ترددى على المدينة ، وأجتهد الا أتأخر فى عودتى . وهى تستغرق منى أكثر من ثلاث ساعات . وهذا ما دفعنى الى أن أبكر فى زيارتك ، سأضطر الى مغادرتكم بعد فترة يسيرة

ـ انني أطمع فى نصف ساعة أخرى !

ـ يسرنى ذلك ، بل يسعدنى

وقالت لارا للطبيب :

ـ لقد حدثتنى فى صراحة ، دون لف أو دوران ، لذلك سأكون صريحة انا الاخـرى معك : أن سترلينكوف الذى رأيته ، هـــو فى الواقع زوجى ، باشا ، بافيل بافلوفيتش انتيبوف ، الذى ذهبت الى الجبهة للبحث عنه ، اذ انني لم أصدق ما أخبرت به عن موته

ـ ليس ذلك بالامر الغريب على ، وقد هيأت نفسى له ، وأنا بدورى لم أصدق شائعة موته ، ولهذا تجاهلتها ، وحدثتك بصراحة ، لقد رأيته بعينى رأسى ، كيف يمكن أن نربط بينك وبينه ؟ !

ـ مهما يكن الامر ، فهوالواقع ، سترلينكوف هو انتيبوف ، زوجى ، وكاتنكا تعرف ذلك ، وهى مزهوة بأبيها . واسمه الجديد اسم مستعار ، انتحله لنفسه ، أسوة بغيره من الثوار

ثم استطردت تقول :

ـ لقد قذف يوريانتين بالقنابل ، واحتلها ، وهو يعلم اننا

---

(١) أى عندما يخرج الاكل من الفرن

بها ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء حتى مجرد معرفة ما اذا كنا احياء أو أمواتا ، وذلك طبعا لكيلا يكشف أمر نفسه ، وهو بذلك يؤدي واجبه ولاشك. واذا فرضنا انه سألنى، لما توانيت فى أن أشير عليه أن يفعل مافعل . قد تتهمه بأنه كان يهتم بنا خفية ، لوجودي سالمة ، واقامتى فى منزل لا بأس به . ولكنى لا أتصور كيف تمكن من قهر أعصابه فلم يفكر مرة فى الحضور لرؤيتى .
ان سترلينكوف فى سيبيريا الآن ، هل جال بخاطرك ماذا يفعل ؟ انه على رأس قيادة أحد مواقعنا الامامية ، يحارب جاليولين !
صديق طفولته ، ورفيقه فى السلاح ضد الالمان ، وجاليولين يعرف شخصيته الحقيقية ، كما يعرف أننى زوجته ، ولكنه كان لبقا فى تصرفه ، وهو ما أقدره له كل التقدير ، اذ أنه لم يشر الى ذلك ولو تلميحا ، مع أن الرعب يتملكه حتى لمجرد ذكر اسم سترلينكوف

ـ انه حقا فى سيبيريا الآن ، ولكنه مكث هنا وقتا طويلا ، فى تلك العربة التى رأيته فيها ، وكنت أتمنى أن ألتقى به ، ولو عرضا ، لقد كان يتوجه الى مقر القيادة ، وكان مدخله فى الجناح الذى كنت اقابل فيه جاليولين ، اذ كنت أكثر من التردد على ذلك المكان لاتوسط فى مساعدة أحد ، أو للحيلولة دون وقوع كارثة . ومن أمثلة ذلك ، ماكان يحدث فى الاكاديمية الحربية ، مما كان يثير السخط ، ان المدرب الذى لا يحظى برضاء تلاميذه ، يقتل رميا بالرصاص بواسطة كمين ، بحجة أنه من مؤيدى البلشفيك

ذكرت أننى كنت أذهب الى ذلك المكان على أمل أن أتمكن من لقاء باشا عند دخوله أو خروجه . وقد اتخذ القائد العام مكتبه فى ذلك الجانب من المبنى ، فى العهد القيصرى ، والآن ، وقد تبدل الحال ، فانك تجد على الباب لافتة « شكاوى » . هل وقع عليها نظرك ؟ انه مكان يبهر الابصار بجماله وروعته ،

فالفناء مرصوف بالخشب ، وتواجه المبنى حديقة كبيرة تزينها أشجار اللوز ، وتعطرها أشجار الياسمين . ويصطف أصحاب الشكاوى أمام الباب ، وكنت أندس وسطهم ، وانتظر ، وألوذ بالصبر ، فلا أدفع الباب ، ولا اظهر شخصيتى ، ولا يعرف أحد أننى زوجته ، لان كلينا يحمل اسما مختلفا . ولا يتطرق الى ذهنك أن مناشدة عاطفتهم تفيد . وهل وصل الى علمك أن أباه بافيل أنتيبوف ، الذى نفى نفيا سياسيا فيما مضى ، يوجد الآن فى مكان قريب ، فى قرية تقع على الطريق العام . كما أن صديقه تيفرزين هنا أيضا ، وكلاهما عضو فى المحكمة الثورية . ثم هل يخطر ببالك أن باشا لم يفكر فى الذهاب لرؤية أبيه ، ويعتبر أبوه أن هذا مسلك طبيعى من ابنه . وأن لابنه مطلق الحرية فى البقاء متخفيا ، وأن كل ما يترتب على ذلك أنه لا يستطيع أن يراه ! ماذا تقول فى هؤلاء الناس ، هل قدت قلوبهم من صخر ، أم أنهم ليسوا بشرا ، رغم ما يتشدقون به من نظم ومبادىء ! وحتى لو أظهرت للملأ أننى زوجته ، فهل تظن أن ذلك يعود على بفائدة ؟ ماذا تهم الزوجات أمثال هؤلاء فى هذه الظروف ؟ العمال ، التعمير ، هذا ما يعنيهم ويهمهم ، أما الزوجة ، فلا شأن لها ولا قيمة فى هذا المجال ، أنها فى نظرهم نملة أو ذبابة ! وكان مساعده يخرج من الغرفة ليسأل الناس عن حاجتهم ، ثم يسمح لبعضهم بالدخول ، على أننى لم أخبره قط باسمى ، وكنت أكتفى بأن أقول له ان حاجتى شخصية . وكنت أعتقد أننى أضيع وقتى ، وانفقه سدى ، فكان المساعد يرشقنى بنظرة ارتياب ثم يهز كتفيه . ولا يجولن بخاطرك انه لا يهتم بنا ، أو أنه نسينا ، انك تخطىء لو ظننت ذلك ، أننى أفهمه جيدا ، وأعرف مرماه ، أنه يسعى لاسعادنا ، وهو لا يرغب فى العودة الينا خالى الوفاض ، بل يريد أن يعود رافع الرأس ظافرا ، تجلله أكاليل المجد والكرامة والعزةوالوفاء، فيضع أكاليله بين أيدينا ، أنه يريد ان يخلدنا

وفى هذه اللحظة دخلت كاتنكا ، فتعلقت بها لارا وأخذت تحتضنها وتداعبها

اجتاز يورى فى عودته نفس الطريق التى يجتازها كل يوم فى عودته من المكتبة ، وقد حفظ معالمها الى حد أنه كان لا يلقى انتباها الى ماحوله . وهو بعد قليل من السير يصل الى مفترق طريقين فى الغابة ، احداهما طريق فاريكينو ، والاخرى تؤدى الى قرية اسمها فاسيليا ، قائمة على ضفاف نهر ساكما . وكعادته بلغ المفترق قبيل مغيب الشمس

وكان طوال تردده على المكتبة يعود الى يوريانتين يوميا وكأنه طالب يعود من المدرسة الى البيت كل يوم . وذات مرة تخلف وقضى ليلته عند لاريسا ـ وكان يدلل لارا بذلك الاسم ـ واخترع أكذوبة بأن اخبر عائلته انه اضطر الى البقاء فى يوريانتين لبعض أعمال هامة ، وانه قضى الليلة فى فندق سامديفياتوف

وقطع ورى شوطا بعيدا فى علاقته بلاريسا ، وصار يخون زوجته تونيا ، وتوثقت علاقته الآثمة الى درجة فظيعة

كان حبه لتونيا قد ملك عليه شغاف قلبه ، وكان اسعادها رمز حياته وما كرس له نفسه ، كما كان غيورا عليها وعلى كرامتهـــا أكثر من أى شخص آخر ، حتى والدها ، بل حتى نفسها ، وكان لا يحجم عن افتراس من تحدثه نفسه بجرح كبريائها . ومن عجب أن يكون الآن هو المعتدى

وعندما يعود الى بيته ، يؤنبه ضميره ، ويحس بأثمه . وكان يضاعف من ألمه أن افراد العائلة ظلوا يشملونه بعطفهم ومحبتهم ، لجهلهم بحقيقة أمره . فتغيرت حاله حتى كان يصمت وقت الحديث عندما تجثم صورة جرمه فى مخيلته

فاذا حضرته هذه الصورة وهو يأكل ، وقفت اللقمـــة فى حلقه ، فكان يلقى بالملعقة جانبا ، ويزيح الصحاف ، وتخنقه العبرات ، واذ تلاحظ تونيا مابه ، تسأله فى لهفة :

ـ يورى ... ماذا بك ؟ هل تلقيت أنباء مؤلمة وانت فى

المدينة ؟ أى حدث جلل وقع ؟ خبرنى ـ مهما يكن الامر مزعجا ـ لعلى أستطيع أن أزيح كربك !

ترى هل خان تونيا لان الاخرى أجمل منها ؟! كلا . فهو لم يفكر يوما فى المقارنة . كما لم يكن لديه وقت للتفكير فيما يدعونه مقتضيات الحب ، ويعتبر أن مجرد التفكير فى ذلك يحط من كرامته . وهو لم يأت أمرا ادا فى حياته ، ولم ير فى نفسه شخصا فوق مستوى الغير . انه الآن يتداعى من وطأة الشعور بالاثم

وللغموض الذى يكتنفه ، كان لاينفك يسأل نفسه :

ـ ترى ماذا بعد ذلك ؟!

وفى يأس وقنوط كان يتمنى حدوث معجزة تحل مشكلته واذ كان فى طريقه الى البيت ، عقد العزم على امر ، أن يضع حدا لتلك الآلام النفسية المسمومة ، أن يقطع الشك باليقين ، فيعترف لتونيا ، ويرتمى تحت قدميها ، ملتمسا غفرانهـا ، وبذلك يزيح عن كاهله ذلك العبء المضنى ، والكابوس الجاثم فوق نفسه ، ويقطع العهد ألا يرى لارا بعد ذلك

ولكن شعورا خالجه بأنه لم يكشف للارا بطريقة مفهومة انه اعتزم أن يقطع صلته بها نهائيا ، ان كل ماذكره تلميحا فى ذلك الصباح ، أن فى نيته مصارحة تونيا بحقيقة الامر ، وتبعا لذلك فالاجدر بهما أن يضعا حدا لهذه الحالة ، ويمتنعا عن اللقاء

وأحست لارا تعاسته ، فآثرت الا تضاعف آلامه ، باثارة الشحناء ، بل ملكت زمام أعصابها ، وأخذت تنصت لما يقول ، فى هدوء ، وكأنه يروى قصة لا تمت اليها بصلة . وأخذت الدموع تنهمر على خديها ، دون أن تشعر ، وتكتفى بأن تقول له :

ـ سأقهر عواطفى ، فلا تحمل همى ، وافعل ما يروق لك

كانت تقول ذلك من قلبها ، دون رياء ، ولانها لم تشعر بأنها تبكى ، فانها لم تفكر فى تجفيف دموعها

وتناوبته الهواجس ، لعل لارا أساءت به الظن ، ولعله غادرها وقد ترك فى نفسها صورة خاطئة تختلف عن حقيقته ، ففكر فى أن يعود اليها ، ليوضح لها الامر ، وليودعها وداعا أشد حرارة ورقة ، وداعا اخيرا . ولكنه بذل جهداً فى تمالك أعصـــابه ، واستمر فى طريق عودته الى بيته

ولف الغابة صقيع وظلام ، بعد غروب الشمس ، وفاحت رائحة الليل الرطبة ، واخذت جماعات الهوام تخرج أصواتها الرتيبة التى تشبه أنغام الجنائز ، وحط بعضها على وجهه ، وقد تصبب عرقا ، فراح يطردها بيديه ، وأتته من بعيد أنغام قبرة تغنى ، وكأن أنغامها تقول :

ــ افق الى نفسك

بل خيل اليه انه يسمع فى غنائها ذلك الدعاء العظيم :

ــ استيقظى يانفسى ، لماذا أنت راقدة !

وفجأة ، هتف به خاطر عجيب ، لماذا يتعجل ؟ وما دام قد وطن النفس وعقد العزم ، فلن يحنث فى وعده وعهده ، لن يعدل عن الاعتراف ، ولكن هل لابد منه فى هذا اليوم بالذات ؟! انه لم يبح لتونيا بشىء حتى الآن ، تصريحا أو تلميحا ، ولا ضير ان أجل ذلك الى مابعد زيارة تالية للمدينة ، حتى يتمكن من أن ينهى كل شىء مع لارا ، بالمحبة ، والحرارة التى تخفف عنهما آلامهما ، انها فكرة رائعة ، ومن عجب أنها لم تخطر على باله من قبل

وما أن وصل به التفكير الى ذلك ، حتى شاع السرور فى نفسه ، ورقص قلبه طربا ، وعاد يفكر فيها

واخذت مناظر الشوارع والمنازل التى يمر بها وهو فى طريقه الى بيتها تتراءى أمام عينيه ، فى سرعة غريبة ، انه يحن الى البيوت الصغيرة على الشارع المؤدى اليها ، ويود لو يستطيع أن يلثمها ! وينزلها ، تحت قبة السماء الزرقاء ! هناك سيجتلى

ذلك الجمال الفتاك ، هبة الله لمن يشاء من عباده ، وكأنها نجمة صافية البياض

واذ وصل الى ذلك فى تفكيره ، ألقى بالمقود جانبا ، وانحنى على السرج الى الامام ، وطوق بيديه رقبة الجواد ، ودس رأسه فى ناحيته ، وظن الجواد أن هذا التصرف من جانب يورى ان هو الا اعراب عاطفى بالتماس السرعة ، فهب يسابق الريح

وسمع يورى صوتا يناديه ، بينما كان قلبه يخفق بهجة لما عقد عليه العزم ، فخيل اليه أن الصوت من نسج الخيال

وصعق للمفاجأة التى جابهته ، فقد انطلق عيار نارى على قيد خطوات منه ، فرفع رأسه مستطلعا ، وأمسك بالمقود وشد اللجام ، واذهله أن يرى الجواد يترنح ، وهو فى أقصى سرعته ، ثم يتراجع وينكفىء على الارض

حـدث هـذا عند مفترق الطرق ، حيث وقف ثلاثة من الفرسان ، اعترضوا سبيله ، أحدهم فتى على رأسه قبعة ، ويرتدى سترة حولها حزام للخرطوش ، والثانى فارس قبعته من الفراء ويرتدى معطف ضابط ، أما الثالث فرجل ضخم الجسم ، يرتدى لباسا غريبا . وقال له الفارس :

ـ مكانك أيها الرفيق الطبيب ، لا تتحرك ، والا أطلقنا النار عليك . . . لقد قتل طبيب فرقتنا ، ونحن نريد أن تحل محله . ترجل عن الجواد ، واعهد بمقوده الى هذا الفتى . لست فى حاجة لان انبهك بأننا سنقتلك اذا حاولت الفرار

ـ هـل أنت الرفيق ليبريوس بن ميكوليتسين ، قائد الانصار ؟

ـ كلا . اننى ضابط الاتصال الاول لديه

الفصل العاشر

اخوان الغابة

قضى يورى سنتين تقريبا فى ذلك الاسر ، ولم يكن المكان الذى فيه مسورا ، كما لم يقم على حراسته أو يراقبه أحد • وكانت تحركات قوات الانصار متواصلة ، كما لم تكن هـذه التحركات بمنأى عن القرى التى تمر بها ، بل كان الانصار يختلطون بسكان تلك القرى

وخيل الى يورى أنه ليس أسيرا ، وأنه حر ، ولكن لم يكن فى استطاعته ان يمارس حريته كما يشاء، فهى بكلمة أوضح، نوع من الاكراه • وبالرغم من أنه لم يكن مراقبا ، فقد كان عليه أن يخضع للامر الواقع

وحاول الهرب ثلاث مرات ، منيت جميعها بالفشل ،وانتهت بالقبض عليه ، ومع ذلك لم توقع عليه أية عقوبة • لذلك شعر بأن لاجدوى من هذه المحاولات ، فعدل عنها

وصارت له حظـوة لدى رئيس الانصـار ، ليبريوس ميكوليتسين ، فقد سره أن يكون له رفيق كيورى ، فسمح له أن ينام فى خيمته • ومن عجب أن يورى تضايق من هـذه الحظـوة

فى هذه الآونة ، اتجهت تحركات الانصار نحو الشرق ، وكانوا يهدفون الى طرد الكولتشاك من سيبيريا ، وكانت هذه التحركات تتحول الى تقهقر ، عندما كان البيض يهاجمون من الخلف ، ويهددون بتطويق الحمر . ولذلك انقضى وقت طويل ، دون أن يفقه يورى مغزى هذه التحركات

كان سيرهم بمحاذاة الطريق العام ، وأخذ البيض والحمر يتقاسمون القرى ، لذلك كان من العسير أن تعرف لمن كان ولاء تلك القرى

وذهب يورى ، فيأحد الايام ، وكانوا فى مدينـــة تدعى باذينك الى أحد الصيادلة ، ليتسلم أدوية طبيــة انجليزية ، تركتها وحدة من الضباط البيض ، غنيمة للانصار

وكان ذهابه عصرا ، وكان اليـوم ممطرا مملا ، يبعث على السأم ، فبعث الملل والكآبة فى نفس يورى

وتحول الطريق ، وقد اتلفه مرور الجيوش الى ممر يغمره الوحل ، فكان السير فيه شاقا

والتقى يورى ، أثناء ذلك ببيلاكيا تيا كَونوفا ، التى كان قد التقى بها فى القطار منذ سنوات ثلاث • وقد تذكرته هي أولا ، وقد ارتسم على وجهها أنها على استعداد لان تحييه ، اذا تذكرها ، وأن تلوذ بالصمت ، اذا لم يتعرف عليها

وبعد فترة طويلة ، تذكرها ، وتماثلت فى ذهنه صــــورة أسرته وعربة الشحن المزدحمة والمجندين للعمل وقد احاط بهم الحراس ، والمرأة التى كان شعرها يتأرجح على كتفيها • وبالجملة، تزاحمت فيذهنه تفاصيل مناظر الرحلة، وارتسمت فى ذاكرته وجــوه من أحبهـــم ، ويتلهف اليوم لرؤيتهم ، تلهفا بعيد المنال

وأومأ الى بيلاكيا أنه سيعبر الطريق اليها ، واجتازه فوق بعض الحجارة ، وعندما صار أمامها ، حياها . ثم أخــذا يتحدثان ، وقد أنبأته بأمور كثيرة حدثت فى الســـنتين الاخيرتين ، كما ذكرته بفاسيا ، الفتى الصبوح ، وقد ساموه من العذاب ألوانا حين سخروه للعمل ظلما وعــــدوانا ، ثم وصفت له بقاءها مع أمه فى القرية ، حيث كانت سعيدة ،لولا أن اعتبرها أهل القرية دخيـــلة عليهم ، واتهموها زورا بأن

بينها وبين فاسيا علاقة غرامية ، فاضطرت أن تغادر القرية ، اتقاء تجريحهم • وأقامت مع شقيقتها المتزوجة ، أولجاجاليولينا في مدينة هوليكروس • وبعد فترة من الزمن أضـــطرت أن تذهب الى باذينك ، حين طرقت سمعها اشاعة وجودبيرتوليبف قريبا منها ، واتضح بعد ذلك أن الاشاعة كاذبة ، ولكنهـــا بقيت هناك ، لانها وفقت الى عمل

ومما ألقت به من الانباء ، أن الكوارث حلت باصدقائها ، فقد هوجمت فيريتينكى انتقاما لانها لم تقدم المؤن ، وأن منزل فاسيا أحرق، وماتأحد أفراد عائلته، كما حدث فىهوليكروس، أن جاليولين ، صهر بيلاكيا ، قد سجن أو قتل ، ولم يعرف أى الخبرين هو الاصح ، وان ابن اختهاقد اختفى •وقد قاست أختها الجوع فترة من الزمن ، وأنها تعمل الآن خادمة عندأسرة تمت اليهم بصلة النسب

وكانت بيلاكيا تعمل عند الصـــيدلى ، الذى حضر يورى ليتسلم منه الادوية • وكان الهلاك مصير القائمين على الصيدلية ومن يعملون بها ، وبيلاكيا من ضمنهم ، بسبب القيام بهذا الإجراء • ولم يكن فى امكان يورى أن يتخلف عما أمر به ، وقد تمت عملية استلام الادوية فى حضور بيلاكيا

وقفت عربة يورى وراء المخزن ، ثم أخذوا يضعون فيهـــا مختلف الادوية ، منها ماهو فى أكياس ، وماهو فى صناديق، وأكداسا أخرى من القنينات وقد لفت بعناية

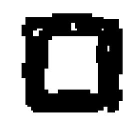
وتطلع حصان الصيدلى ، كبقية الحاضرين ، الى عمليةالنقل، وقد لفتهم غمامة من الحزن • وأخذ النهار الممطر يقترب من نهايته ، فصفت السماء قليلا ، وانسابت بعض أشعةالشمس من خلال الغيوم ، فأشاعت ضوءاً يميل الى الاحمـــرار ، وكان الماء الذى تخلف عن المطر ، يترقرق فى الطريق ، وقد اصطبغ بلون قرمزى

والفرق العسكرية تسير على مدى الطريق ، راكبة أو مترجلة ، حول البرك • وكان من بين الادوية قنينة ملأى بالكوكايين ، الذى كان يتعاطاه رئيس الانصار

كان الشتاء موسم انتشار التيفوس ، وفى الصيف تتفشى الديزونطاريا ، كما أخذ عدد الجرحى فى الازدياد ، بسبب استئناف العمليات الحربية ، لذلك وجد يورى نفسه غارقا فى خضم من الاعمال

وانضم الى صفوف الانصار ـ رغم الانسحابات المتوالية ـ عدد كبير من المتمردين ، فى الاماكن التى مر بها الجيش ، وعدد آخر من الهاربين من الاعداء ، حتى أنه فى خلال العشرين شهرا التى أمضاها يورى أصبحت قوة الوحدة عشرة أضعاف ما كانت عليه فى مبدأ الامر • ولذلك زها بها ليبريوس بن ميكوليتسين فى الاجتماع الذى عقد فى هوليكروس

وكان يعاون يورى بعض الجنود المدربين ، كما كان له مساعدان أسيران سابقان فى الحرب ، أحدهما يدعى كيريني وهو هنغارى شيوعى ، كان ضابطا فى الجيش النمساوى ، والثانى اسمه انجيلار ، وكان طبيبا محدود التدريب • وكان يورى يتحدث مع كيريني بالالمانية ، وأما انجيلار ، فكان يكلمه باللغة الروسية ، لانه كان ملما بها



من تقاليد الصليب الأحمر الدولى ، ان لم يكن من قوانينه أنه محظور على موظفى القسم الطبى ، الاشتراك فى العمليات الحربية • ولكن يورى خرق هذا التقليد ـ اضطرارا ـ فقد كان موجودا فى ساحة المعركة ، ذات يوم ، وقد بدأت الاشتباكات ، فوجد نفسه يشارك المحاربين مصيرهم

وكان فى المقدمة ، حين فاجأته نيران العدو ، فانبطح على الارض قريبا من عامل التليفون الذى يتبع وحدته • وكانت الغابة من خلفهم ، ويمتد أمامهم حقل غير محصن ، وقد أخذ

البيض يتوغلون فيه

وتمكن يورى من أن يميز وجـــوه هؤلاء البيض ، عندما اقتربوا، فوجد أنهم فتيان من الطبقة البورجوازية فى العاصمة، ومعهم رجال أكبر منهم سنا ، تطوعوا أخيرا ، وكانت غالبيتهم من شباب الجامعة ، والصفوف النهائية فى المدارس

وبالرغم من أنه لم يتعرف الى أحد منهم ، الا أن وجوههم بدت مألوفة لديه ، فكان بعضهم يذكره بزملائه فى الدراسة ، ورجح أن يكونوا اخوتهم الصغار ، وخيل اليه أن نظره وقع على بعضهم فى احدى المناسبات أو فى مكان ما ، منذ سنوات ، لقد جذبت وجوههم المعبرة انتباهه ، وتراءوا له أنهم من صلب جماعته

وملأهم القيام بهذا الواجب زهوا وشجاعة ، وكانوا يسيرون فى صفوف غير منتظمة ، وقد انتصبت قاماتهم ، كأنهم من ضباط الحرس ، وأخذوا يقتحمون الخطر ، ويأبون التوقف أو الاستلقاء على الارض ، رغم أنه كان بوسعهم أن يحتموا وراء المرتفعات وبين التعرجات ، لذلك كان رصاص الانصار يجندلهم

وفى وسط الحقل الفسيح ، انتصبت شجرة يابسة ، تحت تأثير حادث ما ، ربما أصابتها نار وفحمتها ، أو تكسرت أثناء احدى المعارك . وكلما اقترب منها شاب من هؤلاء المتطوعين، يحدق فيها ؛ ويفكر فى اتخاذها حصنا ، يتأكد فيه من هدفه، ولكنه لا يلبث أن يتابع سيره ، بعد أن يطرح هذه الرغبة جانبا

وبمرور الايام ، أصبحت ذخيرة الانصار محدودة ، فاضطروا الى اتباع نظم معينة بشأنها ، والخضوع لتعليمات مشددة ، منها عدم اطلاق النار جزافا ، واطلاقها من مسافات قريبة

وتمدد يورى على العشب ، ولم تكن بندقيته معه ، واخذ

يراقب سير المعركة ، بينما أخذت مشـاعره تميل الى هؤلاء الابطال اليافعين الذين يقتحمون الموت ويصارعونه ، وتمنى لهم النصر من أعمـاقه ، فقد أحس بغرزته أنهم من عائلات كعائلته ، روحا وثقافة ، وقيما خلقية

وهتف به خاطر هو أن يقوم ويلحق بهم ، ويضع نفسه بين أيديهم ، وهى وسـيلة ينجو بهـا من الاسر الذى هو فيه ، ولـكنه راجع نفسه ، وتبين ما فى ذلك من الخطـر ، فلربما قد تصـيبه رصاصة طائشة من أحد الجانبين ، من البيض لانهم لا يفهمون ما يقصد ، أو من الحمر عقابا له على خيانته .. خاصة وانه سـبق أن خبر هـذه المواقف فيما مضى ، وحاول الهرب أكثر من مرة دون جدوى . وبعد أن وصـل الى هذا الحد من التفكير وتقليب الامر ، استقر رأيه على أن يبقى متمددا على العشب ، مستسلما لمشـاعره الموزعة بين الجبهتين ، يراقب مصير المعركة

وكان من العسير أن يظل على هذا الوضع ، بينما المعركة حوله على أشدها ، فهو فى موقف لا تحتمله النفس الأبية . فليس الموضوع موضوع خضوع للفئة التى أسرته ، أو دفاع عن حيـاته ، انه خضـوع لمجرى الحوادث ، والقوانين التى تتحكم فيما يجرى أمام عينيه . فالبقاء جانبا ، فى هذه الحالة ، ضد ناموس القوانين . اذن فعليه أن يفعل ما يفعله الجميع ، معركة قائمة ، ونار تطلق عليه وعلى رفاقه ، فلابد له أن يرد

وفى هـذه اللحظة ، اختلج جنـدى ، وتململ فى حركة تشنجية ، ثم سكن بلا حراك ، فخف يورى اليه ، وتنـاول بندقيته وذخيرته ، ثم ابتدأ يطلق رصـاصها الواحـدة تلو الاخرى

وأخذته الشفقة ، فلم تطاوعه نفسه أن يصوب الرصاص الي صدور الشباب الذين مال اليهم بقلبه ومشـاعره ، اذن

ماذا يفعل ؟ هل يطلق الرصاص فى الهواء ؟ فى لاشىء ؟ انه أخذ يطلقه على الشجرة اليابسة ، كان يتبع طريقة خاصة ، فكان يضغط على الزناد بهدوء وبطء ، بعد أن يركز نظره ويحدد هدفه فتنطلق الرصاصة ، وتتفتت الاغصان وتتناثر

وأذهله أن رأى أنه أصاب أكثر من واحد من هؤلاء الشباب بينما سقط واحد منهم جثة هامدة ، اذ مروا فى تحركهم بينه وبين الهدف

وأخيرا اقتنعت قيادة الجيش الابيض ان لا فائدة من الهجوم فأصدرت الاوامر بالتقهقر والانسحاب

ومما يذكر ان عدد الانصار كان قليلا ، لأن الغالبية الكبرى منهم كانت تنتقل ، كما اشتبك جزء آخر فى معركة أشد ، فى مكان آخر ، ولكى يستروا ضعفهم ، كفوا عن مطاردة الجيش الابيض أثناء عملية انسحابه

وفى تلك الاثناء طلب يورى الى مساعده أنجيلار أن يهتم بالجرحى الذين أصابهم ، بينما راح هو يفحص عامل التليفون ، وهو يأمل أن يكون حيا . على أنه تبين ، بعد أن جس نبضه ، أنه فارق الحياة ، وعندئذ سحب تميمة كانت تتدلى بخيط فى عنق العامل ، وبفحصها ، وجد أنها آيات من المزامير ، من المزمور الحادى والتسعين على الخصوص

وابتعد يورى عن العامل ، وتوجه الى الجندى الابيض الذى أرداه دون قصد ، فحز فى نفسه أن يتطلع الى ذلك الوجه الصبوح ، وقد ارتسمت عليه علائم البراءة والالم والتسامح ، فتساءل يورى :

— لماذا جنيت على هذا الشاب وقتلته ؟!

وعلى الفور فك أزرار معطفه ، فوجد اسمه مطرزا : « سير بوزا رانتسيفيتش » ، وأيقن أن أمه هى التى طرزت ذلك الاسم ، وعندما فتح قميص الشاب ، طالعه صليب صغير

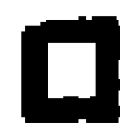
معلق فى سلسلة ذهبية دقيقة ، وميدالية ، وصندوق ذهبى صغير الحجم ، لم يكن محكم الغلق ، فسقطت منه قصاصة ، ففحصها يورى ، ولدهشته وجد انها تحمل آيات المزمور الحادى والتسعين نفسه ، مكتوبة بالنص الصحيح

وتململ سيربوزا ، ثم تأوه ، فقد كان لا يزال حيا . ففحصه يورى بعناية ، فتبين أنه فى حالة اغماء ، لا أكثر ، بسبب جرح بسيط ، فلعل تميمة امه ردت عنه الردى . ولكن أسقط فى يد الطبيب ، ماذا عساه يفعل لرجل مصاب باغماء ؟!

وبلغت الوحشية فى ذلك الوقت أقصى درجات القسوة ، فالأسرى ، وكانت النظم تقضى بالمحافظة على سلامتهم ، لا يصلون أحياء الى مواقع الأسر ، كما كان الجرحى من الاعداء ، يجهز عليهم فيقتلون فى ميدان المعركة

وبادر يورى الى نزع ثياب عامل التليفون ، وقد عاونه فى ذلك انجيلار ، وكان يورى قد أولاه ثقته ، ثم أبدلها بثياب الشاب

وعنى يورى وانجيلار بصحة سيربوزا ، حتى استعاد صحته ، وشفى تماما . فأطلق سراحه ، رغم ماذكره سيربوزا لهما من انه مصمم على العودة الى جيش الكولتشاك فى حربهم ضد هؤلاء الانصار الحمر



اتخذ الانصار أجمة تدعى أجمة الثعلب ، وهى سفح كثيف الاشجار ، يشقه ويجرى على امتداده نهر صاخب ، مقرا لهم فى فصل الخريف ، وكان رجال الجيش الابيض قد أمضوا فيه فترة الشتاء ، وعاونهم سكان القرى على حفر بعض الخنادق فيه . فلما رحلوا عنه فى الربيع ، تركوا تحصيناتهم على ما هى عليه ، فاستخدمها الانصار

واقام يورى وليبريوس فى خندق واحد ، وظل ليبريوس

يتحدث ويورى يصغى اليه ليلتين متتاليتين :

ـ ليتنى أعرف ماذا تفعل أسرتى انكريمة ـ وعلى الاخص أبى الفاضل ـ فى هذه اللحظة !

فندت عن يورى تنهدة ، وهو يحدث نفسه :

ـ ما أشد بشاعة هذا المتغطرس! انه صورة صادقة من أبيه، صدق من قال : « من شابه أباه فما ظلم »

ـ لعلك عرفته جيداً من أحاديثنا ، ولا أظن أنك كونت فكرة سيئة عنه ، ما رأيك فى ذلك يا عزيزى ؟

ـ ان لدينا اجتماعا للانتخاب غدا ياليبريوس ، كما اقترب موعد محاكمة الجنودالذين اقدموا على تقطير الفودكا ، ولابد من ان أعد الدليل أنا وكيرنى ، أكاد أهلك من فرط الاجهاد، فاننى لم أذق طعم النوم منذ ليلتين ، فهل يمكن أن نرجىء هذا الحديث ؟

ـ لا مانع ، ولكن ما رأيك فى ذلك الشيخ .. أبى ؟

ـ لماذا تتحدث عن والدك بهذه اللهجة ؟! ان أباك لا يزال فى عنفوان الشباب ، على أننى ـ وقد سبق أن ذكرت لك ذلك ـ ليس لدى الكثير من المعلومات عن الاشتراكية ، كما أننى لا أرى فارقا بين الاشتراكيين والبلشفيك . ان أباك أحد دعائم الفوضى الحالية فى الروسيا ، انه صاروخ ثورى ، وكلاكما ـ أنت وهو ـ مرجل للغليان فى الاضطرابات الحالية

ـ لا أفهم ماذا تقصد ، هل هو مديح أم تجريح ؟!

ـ دعنا بالله نرجىء هذا الحديث الى وقت آخر ، عندى لك ملاحظة ونصيحة ، أراك تدمن تعاطى الكوكايين ، وهو من المواد الطبية التى أنيط بى المحافظة عليها ، لاستعمالها فى الاغراض الطبية ، وفضلا عن ذلك فالكوكايين مادة سامة فتاكة ، تورد الانسان مورد الهلاك ، وبصفتى طبيب «الوحدة» فاننى مسئول عن صحتك وسلامتها

ـ ان احساسك الاجتماعى ضعيف ، وأنت طبيب ، ومثقف ، وأعتقد انك تهوى الكتابة ، فهل يمكن ان تفسر لى كيف يجتمع ذلك كله ؟

ـ لقد أغلق على ، ماذا افعل ؟ يخيل الى اننى متبلد الذهن ، حقا ان حالتى تدعو الى الرثاء

ـ لو انك فكرت قليلا ، فى اهتمام ، بما نعمله ، لما تحدثت بهذه اللهجة الساخرة ، ولما نظرت الى عملنا بعين الاحتقار

ـ ماذا تقول ، بالله ، يا ليبريوس ؟ اين الاحتقار الذى تتحدث عنه ؟ اننى أقدر ثقافتك من كل قلبى . فقد عرفت آراءك فى تثقيف الجندى ، من الحديث الذى أذعته ، وهى آراء صائبة . ان ما أوضحته عن علاقة الجندى بزميله ، وعن شعوره نحو الضعيف ، ونحو النساء ، وما ذكرته عن العفة والشرف ، انما هو قبس من آراء تولستوى ، التى اعرفها فى دراية تامة ، اننى أتطلع الى حياة افضل ، فكيف يمكن ان أسخر ؟!

ـ لا يفوتنى ان أذكر أن التهوض الاجتماعى ، منذ ثورة اكتوبر ، لا يثير اهتمامى أو حماستى ، كما أنه كلفنا هذا البحر الخضم من الدماء ، وفى رأيى ، لم يصدق من قال ان الغاية تبرر الوسيلة ، واهم من هذا وذاك ، اننى حين يقال أمامى عن اقامة صرح جديد للحياة ، فان اليأس يتملكنى ، وافقد السيطرة على مشاعرى .

ـ ان الذين يتشدقون بذلك ، لا يفهمون معنى الحياة ، انهم لم يشعروا بجوهرها ، وبروحها . انها فى نظرهم كتلة من المواد ، تحتاج الى تنسيق وتهذيب من جانبهم . لقد آن لك أن تعرف يا عزيزى ، ان الحياة ليست مادة ... انها مبدأ التطور والتجدد الذاتى ، وهى هى التى تجدد نفسها ،

وتبدعها وتطورها ، وانها فوق مستوى النظريات

ــ انني أعتقد أنك ماكنت تهبط الىهذا المستوى المعنوى، لو أنك، حضرت اجتماعاتنا ، واتصلت برفقائنا العظماء ، بل ما كانت تثقل عليك وطأة هذا الشعور القــاتم ، ولعل لك العذر ، فأنت لمتلمس شعاعا من الامل فيماتراه من كفاحنا. والاجدر بالمرء الا يستسلم للخوف ، انني أستطيع ، أيهـا الطبيب الشاب ، أن انهى الى سمعك ، أمورا أشد سوءا ، أمورا شـخصية لايجدر الافصـاح عنهـا الآن . على أنني سأضبط أعصابى ، وأقول أن هذه الاوضــاع وقتية ، وأن الكولتشاك هم الخاسرون ، فى نهاية المطاف ، وسوف يريك الغد صدق ما أقول ، فتذرع بالصبر والشجاعة

ولم يجب الطبيب ، بل أخذ يفكر ويحدث نفسه :

ــ ان هذا لما يبعث على الضحك حقا ، كيف يمكنلانسان أن يتحدث بمثل هذه البلاهة . لقد أضعت وقتى سدى ، وكم قلت له أكثر من مرة أننا غير متفقين فى أفكارنا ، ومع ذلك فهو يحاول أن يقنعنى ، ويتصور أن أوضاعه تخيفنى ، وأن أحلامه فى المستقبل وآماله أحرى أن تشجعنى . كيف أنزل الى هذا المستوى من التنكر لما أعتقده ! أنه يتصور أن مصير الكون يتوقف على انتصار الثورة

واكتفى يورى بأن هز كتفيه ، ولو أنه ظهرت على ملامحه أن بلاهة ليبريوس ضايقته ، حتى كاد يفقد أعصابه

وبعد فترة قال يورى :

ــ أشيع أن قوةمجهولة الجنسية ، غير روسية ، هاجمت فاريكينو وحملت عليهــا سـلبا ونهبا . ولم يحاول كامينود فورسكى ، أن ينفى ذلك الخبر ، وبلغ مسامعى أن أهلك ، وأهلى أفلتوا وتمكنوا من الهرب . ومن الاشاعات التىراجت أن جنودا ذوى عيون مستطيلة ، يرتدون معاطف مبطنة ،

ويضعون فوق رءوسهم قبعات من الفرو ، قد عبروا نهر الرينفا ، وقد أصبح ماؤه جليدا ، ثم راحوا يمطرون الناس بوابل رصاصهم ، فى هدوء وطمأنينة . وكما ظهروا فجأة ، اختفوا بطريقة غامضة ، هل وصل الى علمك شيء من هذا ؟ وما مدى صحة الاشاعة ؟

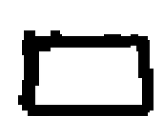
ــ اشاعة كاذبة ، لا نصيب لها من الصحة بل مطلق سخافة !

ــ اذا كنت كما ذكرت فى محاضراتك عن الاخلاق ، مهذبا لطيفا ، فأرجو أن تدعني لأنصرف ، اننى أريد أن أبحث عن أسرتى ، فاننى لا أعلم مقرها ، كما لا أعلم أن كان قد أصابها سوء أم لا تزال بخير . واذا كنت لا توافق ، فأرجو أن تلوذ بالصمت ، وتكف عن محادثتى ، لاننى أريد أن أخلو الى نفسى ، وويل لى اذا ظللت تتحدث ، أليس من حقى أن أنال قسطا من الراحة ؟!

استلقى يورى على فراشه ، ودفن وجهه فى الوسادة ، وقد أصم أذنيه عن الانصات الى ليبريوس ، الذى أخذ يمنيه بالانتصار الشامل على الجيش الابيض ، فى الربيع ، حيث تضع الحرب أوزارها فيسود السلام والازدهار ، وترتفع راية الحرية . « وهنالك ستكون حرا تذهب أين تشاء ، فتذرع بالصبر حتى تحين الساعة المرتقبة ، ومادمنا قد قطعنا ذلك الشوط البعيد ، فلا أقل من أن ننتظر بضعة أشهر أخرى ، ثم من ناحية أخرى ، لعل من المصلحة الا تذهب »

واشتاط يورى غيظا وغضبا ، انه كالحاكى يتكلم ، ويكرر ما يقول ، ولا يخجل من التكرار الممل . وانه ــ يورى ــ لا يستطيع أن يحتمل الانصات اليه ، الىذلك المنكود ، الذى لا يعترف بوجود الليل ، ولا يعترف أيضا انه جعل للراحة

والاستجمام ، وما لبث أن قال لنفسه :
ـ لشد ما امقته ، وسينتهى بى الامرالى الفتك به وقتله !
ثم أخذ يناجى زوجته وأسرته فى حنان عاطفى :
ـ حبيبتى تونيا ، أين أنت الآن يا عزيزتى ؟ وهل مازلت حية ترزقين ؟ رباه ... لقد كانت حاملا ، على وشك الوضع ، فكيف كانت الولادة ؟ وهل وضعت ذكرا أم أنثى ؟ كيف حالكم يا أحبائى جميعا ؟ يغمرنى ندم طاغ ، وأنت يا.. لارا .. اننى أرتعد اذ انطق باسمك ، وتتنزى نفسى حين يردده لسانى . وأخيرا يا الهى ، من هذا الوحش البغيض ، لن اتحمل ثرثرته ، وسأقتله .. سأقتله



كان يوما صفت سماؤه ، وأعتدل الطقس منذ أسبوع ، والاصوات المألوفة تتردد أصداؤها فى المعسكر ، وكأنها أمواج بعيدة . وكان يورى يسمع بين الحين والحين ، خطوات المتنزهين فى الغابة ، وقد اختلطت فى سمعه أصداء الاصوات المختلفة ، وطرقعة الفئوس ، ونباح الكلاب ، وصهيل الخيول ، وصياح الديكة . وأخذ الرجال وقد لفحتهم أشعة الشمس ، يسيرون فى جماعات ، وهم يبتسمون . بعضهم يعرف يورى فيحييه ، والبعض الآخر يمر من امامه مر الكرام دون اشارة أو تحية

وأعتصم الانصار بالأجمة ، لايريدون ان يرحلوا عنها ، الا اذا لحقت بهم عائلاتهم التى هربت ، وكان متوقعا وصولها بين لحظة واخرى . ولهذا أخذوا يستعدون للزحف نحو الشرق وانهمكوا فى اجراءات الرحيل ، من تهيئة الصناديق واعداد العربات وفحصها

وعقد فى وسط الغابة اجتماع خاص ، لتبليغ الجنود تعليمات هامة

ولفحت أشعة الشمس أوراق الاشجار الخضراء ، فأكسبتها

بريقا يأخذ بالأبصار

وأخذ كامينودفورسكي ، ضابط الاتصال الاول ، يحرق امام خيمته بعض الاوراق من مستندات الجنرال كابيل ، التي كانت قد وقعت بين يديه ، كما أخذ يحرق أيضا بعض أوراقه الحزبية ، وكان يفعل ذلك في حذر ، ولكن ألسنة اللهب كانت تدل على أن شيئا ما يحترق

وبدت الغابة وكأنها احدى الجنان ، تتلألأ في سمائها أشعة الشمس ، فتنشر فيها الضوء ، كما ازدهرت بالثمار الناضجة ، وخاصة ثمار شجر الحور الاحمر ، وأخرى بيضاء وصفراء وقرمزية اللون ، وقد أخذت أوراق الاشجار تتراقص طائرة في الهواء ، كما أخذت الفراشات تتنقل من مكان الى آخر وهي تحلق بأجنحتها الشفافة ذات الالوان الزاهية الجميلة

وأغرم يوري منذ نعومة أظفاره ، بمنظر الغابة وقت الغروب فكان يحس ان أشعة الشمس ، وهي تميل نحو الغروب ، تنفذ الى أعماقه وتستقر فيها ، وكأنها نسـمة الروح تتدفق بين ضلوعه

وكان يشعر في أعماقه ، بسر الحياة ، الذي ينشأ في كل طفل ، فتتكون منه شخصية . كان هذا الاحساس يطغى عليه في قوة ، فخيل اليه أن الغابة ، وأنوار الغسق ، والاشجار والثمار تكون في مجموعها وجهـا بديعا رائعا لفتاة صغيرة بريئة . وما أن ترتسم هذه الصور الرائعة في مخيلته حتى يغمض عينيه، ويسبح في التفكير محلقا بأفكاره ، في الكون ، وسر الحياة ، وأرض الله ، وتلك الاضواء التي أمامه : لارا !

ولكنه لايلبث أن يعود الىالواقع الملموس ، والحقيقة الماثلة، الثورة لا تزال قائمة ، وهو لا يزال أسيرا لدى الانصار ، وأخيرا وجد نفسهيتجه بحركة لاارادية صوب نار كامينودفورسكي، ويقول :

ـ الم تنته بعد من احراق أوراقك ؟

ـ هناك كثير منها ينتظر دوره

وتقدم يورى الى مجموعة من الاوراق ، نثرها بقدمه ، فوجد انها مستندات خاصة بمراكز الجيش الابيض . وود لو وجد فيها شيئا عن رانتسيفتش ، ولكنه لم يجد فيها شيئا يهمه ، فنثر غيرها من الاوراق ، فكانت كسابقتها ، مجموعة من محاضر اجتماعات الانصار

وتناول كامينودفورسكى ورقة ، قدمها الى يورى قائلا :

ـ هذه تعليمات السير لوحدتك الطبية . عائلات الانصار أوشكت أن تصل ، فينتهى التذمر القائم بين الجنود ، الليلة ، ونأمل ان نتحرك بين لحظة واخرى

وقال يورى فى دهشة ، بعد أن قرأ الورقة :

ـ لقد جعلتم لى عددا من العربات أقل مما سبق ، مع ان عدد الجرحى قد تضاعف ، ومعظمهم لا يستطيعون السير ، فكيف يتسنى لى أن انقلهم ؟ أضف الى ذلك : الادوية والاسرة والاجهزة الطبية !

ـ ذلك متروك لك ، تنظمه بطريقة ما ، ويجب أن نراعى الظروف ونخضع لمقتضيات الاحوال . ولكنى ألفت نظرك الى أمر هام ، هناك رفيق عركته الايام ، كرس نفسه ونذرها للقضية ، انه جندى رائع ، ممتاز ، ولكنه أصيب بمرض ما

ـ أمرض عقلى ما أصيب به ؟

ـ أرجح ذلك ، انه يذكر أنه يحس نوعا من الهوس ، والهذيان ، فهل ذلك ناجم من الارق ، أم الم بالرأس ؟ أم ماذا ؟

ـ لدى متسع من الوقت ، لذلك سأذهب لأفحصه ، متى يبدأ الاجتماع ؟

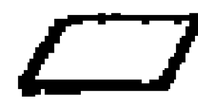
ـ اغلب الظن انه ابتدأ فعلا . ولكن لماذا تجشم نفسك مشقة الذهاب ؟ ، اننى لن أذهب ، وعليهم أن يتدبروا أمرهم بدوننا

ـ اذن سأذهب لأرى بامفيل ، اننى اشعر بالتعب ، ووطأة النعاس . أن ليبريوس يثرثر طول الليل ، ويرهقنى . اين أعثر على بامفيل ؟

ـ خلف المستودع المهجور ، فى الاجمة ، هل تعرف ذلك المكان ؟

ـ أظن ذلك

ـ تجد هناك بعض خيام الرؤساء : وقد خصصنا احداها لبامفيل ، لأنه ينتظر عائلته ، التى ستأتى مع عائلات الانصار . لقد حبوناه تقديرا لما قدمه للثورة من خدمات



أحس يورى بالتعب ، وهو فى طريقه الى بامفيل ، فهو لم يصب شيئا من الراحة أو النوم منذ بضع ليال . وكان يتمنى أن يذهب الى خندقه ، لينال قسطا من الراحة ، ولكنه تذكر ليبريوس ، وخشى أن يحضر هو الآخر فيضايقه بثرثرته

واتخذ طريقه فى ممر كسته اوراق صفراء ، تنعكس أشعة الشمس عليها فى الوان مختلفة فتتألق أمام عينيه فيدور رأسه ويشعر بالرغبة فى النوم ، وكأنه يستمع الى نغمات شاعرية

وخطر ليورى ان يصيب شيئا من الراحة ، فاستلقى فوق أوراق الاشجار المنتثرة ، وقد أسند ذراعه على جذع ، واتخذ من بعض العشب وسادة ، وما لبث أن راح فى سبات ، وقد غمرته الاضواء والظلال ، فاختفى عن الانظار ، وكأنه اكتسى لباسا سحريا

ورغم ذلك فقد دفعته تلك الرغبة الملحة للنوم ، أن يستيقظ فقد كان ضميره متيقظا ، غير مطمئن ، يسبح فى الفراغ ، وكانت الافكار والهواجس ، تزدحم فى رأسه وتتنازعه ، وكأنما أصابه مس ، فأقلقه ذلك وأثاره ، وقال محنقا :

ـ آه لهذا اللعين ليبريوس ، كأنما افتقر العالم الى الاسباب التى تدفع الى الجنون ، انه مغتبط باحتجازى ، يثقل على بصداقته ، ويرهقنى بثرثرته ، حتى كادت تختل أعصابى ، وكدت أفقد صوابى ، وسأقتله يوما ما

مرت أمام يورى فراشة ملونة ، كانت تبسط جناحيهـــا وتضمهما ، وتابعها يورى فى طيرانها بنظراته ، وهو يغالب النعاس ، وحطت الفراشة فوق ثمرة من ثمار الصنوبر ، ثم اختفت ، كما تلاشى هو

وعاد الى أفكاره ، التى كان يتعمق فيها ، والتى كان يغرق نفسه فى استجلاء كنهها خلال أعماله الطبية : الغاية والعزيمة ، باعتبارهما خلاصة تركيب جوهرى ، انسجام البيئة ، ألوان جسم الانســان ، الوقائية والتقليدية ، استمرار الـكائنات الطيبة ، أوجه التشابه بين الانتقاء الطبيعى ، وتكوين الوعى ونشأته ، دراسة طبيعة الذات والموضــوع وتوحيــدهما ، وتحديدهما . وسبحت به تأملاته ، وقاده تفكيره من داروين الى شلينج ، ومن الفراشة الى الرسم والفن ، وأخيرا وصل به مطاف التفكير الى الخلق ، والخليقة والابداع

وغلبه النوم ثانية ، ولكن سرعان ما قطع عليه نومه ، اذ أيقظه حديث ناعم فى خفوت متحفظ ، وكان ماسمعه من كلمات كافيا لان يتبين منه أن موضوع الحديث يحمل بين طيـــاته سرا ، او خطة خفية . وكان واضحا ان المتحدثين لم يشاهدوه، أو يخطر ببالهم انه قريب منهم . وفكر فى نفسه أن أية حركة تبدر منه قد يدفع حياته ثمنا لها ، فتظاهر بالموت ، وأخذ ينصت

عرف يورى أن المتآمرين يتفاوضون مع بعثـــة من مراكز الاعداء العليا ، وكان أعضاء البعثة يتكلمون فى همس لا يكاد يسمع

وفهم يورى أنهم يتكلمون ، عندما كانت تتخلل الهمس

فترة من الصمت

واخذ بطل المؤامرة يوضح الخطة ، ولـكن الرجال بدءوا يسيرون ، فلم يستطع يورى ان يسمعهم ، على أنه أمكنه أن يفهم ، وقد أخذ منه الرعب والكمد مأخذهما ، انهم يتآمرون على حياة ليبريوس ، وانهم يبغون تسليمه الى الجيش الأبيض أو أن يفتكوا بذلك اللعين . وغاب عن ذهنه انه هو أيضا ود لو يقتل ليبريوس . ولكنه الآن يفكر فى الوسيلة التى ينقـــذه بها . واستقر رأيه على العودة الى كامينودفورسكى ، ويكشف له سر المؤامرة ، ويحذر ليبريوس ، دون ان يتعرض لذكر أسماء مدبريها

وحينما عاد ، وجد أن كامينودفورسكى قد انتهى من عملية حرق الأوراق ، وأن مساعده يراقب النار وهى تخبو ، حتى يحول دون انتشارها

واكتشفت المؤامرةوقبض على المتآمرين ، ولذلك لم تحدث الجريمة . وقام سيفو بليوى بدور المحرض والعميل ، فشعر يورى انه أكثر تقززا من ذى قبل



لم يبق على وصول عائلات الانصار سوى يوم واحد ، ولذا أخذ الانصار ينتظرون ، ويستعدون للاستقبال ، وذهب يورى ليفحص بامفيل ، وقد رآه عند مدخل الخيمة ، يحمل فأسا وأمامه بضع شجيرات قطعها دون أن يشذبها ، وأخذت أغصانها تهتز ، كأنما هى تحتج على اقتطاعها ، فقال بامفيل يوضح الامر :

ـ لقد أعددتها من أجل ضيوفى الاعزاء : زوجتىوأولادى ، ان الخيمةمنخفضة ، يتسرب المطر اليها بسهولة ، وقدقطعت هذه الشجيرات لأعد منها سقفا

ـ وهل تظن انهم سيسمحون أن تقيم أسرتك فى خيمتك ،

وهل حدث قبل ذلك ، أن سمح للمدنيين من النساء والأطفال أن يقيموا داخل نطاق المعسكرات ؟ أغلب الظن أنهم سيقيمون فى مكان آخر ، خارج المعسكر ، وان باستطاعتك أن تزورهم وتراهم فى أوقات الراحــة ، على أننى أرجح أنهم سيسمحون لأسرتك بالاقامة معك فى خيمتك بصفة خاصة ، على أن ذلك ليس غرضى من الحضور ، فقد قيل لى ان صحتك ليست على مايرام ، وانك راغب عن الطعام والنوم ، فهل حقا هذا ؟ يبدو لى أنك فى خير حال ، ويمكنك أن تشذب شعرك

ومما يجدر ذكره ، أن بامفيل رجل ضخم الجسم الى حــد بعيد،ذو شعر أسود مشعث،ولحية كثة سوداء أيضا،وجبهة متعددة التجاعيد ، وكان يبدو من منظره أنه جاحظ العينين

وخشى القائمون على الثورة ، فى بدايتها ، أن تبوء بالفشل ، كما حدث عام ١٩٠٥ ، حين اقتصر تأثيرها على فئة قليلة من المثقفين ، دون غيرهم من طبقــات المجتمع الاخرى ، ولذلك بذلت جهودجبارة لنشرفكرة الثورة بين جميع أفرادالشعب، لاشعال نار الحمية فى نفوسهم

لم يكن أمثال بامفيلبحاجة فى تلك الايام ، الىمن يبثفيهم روح الكراهية والسخط على المفكرينوالضباط ، تلكالكراهية القاسية ، فكان المتحمسون من اليساريين يعتبرونهم فئةنادرة فيكنون لهم أعظم التقدير ، وكان احساسهم الذى يتنافى مع مبادىء الانسانية ، دليلا على اقتناعهم بتفاوت الطبقات ، كما كانت همجيتهم مثالا للغريزة الثورية ، وقد اكتسب بامفيل بهذه الخلال شهرةواسعة ، وصيتا عريضا ، فوضعهرؤساؤه وقواده فى المقام الاول بينهم

وخيل ليورى ، أن ذلك العملاق الزرى ، بانحلاله وميوله ونزعاته الشاذة ، رجل وضيع ، ليس فى كامل قواه العقلية

قال بامفيل :

ــ هيا بنا ندخل الخيمة

ــ لماذا ؟ أفضل ان نظل فى الهواء الطلق ، كما أنه لايمكنني الدخول

ــ كما تريد ، اذن يمكننا أن نجلس على الخشب

واتخذا مجلسيهما على الشجيرات الصغيرة ، وراح بامفيل يسرد ليورى تاريخ حياته :

ان تاريخ حياتي طويل ، وثلاث سنوات لاتكفى لكى اسرده تفصيلا ، كما انني لا أدري من اين أبدأ ؟ على انني سأحاول ، فقد كنا شابين ، زوجتي وأنا ، وكان عملها مقصورا على العناية بشئون البيت ، وأعمل أنا فى الحقول . كانت حياتنا لا بأس بها ، ورزقنا أطفالا ، ثم لبيت نداء الوطن ، عندما استدعيت الى الجيش ، وذهبوا بى الى جبهة الحرب ، نعم ، الحرب ، وكيف احدثك عنها ؟! لقد رأيتها أنت أيها الرفيق الطبيب . وقد نشبت الثورة بعد ذلك ، ورأيت كل شيء بوضوح ، اذ كانت عيون الجنود متيقظة . من ذلك اننا عرفنا ان الاجانب لم يكونوا أعداءنا الوحيدين ، بل كان لنا أيضا أعداء فى الداخل . فأهبت بجنود الثورة أن يلقوا بنادقهم ، وأن يعودوا الى الوطن ، ويحاربوا البرجوازيين وطبعا تعرف ذلك أيها الرفيق الطبيب واعقب ذلك أن نشبت الحرب الاهلية ، وانضممت الى الانصار وهنا ، يجدر أن أصرف النظر عن بعض الامور فابترها من القصة ، والا فلن تنتهي . وبعد كل هذا ، ماذا أرى في وقتنا الحاضر ؟ لقد سحب ذلك المتغطرس ، من الجبهة الروسية ، فرقتى ستافروبول ، الاولى والثانية ، كما سحب فرقة اورينبورج القوزاقية الاولى . فهل ظن انني طفل ؟ انني لاأفهم ؟ ألم أخدم في الجيش ؟ حقا انها مهنة رديئة أيها الطبيب ، انها توردنا جميعا موارد الهلاك ماذا يقصد ذلك الصعلوك ؟ هل يريد ان يطوقنا ، ثم يفنينا برعاعه ؟! ان لى زوجة وأطفالا صغارا ،

كيف يمكنهم أن يتقوا شره ، انهم أبرياء ، ما فى ذلك شك ، ولكنه ذو قلب متحجر ، بسببى سيعذب زوجتى وأطفالى ، وسيقسو فى تعذيبهم ... ثم تسألنى بعد ذلك لماذا لا انام ؟!. يمكن للانسان ان يصير قطعة من الحديد الصلد ، اذا فقد عقله !

ــ انك صديق غامض يا بامفيل ، أعترف أننى لا أستطيع أن أفهمك . انك بعيد عن اسرتك منذ سنوات ، بل لم تكن تعلم أين هى ، ومع ذلك لم يساورك شعور بالقلق عليها ، والآن وهى قاب قوسين أو أدنى من الوصول اليك ، حيث ستنعم برؤيتها ، يبدو انك تتحدث عن مأتمها ، وكان الاجدر بك ان تتهلل بشرا

ــ كان هذا من قبل يا عزيزى ، أما الآن ، فالامر يختلف فقد تقرر مصيرى ، القبر مصيرى . ولكن هل فى مقدورى أن اصطحب معى أطفالى الابرياء الى العالم الآخر ؟! انهم سيكونون وحدهم ، وسيقعون بين براثن وحشيته ، سيمتص دماءهم ويسومهم العذاب

ــ أمن أجل هذا تهذى ؟ بلغنى أنك ترى أشباحا من الجن ؟!

ــ لقد أخفيت عنك أهم الاخبار أيها الطبيب . ولكنى سأخبرك بالحقيقة كاملة ، مادامت هذه رغبتك،سأقولها الآن ، حقيقتى أنا ، ولكن لا تبتئس اذ أقولها أمامك .. لقد صرعت الكثيرين من أمثالك ، وتلطخت يداى بدماء كثير من الضباط ، وعلية القوم . فعلت ذلك دون رهبة أو وجل ، فكنت أريق الدماء وكأنها ماء يسيل أمامى. لا أتذكر الآن اسماء ضحاياى أو عددهم ، ولكن طفلا واحدا يلازم طيفه مخيلتى لايبرحها ، قتلته ، هل تدرى لماذا ؟ لأنه اضحكنى ! أى دون جرم جناه ، فكنت كالمجنون .. حدث ذلك أثناء الثورة فى عهد كيرينكى ، وكنا نقوم بحركة تمرد ، قريبا من احدى محطات

السكك الحديدية . حيث كنا قد غادرنا الجبهة ، فحضر الينا شاب مشاغب ، حاول أن يقنعنا بالتعقل والعودة الى الجبهة ، وأن نواصل القتال حتى النصر . لقد كان طالبا فى المدرسة الحربية ، وأخذ يلقى علينا محاضرة فى الاخلاق ، وكيف نكون صالحين ، كان شعاره : « حاربوا حتى النصر » . وقفز فوق برميل ماء ، وأخذ يكرر هذا النداء • وكان البرميل على رصيف المحطة ، فلما قفز فوقه ، ليدعو إلى المعركة من مكان ظاهر ، انقلب غطاء البرميل فجأة ، فسقط الشاب فى الماء الذى فى البرميل ، هل يمكنك أن تتصور كم كان مضحكا ذلك المنظر، كدت انفجر من شدة الضحك ، وكانت بندقيتى فى يدى ، وقد أطاح الضحك برأسى ، وبحركة لا شعورية ، رأيت نفسى أرفع البندقية ، وأصوبها نحوه ، ثم أطلق النار عليه ! ولا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أتصور كيف حدث هذا ، وكأن قوة خفية دفعتنى إلى قتله ••• ان هذا هو سبب هذيانى ، على ما أعتقد ، ليلا ، حيث يتراءى لى منظر تلك المحطة ،وفيما مضى ، كنت لا أفكر فى ذلك الذى حدث ، أما الآن ، فانه يرهق أعصابى ••• !

الفصل الحادي عشر

شجرة الزيزفون

وأخيرا وصلت عائلات الانصار ، بأطفالها ، ومتاعهـــا . وتحركت القوة ، تتبعها قافلة العائلات ، وسار فى المؤخرة خلف العربات ، آلاف من رءوس الماشية وقطعان البقر .

ووصلت مع النساء امرأة اسمها زليداريخا ، وهى زوجـة أحد الجنود ، ولكنها كانت شخصية ممتازة ، فهى تتقـن فنى السحر والطب البيطرى ، وقد علت رأسها قبعة كبيرة وارتدت معطفا عسكريا أخضر اللون ، كان مخصصا للحاكم

وكان المعسكر الجديد يختلف عن القديم ، فقد كان فى وسط غابة كثيفة يتعذر اختراقهـا ، فكان المعســـكر لذلك محصنا تحصينا طبيعيا . ولما لم يكن لدى يورى ، فى الايام الاولى ، ما يشغله ، فقد انتهز الفرصة ، وأخذ يجوب أرجاء الغابة ، ويكتشف معالمها . وقد تبين له أن من السهل أن يضل المرء طريقه فيها ، كما لفت انتباهه مكانان فيها ، ظـلا عالقين فى ذاكرته

كان المكان الاول ، حافة الغابة التى تقع خارج المعسكر مباشرة . وكان الوقت خريفا ، وقد خلت الاشـــجار من أوراقها ، فأصبح من السهل أن تتبين ما أمامك عندما تجيل النظر . وقامت فى المكان شجرة زيزفون ، منتصـــبة ، لا تجاورها أشجار أخرى ، وكانت وحدها قد احتفظت بأوراقها وضنت بها من السقوط ، وقد شمخت فى الفضاء ، بثمارها المستديرة ، وكأنها تتحدى الخريف الذى لا يرحم . ومن

وقت لآخر ، تحط على الشجرة ، أسراب من العصـــافير الصغيرة الجميلة ، تنقر الثمار ، وتتخذ منها غذاء لها

أما المكان الثاني ، الذى جذب انتباه يورى ، فكان أشد روعة ، فقد كان فوق مرتفع ، ينحدر فى شدة من أحـــد الجانبين ، فاذا نظرت الى اسفل ، رأيت منظرا كأنه سراب أو جدول ، أو حقل يزخر بالاعشاب ، وهو فى الواقـــع صورة للاصل ، ولكن العمق الشديد حوله الى سراب • وقد يخيل اليك أن الغابة كلها تقع فى ذلك العمق ، وأن رءوس اشجارها أضحت تحت مستوى قدميك • ولعـــل زلزالا كان قد حدث فى ذلك المكان ، فخلف ذلك الانحدار ، فتراءت الغابة وكأنها فى مستوى الغيوم ، ثم تدحرجت الى أسفل ، حتى استقرت فى مكانها

والعجيب ، الذى بعث الدهشة فى نفس يورى ، وبهره جماله ، أنه كان يحيط بالمرتفع ، على مدى طوله ، سور من الجرانيت ، انتصبت صخوره على أطرافها ، وقد ظن يورى لاول وهلة ، أنها من صنع البشر ، وأنها أحد المعابد الوثنية كانت تقام فيه الصلوات وتقدم الذبائح

فى هذا المكان ، وفى صباح يوم بارد مشـــئوم ، نفـــذ حكم الاعدام فى اثنى عشر شخصا ممن تزعموا المؤامرة ، كما أعدم اثنان من المرضين لادانتهما فى تهمـــة تهريب الفـــودكا

سار المحكوم عليهم بالاعدام الى ذلك المكان ، تتبعهم نخبة من رجال الانصار ، من بينهم بعض الحرس الخاص بالقائد وما أن وصلوا ، حتى التفوا حولهم فى نصف دائرة ، ثم اخذوا يتقدمون وقد صوبوا اليهم فوهات بنادقهم • وبذلك جعلوهم أمام الامر الواقع الذى لا مفر منه ، فان هم تراجعوا الى الخلف ، ابتلعهم المنحدر ، وصاروا من الهالكين

وبدا المحكوم عليهم كالاشباح ، من طول السجن وقسوة التعذيب والاستجواب المتواصل ، فاختفى مظهرهم الانسانى بين شعرهم الطويل ، وعيونهم الزائغة ، ووجوههم الكالحة وكانوا قد جردوا من سلاحهم عندما اكتشف أمرهم ، فلم يخطر على بال أحد أن يعيد تفتيشهم قبل تنفيذ حكم الاعدام فيهم

وفجأة ، أطلق رجانيتسكى ، وهو صديق فدوفيتشنكو، وكان يسير الى جانبه ، وكان مثله فوضويا قديما ، ثلاثة أعيرة نارية على الحرس ، سددها بالذات ، نحو سيفوبليوى

وقد اشتهر بالمهارة فى آصابة الهدف ، الا أن يده اهتزت ولعل ذلك لشدة انفعاله ، فأخطأه • وتدخل عامل الشفقة على الرفاق القدامى ، فمنع الحرس من الانقضاض على الجانى والفتك به • وكان لا يزال فى مسدسه رصاصات ثلاث ، وانتابته حالة ذهول لفشله ، أو لعله — لاضطرابه — نسى الموقف ، فالقى بالمسدس على الصخور ، فانطلقت منه رصاصة ، أصابت أحد المحكوم باعدامهم ، اسمه باشكوليا فى قدمه ، فسقط يتلوى من الالم ، وأخذ يصرخ ، وقد أمسك بقدمه ، وعاونه الرجلان الواقفان الى جانبه واسمهمابافنوتكين وجورازديخ ، ورفعاه من ذراعيه ، حتى لا يجهز عليه رفقاؤه الذين لا يعلمون من الامر شيئا • وعجز باشكوليا عن وضع قدمه التى أصيبت ، على الارض ، فاضطر أن يقفز ، وهو يعرج الى الحافة الصخرية ، التى سيق نحوها المحكوم باعدامهم ، وأخذ ينتحب • وكأن بكاءه عود ثقاب ، أشعل الشجون فى نفوس رفاقه ، فأفقدهم رباطة الجأش • فأخذوا جميعا يتوسلون ويشتمون فى وقت واحد ، يطلبون الرحمة ويلعنون ، يبكون ويصلون

وفى هذه اللحظة ، ألقى الشاب جاليولين قبعته ، وانحنى

راكعا على ركبتيه ، وتقدم ـ وهو راكع كسائر زملائه ـ من الصخور الرهيبة ، وأخذ ينحنى بضع مرات تحت اقدام الحرس ، ثم صاح بصوت مدو :

ـ أيها الرفاق ، الرأفة ، الرأفة ، سامحونى أيها الرفاق اننى نادم ، لن أعود الى ذلك بعد الآن ، أطلقوا سراحي ، ولا تقتلونى ، فانا لا أزال شابا ، وأريد أن أعيش ، أريد أن ارى أمي ، دعونى أيها الرفاق ، واعفوا عني ، سأفعل كل ما تأمروننى به ، أننى أقبل الارض ، النجدة ، النجدة . لقد انتهيت يا أماه .. !

وما أن انتهى من تضرعاته ، حتى ردد شخص آخر ، كان مختبئا وسط الرفاق :

ـ الرحمة فوق العدل أيها الرفاق ، لا يمكن أن تكون قلوبكم قد قدت من صخر ، فأنتم رحماء طيبون ... لقد اشتركنا معا ، جنبا الى جنب ، فى حربين ، من أجل غرض واحد ، وقضية واحدة ، ألا يشفع لنا ذلك لكى ترأفوا بنا وتطلقوا سراحنا ، سنحفظ لكم جميلكم ، وسنذكره طول حياتنا ، وستثبت الايام لكم ذلك . ألسنا مسيحيين ، لماذا أراكم لا تجيبون ؟!

أعقب ذلك ، أن انفجر آخرون ، فصاحوا فى وجه سيفوبليوى :

ـ انك يهوذا ! الذى سلم المسيح لليهود ، فهو لهذا قاتله ... ان كنت تعتبرنا خونة ، فأنت أكثر منا خيانة ، أيها الوغد ، انك تستحق القتل ! أقسمت يمين الولاء لقيصرك ، ثم غدرت به ، وقتلته ، وأقسمت يمين الوفاء والاخلاص لنا .. ثم خنتنا .. ! اذهب ، فعما قريب ، ستمثل نفس الدور مع رجل الغابة !

والوحيد ، الذى ظل رابط الجأش ، محتفظا بثباته ، هو

فيدوفتشنكو ، فقد ظل حتى وهو على أبواب القبر ، معتزا بنفسه ، وقد شمخ بأنفه ، ورفع رأسه ، وشعره الاغبر يتطاير فى الهواء • وبرباطة جأش ، صاح فى زميله رجانيتسكى ، يحدثه حديث الند للند :

ـ لا تمتهن نفسك ، ولا تذلها ، تضرعك أو احتجاجك ان هو الا موجات يرددها الهواء ، ولن تصل الى قلوب هؤلاء الجلادين ، انهم لن يفهموك أبدا ! على أنه لا يجدر بك أن تفقد الامل • والتاريخ كفيل بكشف الحقيقة • اننا نموت الآن شهداء فى سبيل المثل العليا ، فى فجر الثورة العالمية، فلتحى ثورة الفكر ، فلتحى الثورة العالمية !

ودوت فى الفضاء أصداء عشرين طلقة ، بناء على أمر تلقاه الرماة ، ولم يسمعه أحد سواهم ، فجندلت نصف المحكوم باعدامهم فورا ، وقتل الباقون بطلقات أخرى ، وانتفض جاليولين ، ثم لفظ آخر انفاسه

فكر الانصار فى الانتقال الى مكان آخر ، نحو الشرق ، يكون أكثر ملاءمة لتمضية فصل الشتاء • فأرسلوا الدوريات تتفقد المنطقة ، من وراء الطريق العام ، حيث كانت المياه تغمر البقاع ، ولكنهم عدلوا أخيرا عن فكرة الانتقال . ولكن ليبريوس أخذ يتغيب كثيرا تاركا يورى بمفرده

وفى هذا الوقت توجه يورى لزيارة بامفيل وأسرته ، وكانت أسرته وأطفاله قد أمضوا فصل الصيف ، مشردين فى الطرقات، يفترشون الارض ويلتحفون السماء ، وقد أخذ منهم الرعب والاجهاد بسبب ما قاسوه من آلام وأهوال . وقد طبعهم هذا التشرد بطابع أليم لازمهم مدى الحياة ، فقد اصطبغ شعر الزوجة والابنة والابن الصغير ، تحت تأثير آلام السجن ، بلون أصفر باهت ، وابيضت حواجبهم ، وكأن الشيب لحقهم ، فأضحت ظاهرة تعلو وجوههم التى أرهقها الاجهاد فاسودت .

واستطاع الاطفال أن يتحملوا آثار هذه التجارب القاسية ، أما الام ، فقد صار وجهها كالحا كوجوه الاموات المصفرة .
فقد أخنى عليها الخوف والارهاق فزما شفتيها الى بعضهما ، وتصلبت ملامح وجهها ، فأصبحت جامدة جمود الصخر ، كما تحجرت عيناها، فأصبحتا لا تعبران الا عن الألم والاستسلام

وكانت زوجة بامفيل وأطفاله كل شيء فى حياته ، كرس لهم نفسه ، وأحبهم حب العبادة ، وقد دهش يورى لما كان يبتدعه بامفيل من العاب مختلفة ليسرى بها عن أولاده ويسليهم

وشملت بامفيل الطمأنينة لاجتماعه بأسرته ، فتحسنت حالته المعنوية والصحية معا . على انه مالبث أن اغتم ، وعاوده شروده ، حين علم ان وجود العائلات أمر غير مرغوب فيه ، لانه مخل بالنظام . وعرف أن النية متجهة الى ترحيل العائلات ، الى مخيمات بعيدة عن المعسكر ، تحت الحراسة .
وبالرغم من أن يورى ألقى الى مسامعه ـ كى يهدىء من روعه ـ أن مثل هذا الاجراء قد لا ينفذ ، أو هو بعيد التنفيذ ، فان بامفيل لم يصدق ، وانهارت أعصابه ، وعاوده شرود الذهن



مرت بالمعسكر ـ قبل حلول الشتاء ـ فترة من الاضطرابات والقلق ، وحدثت أمور غامضة تنذر بالاخطار . فقد استطاع الجيش الابيض تطويق الانصار ، وفقا لخطة رسمت لهذا الغرض ، وضعها نخبة من القواد المهرة ، منهم الجنرال كادرى، والجنرال فيتسين ، والجنرال باساليجو ، وهؤلاء اشتهروا بقسوتهم ، وصرامة قراراتهم ، فكان مجرد ذكر اسمهم يبعث الرعدة فى قلوب اللاجئين ، وسكان القرى على السواء

ووقع الانصار فى مأزق ، فكان لزاما عليهم أن يفكروا فى الامر . وأدركوا أن السكون من جانبهم ، يشدد عزائم العدو ،

ومهما كانت تحصيناتهم ، فيجب أن يوفقوا الى مخرج من هذا المأزق ، ولو بطريقة تظاهرية

وحشدت قوات هائلة ، لمواجهة التطويق ، ودار قتال عنيف لبضعة أيام ، انتصر فيه الانصار ، وتمكنوا من فتح ثغرة ، والنفاذ منها الى مؤخرة الجيش الابيض

وكانت هذه الثغرة ، مفتاح الطريق الى المخيم ، ولدهشة الانصار ، وجدوا أفواجا من اللاجئين ، من سكان القرى المجاورة ، هاجروا من بيوتهم ، بعد أن قاسوا ألوانا من العذاب على أيدى الجيش الابيض ، فأخذوا يلوذون بالانصار ، ويلتمسون حمايتهم

ولكن الجيش الابيض استطاع أن يسد الثغرة التى فتحها الانصار فى مواقعه ، فأصبح من المتعذر على القوة التى اخترقتها ، أن تعود الى أماكنها

وقامت النساء اللاجئات ، بأعمال باهرة ، تدل على سعة الحيلة ، أفادت الانصار فائدة عظمى ، فكن يقطعن الاشجار ، ويقمن الطرقات والجسور لتسهيل تحركات الانصار ، كما كن يضعن العراقيل أمام الجيش الابيض . على أنهن كن يضعن فى أرجاء الغابة ، رغم البحث عنهن

وتعارض ما فعله الانصار ، مع ما قصدت اليه قيادتهم ، مما أدى الى فشل الخطة التى وضعها ليبريوس

وأخذته بسبب ذلك نوبة من الغضب ، وهو يتحدث الى سفيريد ، الصياد ، بجانب الطريق . بينما أخذ فريق من ضباطه ، وقفوا فى الطريق ، بالقرب من ليبريوس ، يتشاورون فى اتلاف أسلاك التلغراف . ولكنهم لا يستطيعون أن يقدموا على أى عمل ، دون استشارة ليبريوس الذى كان لا يزال منهمكا فى حديثه ، فأومأ اليهم أن يتريثوا

كان قتل فيدوفتشنكو صدمة قاسية لسفيريد ، الذى كان

يعتبر أن جريرته الوحيدة ، انه ينافس ليبريوس نفوذه ، وأنه مصدر لبذر الشقاق فى المعسكر ، وود سفيريد من أعماقه أن يتخلى عن الانصار ، وأن يعيش حياته الخاصة المستقلة ، ولكن الامر ليس بيده الآن ، فقد رسم طريقه ، والخروج على الجماعة ، معناه النهاية والاعدام

وسفيريد ، كان أحد الذين بعث بهم فى أثر اللاجئات ، وقد رأى من الفظائع ألوانا ، كما شاهد الفوضى التى عمت بسبب الاوامر المتناقضة ، وكان بوده أن يبصر قائده بما رآه ، فقد اقترف بعض العناصر فظائع اليمة مع النساء ، حتى انهارت أعصابهن ، فقد أجبرن على السير ، وهن حاملات على رءوسهن وأكتافهن المتاع والاطفال ، فأرهقهن التعب والاجهاد ، وغاض حليبهن ، فطاشت عقولهن من هول ما يعانين ، فتركن الاطفال، والقين الاكياس ، وقررن أن يقفلن راجعات ، ذاكرات لانفسهن أن الموت السريع أفضل مائة مرة من الموت البطىء . ولذلك فضلن ان يرتمين بين أيدي العدو ، لان ذلك خير من وقوعهن فريسة بين أنياب حيوانات الغابة المفترسة

على انه كان هناك رهط آخر من النساء ، أقوى عزيمة ، وأشد جلدا ، وأكثر شجاعة وضبط نفس ، يتفوقن بها على الرجال

امتلأ راس سفيريد بكثير من هذه الانباء ، وقد أراد أن يضعها بين يدى قائده ، كما أراد أن ينبهه ويحذره من عصيان آخر متوقع ، اشد خطرا مما سبق، ولكن ليبريوس ، لم يترك له فرصة للكلام ، ليس بسبب اخوانه الضباط الذين كانوا ينتظرون مشورته ، ولكن لانه كان قد تلقى كثيرا من أمثال هذه التحذيرات فى الاسابيع القليلة الماضية



الغابة واسعة الارجاء ، لا يحدها البصر ، وقد نشب قتال

على حدودها الغربية ، فبدا كأنه مناوشات . وقد اكتظ المعسكر بالناس الذين احتشدوا فيه ، حتى لتظن ان عدد من به لا ينقص ، بالرغم مما يخرج منه الى جبهة القتال

وكان صخب المعركة يترامى من بعيد الى المعسكر . ثم دوت فى الغابة بضع طلقات ، تتابعت متقطعة ، واستحالت فجأة الى طلقات سريعة ، فهرول الحشد الى الخيام والعربات ، وعم الهرج ، وانتاب الجمع نوع من الهياج ، فاستعدوا للقتال

كانت حركة تمويهية ، ولكن بعضا من الجماعة تدافع صوب المكان الذى أطلقت منه النار

وذهل أفراد الجماعة اذ وجدوا انفسهم يقفون أمام رجل ملقى على الارض ، تنزف منه الدماء ، وقد بترت ذراعه اليمنى ، وساقه اليسرى . وادهش الجماعة ، كيف تمكن رجل على هذه الحال ، أن يزحف صوب المعسكر ، بيده وقدمه الباقيتين ! كما اذهلها ان تجد الذراع والساق المقطوعتين ، والدماء تغمرهما ، مشدودتين الى ظهره ، بلوح من الخشب ، كتب عليه : « هذا نوع من القسوة ، ردا على الفظائع التي اقترفتها الوحدة الحمراء » — على أنه لم تكن لهذه الوحدة ، فى الواقع ، أية علاقة باخوان الغابة . كما كتب ايضا على اللوح الخشبى : « ستطبق هذه المعاملة على الانصار ، اذا لم يستسلموا فى موعد معين ، ويطرحوا اسلحتهم ، ويسلموها الى ممثلى الجيش الابيض »

أخذ الرجل الذى يحتضر ، يلتقط انفاسه بصعوبة ، ويتحدث بكلمات لاهثة متقطعة ، ويغيب عن وعيه بين آونة وأخرى ، لغزارة ما نزف من دمائه . فوصف ألوان التعذيب التى يقوم بها رجال فيتسين ، وأنهم كانوا قد حكموا عليه بالاعدام ، ولكنهم عدلوا عن ذلك ، وفضلوا أن يبتروا ذراعه ، وساقه ، ثم رأوا أن يبعثوا به الى المعسكر ، لينشر الذعر فى نفوس

الانصار . وأنهم نفذوا ذلك ، فأتوا به الى مشارف المعسكر ، ثم أجبروه على أن يزحف ، مستعينين فى ذلك ، باطلاق النار لارهابه

وخارت قوى الرجل ، فأصبح يحرك شفتيه فى صعوبة شديدة مما اضطر الناس أن ينحنوا فوقه ، كى يلتقطوا كلماته المتقطعة ، وهو يقول :

معركة شديدة تدور ... لنمسك به ... خرجت الدوريات ... بقواتها الهائلة ... يريد أن يأخذكم على غرة ... لا أستطيع الكلام ... أكثر من ذلك ... انى أبصق دما ... وسألفظ آخر أنفاسى ...

ـ ... لقد تغلغل ... احذروا ... أيها الرفاق ... ان

ـ اهدأ ، وخذ قليلا من الراحة ، ان انكبابكم عليه يكاد يخنقه أيها الملاعين ، هل اجدبت قلوبكم من الرحمة ؟!

وعاد الرجل يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وراح يقول ، وهو يلهث :

ـ لتنزل اللعنة على ذلك الشيطان ... اخذ يستجوبنى ، ويقول :

« سأجعلك تسبح فى بركة من دمائك ، اذا لم تذكر اسمك ! »

وكيف كان يمكننى ان أظهر له شخصيتى ... ! فقد كنت هاربا منه ... فى طريقى اليكم

ـ انك تكرر لفظ « هو » من تقصد ؟

ـ مهلا .. دعونى التقط أنفاسى ... سأوضح كل شيء ... هتمان ، والكولونيل بيكيتسين ، وستريسى ، من رجال فيتسين ... لايمكنكم ان تتصوروا مبلغ قسوتهم ... المدينة بأجمعها تئن تحت نيرهم ... انهم يسلقون الناس وهم أحياء ، يقطعون أوصالهم اربا ، انهم يطبقون على الشخص ، من عنقه ، ويدفعونه الى الداخل ... الى المجهول ... مكان مظلم ،

تتحسسه ، فاذا هو قفص داخل عربة ، احتشد به خمسون رجلا ... وياويل من يقع فى قبضتهم ... فهو اما أن يشنق أو تطلق عليه النار ، أو يستجوب ، معالاستعانة علىالاستجواب بالضرب ، حتى لايبقى فى الجسد جزء دون جرح ، ثم يملئون الجراح بالملح ويصبون فوقها الماء الساخن فى درجة الغليان ... واذا تقيأ الشخص ، أو قضى حاجته ، من شدة الكرب والالم ، اضطروه أن يبتلع ماتقيأه أو ماتبرزه ... أما النساء والاطفال... فلا أستطيع انأصف مايصيب هؤلاء المنكودين ، فانه مما تقشعر له الابدان !

وما أن وصل المسكين الى هذا الحد منحديثه اللاهث ، حتى انهارت أعصابه ، وخارت قواه ، وصرخ صرخة مدوية ، ثم أسلم الروح ، دون أن يتم حديثه

واذ راى الجمع ذلك ، رفعوا قبعاتهم ، أمام جلال الموت ، ثم رسموا شارة الصليب على صدورهم ، ثم طأطئوا رءوسهم خاشعين

وانتشر فى المخيم ، فى تلك الليلة ، أنباء حادث اشد هولا

لقد كان بامفيل أحد الجماعة الذين أحاطوا بالرجل المحتضر، وقد رآه بعينى راسه ، وسمع حديثه ، كما قرأ التهديد المسطر على اللوح الخشبى . فتملكه ذعر وخوف شديدان ، على عائلته ، بعد موته ، أكثر من ذى قبل ، وتراءى له أنهم يسومون زوجته وأطفاله ألوان التعذيب ، وتراءت له وجوههم وقد أخدت تتقلص ، بل خيل اليه أن أنينهم وصراخهم يطنان فى أذنيه ، يطلبون النجدة

وما ان وصل الى هذا الحد من خيالاته ، حتى تملكه يأس اليم ، ورأى أن يجنبهم العذاب الذى تخيله ، كما راى ان يضع حدا لعذابه هو ، فعمد الى قتلهم بنفسه ، فأرداهم جميعا ، زوجته وأطفاله ، بالفأس الحادة نفسها ، التى كان

يصنع بها العابا يسلى بها ابنه الحبيب وطفلتيه العزيزتين

على أنه لم يبادر الى قتل نفسه فورا ! ترى ماذا كان يجول بخاطره ؟ وماذا كان ينتظر ؟ بل ماذا كان يريد بعد ذلك ؟! لقد كان في حالة ذهول ، بل فى حالة جنون ميئوس من شفائه

واجتمع ليبريوس ، ويورى ، وأعضاء مجلس الجيش ، ليتناقشوا فيما عساه أن يتبع نحوه ، فراح هو يهيم على غير هدى ، فى أرجاء المعسكر ، وقد تدلى رأسه فوق صدره ، واخذت عيناه الصفراوان ، تحدقان فى الفضاء ، دون أن يبدو عليهما أنهما تبصران ، وقد تقلصت عضلات وجهه ، فعبرت عن ألم عميق ، انطبع على وجهه ، ولازمه . ولم يشفق عليه أحد ، بل تجنبه الجميع ، حتى اشار بعضهم الى اعدامه ، ولكنهم لم يقرروا ذلك

وعند الفجر ، اختفى من المعسكر ، هاربا من نفسه ، بعد أن لم يبق أمامه فى العالم أمل



حل الشتاء ببرودته وجليده ، واخذت تصدر من الضباب المتكاثف أصوات غريبة ، واشكال مختلفة ، وهى تتحرك ببطء تارة ، وتتوقف تارة اخرى ، ثم ذاب جليدها . ولم تكن الشمس كالعهد بها فى الصيف ، تتألق ، وتلقى أشعتها الذهبية فى قوة واعتداد ، بل حلقت فوق الغابة قرمزية اللون ، انبعثت منها أشعة باهتة ، تلقى بنفسها فوق الاشجار ، فأضفت جوا حالما فى الغابة

وأخذ القوم يسيرون ، وقد انتعلوا احذية لبادية ، تضرب فى الارض دون أن يصدر عنها صوت ينبىء أن هناك اناسا يسيرون ، ولكنها كانت تدغدغ الثلج فى سيرها ، وراحت الاجساد المكتسية بالفرو ، تتهادى . ثم توقف الجمع عن

المسير ، واخذ الاخوان يتحدثون ، تقترب وجوههم الحمراء من بعضها ، حتى كانت لحاهم تلامس بعضها ، وتتصاعد من أفواههم غيوم من البخار

والتقى يوري ، وهو يسير على هدى الطريق التى طبعتها الاقدام ، بليبريوس ، فقال له هذا :

ــ مرحبا بك ، فى هذه الغربة ! انني أدعوك الى مغارتى فى هذه الليلة ، لتقضيها معى ، لنتحدث طويلا ، ففى جعبتى كثير من الاخبار

ــ هل وصل البريد ؟ وهل به أنباء من فاريكينو ؟

ــ مطلقا ... لاخبر من اسرتك أو اسرتى ، وهذا يبعث فى نفسى الطمأنينة ، انني أفهم من ذلك ، أنهم ابتعدوا عن مواطن الخطر فى الوقت المناسب ، والا لكانت قد وصلتنا انباؤهم ، على العموم سنتحدث عن ذلك الليلة ، وساكون فى انتظارك

وبر يوري بوعده ، وتوجه الى ليبريوس ، وكان اول سؤال وجهه اليه :

ــ خبرنى بالضبط عن انباء عائلتينا

ــ لماذا تحصر تفكيرك فى أفق ضيق ؟! انها على ما أعلم آمنة لم يصبها ضر ، ولكن هناك أخبارا هامة ، هل لك فى شريحة من اللحم ؟

ــ ليست بى رغبة ، وشكرا ، انما ارجوك الا تغير الموضوع

ــ لماذا ترفض مشاركتى الاكل ، سأتناول انا قطعة من اللحم ، ولو اننا احوج مانكون الى الخبز والخضر . وددنا أن نزيد مئونتنا من الجوز واثمار الخريف ... الا تعرف اننا نسير من حسن الى احسن ، وأن كل ماتوقعته ، قد حدث فعلا . وان الظروف السيئة قد زالت ، فان كتيبة كولتشاك تتقهقر وتنسحب ، ومعنى ذلك ، الهزيمة ، اتذكر ماكنت اردده على سمعك ، بينما كنت أنت تتذمر ؟

ــ متى رأيتنى أتذمر ؟!

ــ دائما ، وخصوصا عندما أرهقنا فيتسين بهجومه

وعلى الفـور ، تواردت فى ذهن يورى ، ذكريات الخريف ، واعدام العصاة ، وكيف أقدم بامفيل على قتل زوجته واطفاله ، وتلك المعارك التى بدت كأن ليس لها نهاية ، وكانت وحشـية الجيش الابيض ، لاتقل فى قسوتها وضراوتها عن وحشـية الحمر ، فالاهانة تقابلها اهانة ، والقتل يقابله قتل ، والانتقام يقابله انتقام . وأحس يورى برائحة الدم تنفذ الى خياشيمه ، فشعر بدوار ، أوشك أن يجعله يتهالك ، ثم أخذت عينـاه تزوغان . . . فهل كان ذلك تذمرا ؟ ، كما ظنه ليبريوس ، لقد كان شيئا آخر غير التذمر ، وهل كان باستطاعته أن يوضح له الامر ؟!

كانت المغارة مضاءة بمشاعل قائمة على حوامل معدنيـة ، يرسل اشتعالها رائحة عطرية ، وكلما احترق مشعل ، وتحول الي رماد ، كان يسقط فى وعاء مملوء بالماء ، فيشعل ليبريوس غيره

ــ ماذا أشعل ؟! لقد نفد الزيت ، ويشتعل الخشب بسرعة لانه جاف ، الا تريد حقا شريحة من اللحم ؟ ماذا تنتظر ازاء داء الجدرى ، الا يجدر بك أن تدعو القادة الى اجتماع ، تلقى فيه محاضرة عن كيفية الوقاية منه ، واتقائه !

ــ ماذا جنيت ، بالله ، حتى تصر على تعذيبى ، لماذا لاتخبرنى بأنباء ذوينا ؟

ــ لقد ذكرت لك انه ليس فى التقرير اية اشارة عن ذلك . على اننى عرفت ، من البلاغات الاخيرة ، أن الحرب الاهلية ، قد توقفت رحاها ، وان قوات الكولتشاك مزقت شر ممزق ، وأن جناحا كبيرا من الجيش الاحمر ، يطاردها فى انسحابها نحو الشرق ، على مدى السكة الحديدية صوب البحر . وأن

قسما آخر يسرع فى ذلك الاتجاه ، وسنجمع كل قوانا ، لنضرب الضربة القاضية ، فنشتت مؤخرة الجيش الابيض . لقد تطهر الجانب الاكبر من الروسيا الجنوبية من الاعداء ، ألا يكفيك هذا ؟! الا يسرك هذا ؟!

ـ كل ذلك يملؤنى بهجة وسرورا ، ولكنى أريد أن أطمئن ، وأن أعرف أين توجد عائلاتنا ؟

ـ ومن حسن الحظ انها ليست فى فاريكينو ، ولم يقم أى دليل على الاحداث المزعجة التى أنبأك بها كامينودفورسكى ، لقد كان ماقيل مجرد اشاعة كاذبة ، من أن أناسا مجهولين اقتحموا فاريكينو فى الصيف الماضى ، وكانت هذه الاشاعة فى نظرى مجرد هراء ، لسبب بسيط ، هو أن القرية كانت مهجورة ، لامر ما ، وذلك لحسن حظ سكانها ، اذ غادروها فى الوقت المناسب

ـ وماذا حل بيوريانتين ؟ وفي أيدى من هى الآن ؟

ـ وهذا أيضا هراء وخرافة ، ولا يمكن أن يكون حقيقة بحال من الاحوال

ـ ماهو ؟

ـ ما يشاع من أن البيض يرابطون هناك ، أن هذا مستحيل ، سأقنعك ، وستتأكد من ذلك بنفسك

وتناول ليبريوس مشعلا آخر ، وضعه فى الحامل ، ثم أخرج من مستنداته خريطة ، نشرها أمامه ، فظهرت فيها المنطقة التى يتكلم عنها ، وأخذ يوضح الموقف ، والقلم بين أصابعه

ـ هل ترى ؟ هذه هى المواقع التى هزم فيها الجيش الابيض ، فى كل هذه الامكنة من المنطقة ، هل ترى ؟

ـ نعم

ـ يتضح لك من ذلك ، أنه ليس بامكانهم ، بحال من

الاحوال ، أن يكونوا فى مكان بالقرب من يوريانتين ، لانهم فى هذه الحالة ، يصبحون أسرى ، حيث قطعت مواصلاتهم . وقادتهم ليسوا من الغباء ، بحيث لا يدركون ذلك ، مهما كانت قلة خبرتهم وكفاءتهم . أراك ترتدى معطفك ! هل تنوى الذهاب ؟

ـ اننى مضطر للعودة بعد فترة قصيرة ، فان الدخان هنا كثيف ، وقد أصبت بالصداع ، سأخرج لأتنسم بعض الهواء

وما أن خرج يورى ، حتى أزاح نتف الثلج عن قطعة الخشب ، التى كانت تستعمل كمقعد عند المدخل ، ثم جلس عليها ، وقد اتكأ بمرفقيه فوق ركبتيه ، واشتمل رأسه بين كفيه

تبخرت من ذهنه ، جميع ذكريات الغابة ، والمعسكر ، والعشرين شهرا التى قضاها بين الانصار فى تنقلاتهم ، ومعاركهم ، وازدحم ذهنه ، بدلا من ذلك كله ، بذكريات أسرته العزيزة الحبيبة الى نفسه . وقدح زناد فكره ، عله يتنبأ بمصيرهم ، ومرت بذهنه عدة صور ، كانت كل منها أشد هولا من الاخرى

هذه زوجته الحبيبة ، تونيا ، تسير فى أحد الحقول ، تهاجمها عاصفة هوجاء ، وهذا ابنه الحبيب ساشا ، وقد حملته بين يديها ، تحاول أن تدرأ عنه خطر العاصفة ، فتغطيه بدثارها ، وقد أخذت قدماها تغوصان فى الثلج ، فتجعلان سيرها عسيرا حتى تضطر الى الاستماتة فى السير ، ولكن العاصفة تقهرها ، فتلقى بها أرضا ، انها تنهض بعد أن تتعثر ، وتقع ، وهى ليست من القوة ، بحيث يمكنها تحمل ذلك ، الثلوج تغمرها ، والرياح تصفعها ... آه ...

ما أشد تعاسته ! ! لقد غاب عن ذهنه أن معها طفلين ، ترضع أصغرهما ، فهى لاتدرى ماذا تفعل ، بل هى أقرب ما تكون ،

فى حالها هذه ، الى اللاجئات ، اللواتى تتحطم أعصابهن ، وتنهار قواهن ، ويصبن بالجنون ، وذلك نتيجة محتومة للالم والحزن والارهاق

انها لتنوء بعبء نفسها وطفليها ، وليس الى جانبها معين ، فزوجها ، أبو ساشا ، وهو أقرب الناس الى قلبها ، وأجدرهم بالمبادرة الى معونتها ، قد احتجب ، وغاب ، ولا تعرف أن كان حيا أو ميتا ، انه بعيد ، بل بقى طول حياته بعيدا ... انه يتساءل أى نوع من الآباء هو ؟ ! وهل يجدر بالاب ، مع ما فى هذه الكلمة من معنى سام عميق ، أن يكون بعيدا ؟ ! ثم ماذا عن والد تونيا ؟! ابن الكسندر الكسندروفيتش ؟ وأين نيوشا ، وأين الآخرون جميعا ، لعل من الافضل الا يفكر فى ذلك !

واذ وصل يورى الى هذا الحد من التفكير ، انتصب واقفا ، واستدار ليعود الى المغارة . وفجأة عدل عن ذلك ، اذ سبحت به أفكاره الى وجهة أخرى

لقد احتفظ منذ زمن بعيد ، بصندوق من البسكويت ، وزوجين من الزحافات ، وأشياء أخرى مختلفة ، كان يرمى الى الانتفاع بها اذا اضطر الى الهرب ، وكان قد دفنها تحت الثلوج ، خارج المخيم ، عند جذر شجرة من أشجار الصنوبر الباسقة . ولكى يحفظ مكانها فى ذاكرته ، حفر علامة على الشجرة

أخذ يورى يسير فى الطريق الذى خطته الاقدام على الثلوج ، ميمما شطر كنزه المدفون . وكان القمر مكتملا ، والليلة صافية الاديم ، وقد تجنب الحرس، اذ كان يعرف أين يكمنون ، وما أن وصل الى شجرة الزيزفون ، حتى لمحه أحد الحراس من بعيد ، فصرخ به ، وركض على زحافتيه ، حتى صار أمامه ، فوقف منتصبا ، وحدق فيه ، ثم قال :

ـ مكانك ، لا تتحرك ، والا أطلقت عليك النار ، من انت ؟ قل كلمة السر ؟

ـ ماذا أصابك أيها الرجل ؟ ! الا تعرف من أنا ؟ ! الا تعرف طبيب المعسكر ؟ الدكتور زيفاجو !

ـ أعتذر أيها الرفيق زيفاجو ، لقد غبت عن ذهنى ، ولاأقصد تجريحك ... لا يهمنى ان كنت زيفاجو ، أو غيره ... لن أدعك تتقدم قيد أنملة ... والاوامر يجب أن تحترم

ـ على رسلك ... كلمة السر هى « سيبيريا الحمراء » وجوابها : « ليسقط الدخلاء »

ـ حسنا ، لك أن تذهب الآن ، ولكن ماذا يدعوك الى الحضور الى هذا المكان فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟! هل تعود مريضا ؟

ـ لم أستطع أن أنام ، بسبب الظمأ ، فخطر لى أن أخرج لاتنسم هواء الليل العليل ، وأروى ظمئى ببعض الثلوج . وقد استهوتنى شجرة الزيزفون ، بأثمارها الناضجة المثلجة ، فرأيت أن أقصدها ، واحصل على بعض ثمارها

ـ انك تخرف أيها الرجل ، هل تثمر الاشجار فى الشتاء ؟! اننا نحاول ، منذ سنوات ثلاث ، أن نجعلكم تعقلون ، ولكنكم تصرون على التمسك بخرافاتكم وأوهامكم ! ... اذهب أيها المعتوه ، لتجمع ثمارك ... ماذا يهمنى أنا من هذا ؟ !

واستدار الحارس ، وعاد بمثل السرعة التي جاء بهـا ، فانتصب على زحافتيه ، وأخذ يصفر ، وهو يسير فوق الثلوج ، حتى اختفى خلف الشجيرات والاعشاب

وعلى ضوء معالم الطريق ، وصل يورى الى شجرة الزيزفون ، فوجد أن جزءا كبيرا منها كسته الثلوج ، وقد تجمدت ثمارها وأوراقها ، وقد تدلى بجانبه غصنان من أغصانها ، أبيضان ، فبعثا فى نفسه ذكريات جعلت الدفء

والحنان يسريان فى بدنه ، اذ تذكر ذراعى لارا البضتين ، فجذب الغصنين الى صدره ، مما أدى الى سقوط الثلج فوقه ، وفى ذهول ، دون أن يعى مايقول ، أخذ يتمتم :

ـ سألقاك أيتها الحبيبة الفاتنة ... يا معبودتى ... أنت كل شيء لى فى الحياة !

وتوغل بعيدا فى الغابة ، وقد سطع القمر فى أوج اكتماله ، والليل صاف ، والنسيم عليل ، حتى وصل الى الشجرة التى يقصدها ، فاستخرج كنزه ، وغادر المعسكر



الفصل الثانى عشر

أمام منزل التماثيل

ولى الشتاء ، ورحل الجيش الابيض عن مدينة يوريانتين ، تركها للحمر ، فلم يعد يسمع قصف المدافع ، كما حقنت الدماء وزال بعض الشيء ، القلق الذى ينتشر فى أوقات الحرب ، ومع ذلك ظل الناس فى حذر

وكنت تقرأ على الجدران اعلانا عسكريا هذا نصه :

« على من يستوفى الشروط ، أن يتقدم للحصول على بطاقات العمل ، والرسم المقرر للبطاقة خمسون روبلا ، ويمكن الحصول عليها ، من مكتب العمل ، الكائن بشارع أكتوبر رقم ١٥ غرفة رقم ١٤٥ ، بيوريانتين »

والى جواره اعلان آخر :

« بالمدينة مؤن من الغذاء وفيرة ، كان قد اختزنها البرجوازيون ، ليشيعوا الفوضى ، ويبعثوا الذعر فى النفوس »

وفى ذيل هذا الاعلان كتبت هذه العبارة :

« يقتل رميا بالرصاص ، كل من يضبط عنده طعام مخزون »

ويقول اعلان ثالث :

« يصرح للذين لا ينتمون الى طائفة المستغلين ، بالانضمام الى جماعة المستهلكين ، ويمكن الاطلاع على كافة البيانات والتفاصيل ، بمكتب العمل ، بشارع اكتوبر رقم ١٥ غرفة رقم ١٤٥ بيوريانتين »

وذيل هذا الاعلان بتحذير للجنود السابقين ، هذا نصه :

« يتحتم على كل جندى سابق أن يسلم سلاحه ، ويعاقب بأشد العقوبات ، كل من يحتفظ بسلاح ، بدون ترخيص جديد ، كما ينص على ذلك القانون . ويمكن الحصول على الترخيصات الجديدة من مكتب اللجنة الثورية العسكرية ، شارع أكتوبر رقم ١٦ غرفة رقم ٤٨ بيوريانتين »



اندس رجل نحيف ، يرتدى زيا غريبا ، عليه لطخ من الطين ، وقد حمل على كتفه كيسا ، واستند الى عكاز بين الجماعة الواقفة أمام البناء . وتخللت لحيته بعض شعيرات بيضاء ، بعكس شعر رأسه المشعث الطويل ، فقد ظل على لونه . هذا الرجل كان يورى ، وقد تخلى عنه معطفه الفرو ، لعله أخذ منه قسرا فى الطريق ، أو ربما قايض عليه بطعام يتبلغ به . أما السترة التى ارتداها ، فكانت ضيقة ، ممزقة ، ذات كمين قصيرين ، مما ينبىء بأنها ليست سترته

وكان بالكيس الذى حمله فوق كتفه ، بعض كسر من الخبز ، أغلب الظن أن أحدا جاد بها عليه فى الطريق ، كما كانت به قطعة من اللحم المقدد . وقد وصل يوريانتين منذ فترة قصيرة ، ولكنه قضى أكثر من ساعة ، وهو يجوب ضاحية المدينة ، الى أن وصل الى شارع التجار

لقد بلغ منه الضعف منتهاه ، وأنهكت الرحلة قواه . وتوقف عن السير عدة مرات ، وهو يقاوم رغبة ملحة ؛ فى الركوع ، وتقبيل الارض التى يسير فوقها ، والتى كان قد يئس من أن عينه ستقع عليها مرة ثانية ، وقد غمره الآن مرآها بالسعادة

حاذى يورى فى معظم رحلته ، سيرا على الاقدام ، خطوط السكة الحديدية ، التى كانت تالفة ، تكسوها الثلوج ، فكان يجتاز قطارا بعد آخر ، من القطارات التى هجرها الجيش

الابيض ، فتوقفت عن السير ، لنفاد الوقود ، وانهزام كولتشاك ، وهبوب العواصف الثلجية . وقد امتدت هذه القطارات ، ساكنة فى أماكنها ، الى مسافة عدة أميال ، واتخذت بعض العصابات المسلحة من قطاع الطريق ، بعض هذه القطارات حصونا ، كما اتخذها بعض المجرمين ، والمطاردين السياسيين ، مخابىء لهم . وصار عدد من تلك القطارات قبورا لضحايا التيفوس والصقيع ، اللذين كانا يجتاحان القرى ، فيقضيان عليها

كانت هذه الفترة خير مصداق للمثل القائل « الانسان غريم الانسان » ، فقد كان المسافر يهرب من زميله ، والغريب يفتك بالغريب ، بل بلغ الامر الى درجة أن أكل الناس فيها بعضهم بعضا ! فقد انمحت القوانين الاجتماعية والمدنية ، وأصبحت الكلمة العليا لقانون الغابة

وكان يورى يتجنب بحذر ، ما يلمحه من حين لآخر ، من أشباح تسعى بين الحفر ، أو تتلمس الطريق ، ولكن تراءى له أن بعضها كان وديعا أليفا ، وخيل اليه أنه سبق أن التقى بها فى معسكر الانصار . وكان مخطئا فيما خيل اليه . ولكن حالة واحدة منها لم تفت عليه ، وصدق فيها ظنه ، اذ لمح ذلك الفتى ، الذى ظهر بين الثلوج التى حجبت بعض العربات ، ليقضى حاجة ، ثم يعود ، فعرف فيه واحدا من جماعة اخوان الغابة ، عرف فيه جاليولين ، الذى أشيع أنه قتل رميا بالرصاص ، فى حين أنه كان قد جرح ، وأغمى عليه ، وعندما أفاق ، وعاد الى رشده ، أخذ يزحف ، حتى اختبأ فى الغابة ، وبقى فيها حتى شفى من جراحه . وهاهو ذا الآن ، يحمل اسما مستعارا ، فى طريقه الى كريستوفوزدفيجنسك ، يتخذ من القطارات ستارا ، ويختفى عن الانظار اذا أبصر انسانا

وكانت هذه الحوادث والمناظر أغرب مما يتصوره الانسان ،

وكأنها صور لحياة تجرى فى كواكب اخرى ، ساقها القدر الى كوكب الارض ، ولذلك ، فان الطبيعة وحدها هى التى تظل حفيظة على التاريخ

وينتهى كل يوم ، بمساء هادىء ، يخيم عليه لون وردى ، وتزينه شجيرات ناعمة ، وجداول يغشاها الصقيع ، بين ضفاف من الثلج ... هكذا ستكون أمسيات يوريانتين ، ناعمة كالزهر

وخطر ليورى أن يقرأ الاعلانات العسكرية ، الملصقة على جدران منزل التماثيل ، على أنه ، بقوة لا ارادية ، أخذت عيناه تحدقان فى نوافذ الطابق الثالث من المنزل المواجه . انها كانت نوافذ الغرف التى حشد فيها أثاث السكان السابقين . أما الآن ، فرغم الصقيع الذى انتشر عليها ، فان الزجاج لاح شفافا ، وقد أزيل عنه الطلاء الابيض ، فهل عاد اليه سكانه السابقون ؟ أم ترى ، هل نزحت لارا عنه ، وسكنه آخرون ، فأعادوا ترتيبه ؟ !

ولم يحتمل يورى تلك الشكوك والهواجس ، وفى ثبات وعزم ، عبر الشارع ، ودلف الى المنزل ، وارتقى السلم الامامى ولم يكن غريبا عليه ، بل أكثر من ذلك كان عزيزا عليه . فكم جالت ذكرياته بفكره فى المعسكر ، فكان يذكر شكل الدرجات ، بل عددها ، وكان ينفذ ببصيرته الى المخزن الكائن فى الطابق الارضى ، حيث تكدست الكراسى المحطمة . لقد كانت جميعها فى أماكنها ، لم تنقص ، ولم تتحرك ، وجال بذهن يورى أن يقبل السلم شكرا وامتنانا ، لاحتفاظه بالماضى وذكرياته

وكان الجرس الموجود قد تحطم ، فى أخريات أيام تردده على المنزل ، قبل أن يلقى الانصار القبض عليه ، ورغم ذلك ألحت به رغبة أن يقرع الجرس ، ولكنه لاحظ وجود قفل فى الباب القديم يتدلى من حلقتين ذواتى نقوش ، بقيت آثارها ،

وقد دله ذلك ، على مدى التخريب ، الذى طرأ على المكان ، أثناء غيبته

وشعر يورى من أعماقه ، أن لارا وكاتنكا ، ليستا فى المنزل ، بل لعلهما غادرتا يوريانتين ، وربما ليستا على قيد الحياة الآن • وقد وطن نفسه على احتمال أسوأ الفروض • وأراد أن يبحث عنهما فى كل شبر من المنزل ، بأن يتناول المفتاح من الثغرة التى بالجدار ، حسبما كانت قد أفهمته لارا ، وطرق الحائط بقدمه ، حتى يهرب ما قد يكون بالثغرة من فئران . وكان يائسا من أنه سيجد شيئا ، لان الثغرة كانت مسدودة بحجر ، فرفعه ، وأدخل يده فى الثغرة ، ويا للعجب مما وجد ! وجد رسالة ومفتاحا ، وكانت الرسالة من الطول بحيث شملت صفحة كبيرة ، فتناولها وذهب الى النافذة بجوار المدخل ، ولدهشته ، وجد أن الرسالة موجهة اليه ، ففضها ، وراح يلتهم كلماتها :

« رباه ، يا لسعادتى ! علمت أنك لاتزال حيا ، وأن السلامة رافقتك فى عودتك ، رآك أحدهم بالقرب من المدينة ، فهرول يحمل الى البشرى ولعلك ستقصد راسا الى فاريكينو ، لذلك جعلتها وجهتى ، أنا وكاتنكا . على أننى من باب الاحتياط ، تركت المفتاح فى مكانه المعهود . انتظرنى ، ولا تذهب ، ستجد اننى أشغل الغرف الامامية الآن . وستجد أن المسكن يكاد يكون خاويا ، فقد اضطرتنى الظروف لبيع بعض الاثاث . وقد تركت لك بعض الطعام ، أغلبه من البطاطس . كل كيفما تشاء واحتفظ بما قد يتبقى ، اننى فى دوامة من الفرح تكاد تذهب بعقلى »

انتهت الصحيفةعند هذا ، ولم يتنبه الى ان تتمةالرسالة على الصحيفة الاخرى ، فقبل الرسالة ، ثم طواها ودسها فى جيبه مع المفتاح . وغمرته فرحة طار لها قلبه ، ولكنها امتزجت

بشعور من الالم الحاد ، فقد استنتج من ذلك ، أن لارا ذهبت الى فاربكينو ، لعلمها بأن عائلته ليست هناك ، وسرعان ما لفه الحزن الشديد من أجل عائلته ، لماذا لم تنوه عنها فى رسالتها ؟ ولماذا لم تخط حرفا واحدا عن مصيرها كأنها ليست فى عالم الوجود ؟!

وابتدأ الظلام يخيم على الكون ، فأراد أن يقرأ الاعلانات الملصقة فى الشوارع ، على ضوء النهار الذى بدأ يخبو ، اذ كان لزاما عليه أن يلم بالاحكام والقوانين والتعليمات المفروضة حاليا ، فربما يكلفه جهله بها حياته ، فاستدار ، دون أن يدخل المنزل ، وهو لا يزال يحمل الكيس فوق كتفه ، وهبط درجات السلم ، وعاد الى الشارع ، والى الجدران المليئة بمختلف الاعلانات العسكرية



انتهى يورى من قراءة الاعلانات ، وشعر أن رأسه يدور ، ثم أغمى عليه ، وسقط على رصيف الشارع . وأسعفه بعض الناس حتى أفاق ، ونهض واقفا ، وعرضوا عليه مرافقته الى المكان الذى يقصده ، ولكنه شكرهم بلطف قائلا :

ـ ليس أمامى الا أن أعبر الشارع

ثم دلف الى المنزل للمرة الثانية ، على أنه فى هذه المرة ، فتح باب مسكن لارا ، وكان الضوء لايزال ينبعث فى البهو ، فسره ذلك كثيرا

وأثار فتح الباب خليطا من الضجيج ، اذ سقطت بعض الاطباق ، وأخذت الفئران تقفز من مكانها الى الارض ، وتفر مذعورة ، ولعل هجرة السكان ، وهدوء المكان ، هيأ لها الجو لتتناسل ، فشعر يورى بالاشمئزاز ، وحار كيف يتصرف ، فقرر أن يكمن باحدى الغرف ، ويحكم اغلاقها عليه

وذهب الى الجزء الذى لا يعرفه من المسكن ، فعبر ممرا مظلما انتهى به الى منزل التماثيل ، فرأى جمعا من الناس ، يقرءون الاعلانات

وكان ضوء الغرفة هادئا ، وشعر بالبرودة تسرى فى ارجاء حجرة نوم لارا

وعن له قبل ان يستقر أن يحلق لحيته ويقص شعره . وكان قد بحث من قبل عن دكان حلاق فى الجزء الاوسط من المدينة حيث كان يعهد وجود تلك الدكاكين . ولكنه وجد جانبا منها فارغا من شاغليه ، ووجد البعض الآخر وقد تحول الى اغراض اخرى . والعدد القليل الباقى من دكاكين تلك المهنة مغلق الابواب . ولو كان لديه موسى لحلاقة لحيته لما احتاج الى حلاق . وكان فى وسعه أن يستغنى عن الموسى بمقص ، ولكنه عبثا حاول العثور على مقص بين أمتعة لارا التى قلبها رأسا على عقب

وخطر له عندئذ أن يقصد محل حياكة ملابس كان يعرف موضعه فى شارع اسباسى . فان وفق فى العثور عليه فربما اقرضه صاحبه مقصا يقص به شعره ولحيته

وأسعده الحظ أن يجد دكان الحياكة قائما حيث يعهده ، وللدكان نافذة كبيرة تطل على الشارع . فيستطيع السائر أن يرى العاملات وهن فى الداخل . وكان عددهن كبيرا . اذ انضمت الى الخياطات المحترفات جملة من العجائز الممن بسرعة بمبادىء تلك الحرفة ، والتحقن بالعمل ليصبح من حقهن الحصول على بطاقات العمل التى تضمن لهن الانتساب للطبقة العاملة . وصار المحل الآن متخصصا فى صنع الثياب العسكرية المختلفة ، ولا سيما المعاطف المبطنة بالفرو

وطرق يورى زجاج النافذة الكبيرة وأشار بيديه معبرا عن رغبته ، فى الدخول . فأخذت العاملات يشرن اليه بأيديهن

ايضا أن المحل لا قوم الآن بقبول الطلبات الخاصة بالافراد . ولكنه ألح فى طلب الدخول ، فأشرن اليه بما يفيد أنهن مشغولات وعليه أن ينصرف ، فجعل يحرك اصبعيه مقلدا حركة المقص ، فخطر لهن انه يقلد حركاتهن على سبيل السخرية منهن . ويضاف الى هذا أن رثاثة ثيابه وطول شعره ولحيته أوحيا اليهن أنه مصاب باختلال فى قواه العقلية فانفجرن ضاحكات عليه وهن يومئن اليه كى ينصرف

واخيرا خطر له أن يدور ويدخل من الفناء الخلفى للدار ويطرق الباب الخاص بالعاملات

وفتحت له الباب امرأة عجوز عابسة الوجه ترتدى ثوبا أسود ، ويبدو من نظراتها أنها رئيسة العاملات . وبادرته بقولهـا :

ـ ما اشد لجاجتك ! لماذا تطرق بابنا ؟ قل بسرعة ماذا تريد !

ـ كل ما اريده مقص . فلحيتى وشعرى كما ترين . ولم اجد دكان حلاق فى المدينة كلها . فلو أعرتنى المقص لاستطعت أن أفرغ به من اصلاح شأنى فى مدى دقيقة واحدة ثم أعيده اليك وأكون شاكرا لك جدا

وجعلت المرأة العجوز تجيل فيه طرفها وقد خطر لها أنه مجنون ، وأدرك ذلك فأخذ يفسر لها الامر قائلا :

ـ المسألة أنى وصلت الآن من سفر طويل جدا . ووجدت منظرى هكذا غير لائق . فخطر لى أن أقوم بهذا العمل بنفسى ما دامت جميع دكاكين الحلاقة مغلقة . ولما كنت محتاجا الى مقص ، وليس تحت يدى مقص ، لم يعد أمامى سوى حـل واحد هو أن اقترض مقصا . ولهذا أطلب منك ان تعيرينى مقصا من مقصاتكن مدة دقيقة واحدة

فهزت العجوز رأسها ، وقالت له :

ـ وهو كذلك . سأتولى بنفسى قص شعرك . ولكن ينبغى أن أحذرك انك اذا كنت ترمى من وراء قص شعرك أن تتخفى وتتنكر لاسباب سياسية ، ففى هذه الحالة سنبلغ ضـــدك السلطات لاننا لا نستطيع أن نجازف برقابنا من أجلك . والآن أدخل !

وأدخلته الى غرفة ضيقة وأجلسته فوق كرسى ودست تحت ذقنه فوطة كبيرة على طريقة الحلاقين . وخرجت لتعود بعد قليل وفى يدها مقص ومشط ومسن وموسى . فارتسمت الدهشة على وجه يورى . وعندئذ هزت المراة العجوز رأسها، وقالت :

ـ لا تعجب ، لاننى مارست جميع أنواع الحرف وتقلبت بينها . وكنت فى فترة ما من حياتى حلاقة . وكان من الضرورى أن أتعلم قص الشعر وحلاقة الذقون عندما التحقت ممرضة بالجيش أثناء الحرب . والآن فلنقص شعر هـــذه اللحيــة أولا ، ثم نحلقها بالموسى

ـ شكرا لك وأرجو أن تقصرى لى شعر رأسى جـــدا . وآسف لاننى أتعبتك ، ولم يحملنى على ذلك الا أننى وجدت جميع دكاكين الحلاقين مغلقة

ـ لماذا تصر على التظاهر بالجهل وأنت رجل مثقف ؟ ان وحدة الزمن الآن ليست الاسبوع بل العقد . فالشهر الآن ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أيام . واليوم هو السابع عشر من الشهر . ويوم عطلة الحلاقين هو كل يوم يقع فيه الرقم ٧ !

ـ صدقينى أنى لم أكن أعلم شيئا من ذلك . لانى كما قلت لك وصلت لتوى من سفر طويل . فلماذا أدعى أى شىء أو أتظاهر بالجهل ؟

ـ لا تتحرك والا جرحتك . تقول انك وصلت لتوك . فكيف وصلت ؟

ـ جئت سيرا على قدمى !

ـ على الطريق الكبير ؟

ـ على الطريق الكبير أحيانا . وبمحاذاة الخط الحديدى أحيانا أخرى

ـ وهل جئت فى مهمة عائلية ؟

ـ كلا ، فانى كنت أعمل مفتشا لبنك من بنوك التسليف التعاونية . وقد أرسلونى فى مهمة تفتيشية الى شرق سيبيريا. فلما انتهت مهمتى هناك لم أستطع العودة لان جميع القطارات معطلة أو مدفونة فى الثلج كما تعلمين . فلم يكن أمامى سوى السير على قدمى . وظللت أمشى ستة أسابيع متوالية . ولن أستطيع ان أصف لك ماشاهدته !

ـ لو كنت فى مكانك لما ذكرت لاحد ما شاهدته . فمن الخير أن تلزم الصمت . لا تقل أى شىء لاى أحد . لا تقل انك مفتش فى بنك تسليف . أفضل من هذا أن تقول انك طبيب أو معلم فى مدرسة . والآن وقد فرغنا من قص اللحية ، فلنبدأ بحلاقتها وعندئذ ستبدو أصغر سنا مما كنت بعشر سنوات . سأذهب الآن لاسخن الماء

ولما تركته وحده أخذ يورى يتساءل بشدة

ـ ترى من تكون هذه المرأة ؟

وقد خيل اليه أنه رآها أو سمع بها من قبل . ولكنه عبثا حاول قدح ذاكرته

ودخلت عليه بالماء الساخن . وجعلت تقول له وهى ترغى الصابون على وجهه

ـ ان السكوت الآن أغلى من الذهب . لا تشر الى مهنتك القديمة بل قل انك طبيب أو معلم . أما مشاهداتك وملاحظاتك فاحتفظ بها لنفسك . لان الكلام فى هذه الامور غير مأمون العواقب فى هذه الايام

وفى ذلك المساء الربيعى عادت اليه نشوة حب الحياة . وشعر بالحنين الشديد الى الوجود ذاته ، بمعناه الكبير . وأحس أن لارا تمثل لديه كل مافى الحياة والوجود من قوة وجمال وحساسية وتعبير

أجل كان كل مارماها به فى أوقات الشك غير صحيح . فهو يحس الآن احساسا عميقا ان كل شيء فيها كامل لا يشوبه أدنى نقص

وامتلأت عيناه بدموع الاعجاب والتوبة ، وفتح باب المدفأة وأشعل النار ثم أخذ يقلب الحطب لتسرى فيه الشعلة . ثم جلس أمام الجذوة يتمتع بتراقص ظلال النار على وجهه ويديه ، فرده ذلك الدفء والضوء الى صوابه ، واشتدت عليه وطأة الحنين الى لارا فتاق الى ما يقربه منها فى هذه اللحظة

وأخرج من جيبه رسالتها . وكان قد طواها بطريقة جعلت الوجه الذى قرأه من قبل الى جهة الداخل . فاكتشف الكتابة التى لم يطلع عليها وبسط الورقة ثم راح يقرأ على ضوء النار المتراقص :

ــ أما أخبار عائلتك فى موسكو فمفادها أن تونيا ولدت أنثى أما بقية الامور فمن السخافة أن أسجلها هنا بالكتابة ، لأن الاولى أن تكون موضوع حديث بيننا حين نلتقى . والآن يجب أن أسرع لاعثر على جواد . ولست أدرى ماذا سأفعل اذا لم أجد مطية . فان وجود كاتنكا معى يجعل الموقف صعبا

وفى السطر التالى قرأ ما يأتى :

ــ أفلحت فى الحصول على حصان من سامديفياتوف

فقال يورى فى نفسه وقد اطمأن :

ــ لو كان لديها ماتخفيه لما ذكرت اسمه هنا

أعد يورى لنفسه طعاما واكل ، ثم غلبه النعاس ، فاتكأ

على مقعد ، وهو لا يزال فى ثيابه ، وما لبث أن استغرق فى نوم عميق ، تخللته احلام مزعجة

تراءى له فى الحلم الاول ، انه فى موسكو ، داخل غـــرفة ذات باب زجاجى ، كان مقفلا ، وقد أمسك بمزلاجه يجـذبه نحو الداخل . ووقف ابنه الصغير ساشنكا يرتدى لباس البحارة ، وقد أخذ يطرق الباب ، ويستغيث كى يدخـــل . وتراءى له شلال وراء ابنه ، يصيب الولد كما يصيب البـاب برذاذ مائه ، والشلال يهدر فى دوى هائل

وارتسم الرعب على وجه الابن ، وضاعت صرخاته وسط هدير الماء ، وتراءى ليورى أنه لمح الابن ، يحاول أن ينطـق بكلمة : « أبى »

واحس يورى ان قلبه يغوص بين جنبيه ، وود لو استطاع ان يضم ابنه الى صدره ، ويحتضنه ، ويفر به هاربا . على انه ــ لدهشته ــ وقد أخذت الدموع تنهمر من عينيه ، لم يحن قلبه لصرخات الابن ، وظل ممسكا بمزلاج الباب فى وجهه وكان ذلك تحت تأثير ذلك السلطان الطاغى ، الذى ملك عليه حواسه ، سلطان المرأة التى ينتظر قدومها .. لارا

وأفاق يورى من شدة انزعاجه ، فوجد نفسه غارقا فى بحر من العرق والدموع ، وقال لنفسه :

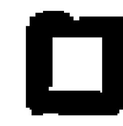
ــ اننى محموم ولا شك ، ولكنه ليس داء التيفوس على كل حال ، لعله نوع من الاعياء الشديد ، نتيجة ماعانيته من الارهاق المضنى . ترى هل يكتب لى الموت أم الحياة ؟ !

ولما كان فى حال لا يستطيع معها التفكير ، فقد غلبه النعاس مرة ثانية ، وعاد فاستغرق فى نومه

وفى حلم آخر ، فى فجر يوم من أيام الشتاء ، فى أحـــد شوارع موسكو ، فى تلك الســاعة المبكرة ، ورنين أجراس القاطرات يطن فى الآذان ، وقد اضفت المصابيح ضوءا باهتا

على الشارع الذى كسته الثلوج ، وتبين له أن ذلك قبل الثورة .. رأى فى نومه مسكنا كبيرا ، له نوافذ عديدة ،جميعها فى جانب واحد من المنزل ، الذى كان مكونا من طوابق ثلاثة ، وقد تدلت ستائر النوافذ حتى بلغت الارض . وتراءى له أيضا ان الناس كانوا نائمين فيه بكامل ملابسهم ، وكأنهم على سفر ، والغرف فى حال من الفوضى كأنها عربات قطار تكدست فيها الامتعة والركاب ، كما تناثرت فيها بقايا لحوم وفتات طعام . أما أحذية القوم الذين آواهم المنزل فقد صفت عند الباب

وكانت لارا مضيفة ذلك المنزل ، وقد ارتدت ثوبا عاديا عقد على عجل حول خصرها ، وأخذت تتنقل كالفراشة ، فى خفة وصمت من غرفة الى غرفة ، تقوم على شئون المنزل ، وكان يورى يقتفى أثرها خطوة خطوة ، يتمتم فى تذمر ، فيبعث فى نفسها الضيق ، ولكنها كانت لا تعيره انتباها ، ولم تأبه بتمتمته ، واكتفت بأن تنظر اليه من حين لآخر نظرة صامتة هادئة ، أو تنفجر فى ضحكة من ضحكاتها التى تتميز بها ، وكان هذا طابعها ، كما كان طابع الرابطة المتينة التى ظلت قائمة بينهما .. كم كانت رزينة ، بارعة الجمال ، تلك المرأة ، التى ضحى من أجلها بكل عزيز ، وآثرها حتى على زوجته وأولاده ، وقد بدا له أن الحياة بدونها .. لا شىء !!



لم يكن يورى هو الذى يبكى وينتحب ، بل كان باعثا آخر ، أشد وأقوى ، أشرق بين كوامن نفسه ، فأخذ يبكى اشفاقا على نفسه ، ويقول :

— انني مريض .. أشعر فى فترات بين اليقظة والنوم الهذيان ... انني مصاب بنوع من التيفوس ، لم يمر بى

تشخيصه فى كتب الطب .. ينبغى أن أتناول طعـــاما ، والا هلكت من الجوع

وحاول أن يرفع رأسه ، ولكنه شعر أنه عاجز عن الحركة ، فأسقط فى يده ، ثم أغمى عليه ، ونام

وعندما أفاق ، أخذ يتسـاءل :

ــ ترى كم مضى على من الوقت وأنا هنا نائم ؟! كم ساعة ؟ بل كم يوما ؟! لقد حللت هنا فى مستهل الربيع ، وأرى الآن النوافذ وقد كستها الثلوج ، حتى باتت الغرفة مظلمة

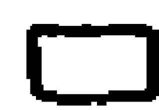
وسمع الفئران وهى تصطدم بالاطباق ، وتتسلق الجدران، ثم تقع على الارض ، فى أصوات مزعجة

واستسلم للنوم مرة أخرى ، ثم أفاق ، فوجد أن النــوافذ التى كستها الثلوج ، لمعت بضوء وردى ، كأنه شراب أحمر فى قدح شفاف ، فلم يعرف ان كان الوقت غسقا أو فجرا

وخيل اليه ذات مرة أن هناك صخبا وأصواتا قريبة منه ، فانتابه ذعر شديد ، خشية أن يكون قد جن ، فأخذ يبــكى ويشكو فى تضرع هامس ، ظنا منه أن السماء قد لفظته :

ــ لماذا تخليت عنى يا الهى ؟ أيها النور الابدى ، وألقيت بى فى ظلمات الجحيم ؟

ولكنه أدرك أنه كان فى حالة هذيان ، كما تبين له أن ثيابه قد استبدلت ، وأن جسمه قد غسل ، وأنه يرتدى مـلابس نظيفة ، كما تبين له أنه ليس مضطجعا على المقعد ، بل فى فراش نظيف آخر ، وأن لارا تقبع قريبا منه ، وقد مالت عليه فتشابك شعرها بشعره ، وامتزجت دموعها بدموعه ، فأخذته نوبة من الفرح ، أغمى عليه على اثرها



ولئن نفس على السماء أنها تنكرت له وضاقت به ، فهاهى

الآن حانية عليه وهو فى فراشه ، وقد فتحت له ذراعيها فى صورة ذراعى هذه الانثى ، فسكر رأسه واستولت عليه نشوة تردى فيها كما يتردى الانسان فى غيبوبة لا قرار لها

وكان بطبعه نشطا لا يحب الاخلاد الى السكينة ، فهو ان لم يكن يهتم بشئون المرضى ، أو يفكر أو يكتب ، انصرف الى شئون البيت يدبرها . أما اليوم فهو يستعذب التوقف عن كل عمل وكفاح وتفكير ، تاركا شأنه كله للطبيعة الى حين ، تنفذ فيه ارادتها الرحيمة العجيبة

وجاء شفاؤه وشيكا ، لان لارا قامت على تغذيته وتمريضه وغمرته بعنايتها الحانية . وكان حنانها رائعا ، وعنايتها مبذولة له على الدوام فى رفق لايوصف . وكل همسة هنية من همساتها غنية بالمعنى والاحساس . فكأنهما معا متحدان يكونان عالما قائما برأسه مفصولا متميزا عن سائر ما فى الدنيا . وكان حبها رائعا عظيما . يختلف عن الحب كما يعرفه معظم الناس . فمعظم الناس يمارسون الحب ، أو يحدث لهم الحب فيجربونه من غير أن يدركوا أو يلمسوا طبيعة تلك العاطفة العجيبة . أماهما فقد انفردا بمزية يندر أن تتفق للبشر الفانين . لان تسلل الحب الى وجودهما الفانى نفخ فيه نسمة من نسمات الابد ، فحول وجودهما الارضى الى نوع من الرؤيا أو الكشف الصوفى الذى يجعل البشر الهالك متحدا بعنصر الابد فى الكون كله

ــ عليك أن تعود الى عائلتك فورا . ولن أعمل على تأجيل عودتك . بمجرد أن يتم شفاؤك . وكنت أحب أن أعنى بتغذيتك وتهويتك أكثر مما فعلت . ولكننا نفتقر الى كل شىء وفى أثناء مرضك جردت المدينة من جميع المؤن وارسلت الى موسكو ، وكأن تلك العاصمة بالوعة لاقرار لها . ان جميع القطارات تستخدم لنقل الخبز ، والتذمر متفش بين الناس

بيد أن البوليس السرى يقمع كل شكوى بمنتهى الوحشية ومع ذلك لا أدرى كيف تستطيع السفر وأنت هزيل بهـذا الشكل ، جلدك ملتصق بعظامك . ولا سيما أن القطارات معدومة ، والسفر على قدميك معناه عجزك عن الوصول الى غايتك . فلعل من المستحسن أن تنتظر ريثما تسترد تمام قوتك ، وتبحث هنا عن عمل تخدم به السلطات السوفييتية المحلية عن طريق مهنتك . وسوف يسرهم ذلك . وتذكر أن أباك كان مليونيرا مات منتحرا وأن زوجتك ابنة رجـل من رجال الصناعة والاقطاع . وأنك شخصـيا كنت فى جيش الانصار وهربت . فليس من مصلحتك أن تبقى عاطلا عالة على المجتمع الكادح . ولاسيما أننى لست فى وضع أحسد عليه ، بل أنى أعيش على قمة بركان

ـ ماذا تعنين .. هل سبب ذلك سترلينكوف ؟

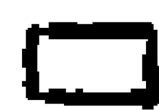
ـ انى فى خطر بسببه . فالآن بعد أن تم انتصار الجيش الاحمر يجب تصفية جميع الضباط الذين لا ينتمون للحزب ومن وصل منهم مثله الى القمة واطلعوا على الاسرار العليا ، يتهددهم خطر القتل للتخلص منهم كى تبقى القيادات كلها فى يد أعضاء الحزب الاصلاء . انها عملية تطهير أو حمام دم يتمشى مع خطة الحزب . وقد سمعت أنه هرب الى جهة الشرق وأنهم يبحثون عنه . وارجو الا تطرق هذا الموضوع ، فلو تكلمنا عنه كلمة أخرى لن أملك نفسى من البكاء !

ـ أكنت تحبينه كثيرا ؟ وهل مازلت تحبينه ؟

ـ انه زوجى يايورى . وهو ذو شخصية رائعـة بارزة مستقيمة . وقد آذيته بزواجى منه ، لا لاننى فعلت شيئـا بقصد الاساءة اليه ، فليس هذا صحيحا بالمرة . بل لانـه رجل غير عادى ، وأنا امرأة تافهة بالقياس اليه .

فارتباطى به عرقل حياته . ولكن فلنترك الآن هذا الموضوع

وأعدك أن نتحدث فيه بافاضة يوما ما فيما بعد . والمهم الآن أن يبحث كل منا عن عمل . نذهب اليه كل صباح ونقبض مرتبينا ملايين من الروبلات . نعم ملايين لان العملة القديمة ألغيت وأنت مريض ، ويقال ان قطارا مصفحا وصل محملا بالاوراق المالية الجديدة . شحنة تملأ أربعين عربة سكة حديدية على الاقل . والاوراق الجديدة مطبوعة على ورق كبير بلونين أحمر وأزرق ومقسمة الى مربعات صغيرة كطوابع البريد ، والمربع الازرق من هذه المربعات يساوى خمسة ملايين روبل . والمربع الاحمر يساوى عشرة ملايين



ـ خبرينى ما الذى أبقاك كل هذه المدة فى فاريكينو ؟ هل لك أحد هناك ؟

ـ كنت مع كاتنكا ننظف بيتك لاننى ظننتك ستذهب الى هناك أولا ، فلم أرد أن تراه على الحال التى كان عليها ، قذرا مشعثا

ـ أظنك لا تريدين أن تذكرى الحقيقة . لا بأس فلن أجبرك على البوح بشىء ، ولكن خبرينى أى اسم أطلقته تونيا على الطفلة

ـ سمتها ماشا على اسم والدتك

ـ وماذا أيضا ؟ حدثينى بكل شىء عنها

ـ أرجوك . ان الكلام عنها أيضا يدفع بى الى البكاء

ـ حسنا . فلنتحدث عن سامديفياتوف الذى أعارك الحصان انه شخص جذاب . أليس كذلك ؟

ـ جدا

ـ لابد أنكما صديقان حميمان

ـ بل انه يغرقنى برعايته وأفضاله . ولا أدرى ماذا كنت فاعلة لولاه

ـ ترى هل يتودد اليك كثيرا ؟
ـ باستمرار طبعا
ـ وانت ؟ هل تميلين اليه ؟
ثم لم يلبث أن استدرك قائلا بسرعة :
ـ آسف لتوجيه هذا السؤال اليكَ فليس من حقى أن أستجوبك
ـ لا بأس . أظنك تريد أن تعرف نوع العلاقة التى بيننا ، وهل تتجاوز حدود الصداقة . وجوابى على ذلك أن ما بيننا صداقة لا أكثر . صحيح أنه فعل الكثير من أجلى ، وأنا مدينة له بالكثير ، ولكنه لو قدم لى وزنى ذهبا ، بل لو ضحى بحياته نفسها من أجلى فلن يقربنى ذلك اليه . فهو من طراز من الرجال لا أستطيع أن أهضمه . طراز الرجل الواسع الحيلة ، المفرط فى ثقته بنفسه . وسامديفياتوف يذكرنى برجل آخر طالما أثار تقززى ومقتى كان السبب فى تحول حياتى هذا التحول كله
ـ لماذا تسخطين على حياتك هكذا . انك امرأة رائعة
ـ بل انى امرأة محطمة . فى حياتى على الاقل شىء محطم عرفت الحياة فى سن مبكرة جدا . عرفتها قسرا ، وعلى أبشع صورة من صورها وكان ذلك على يد رجل لا خلاق له ، كهل باهر المكانة والجاه شديد الثقة بنفسه استغل وضعه منا ونال كل ما اشتهته نفسه الممسوخة
ـ على رسلك . انى أستطيع أن أتصور أحزانك فى تلك الفترة النضرة من عمرك . وكيف شعرت بالمهانة والهوان . ولكن ذلك كله أمر مضى وانقضى وما فات مات . ولا ينبغى أن تقتلى نفسك حزنا وأسفا على ذلك الماضى . وانما أنا الذى ينبغى أن آسف لاننى لم أكن بجوارك فى تلك المحنة لأحميك . انى أكاد الآن أمزق شعرى غيظا وغيرة لان رجلا بهذه الحقارة

نال وطره منك . وما أعجب نفوس البشر ! أن غيرتى عنيفة قاتلة من انتهاك هؤلاء الحقراء لما أحبه وأقدسه . ولو أن رجلا أجله أحب امرأة أحبها انا لما حقدت عليه ، ولا غرت منه . بل كان شعورى منـــه اقرب الى الفهم والتآخى التراجيدى .
ولكن ليس معنى هذا أن أقاسمه المرأة التى احبها ، بل أتنزل له عنها وأمضى حزينا فى أسى وهدوء . فذلك شبيه بتنازلى عن عمل أحبه لفنان أقدر منى على ابداعه ! ولكن ليس هذا لباب الموضوع ، بل لبابه أننى لا أخالنى كنت حريا أن أحبك هذا الحب القوى الجارف لو لم تكونى منطوية على جراح وأسى وندم . فتلك كلها مشاعر انسانية تعطف القلب . أما الكاملون الذين لا يعرفون العثار والسقطات فأقل نصيبا من البشرية . أن البشرية ضعف وندم وشوق الى الكمال من وهدة النقص . وفى ذلك التطلع الى ذروة الكمال ، ونحن فى هاوية النقص يتجلى جمال الحياة وجلالها !

ـ جمال الحياة ؟ أعتقد أن الانسان لا يراه حقا الا اذا كانت له براءة عين الطفل . أما أنا فقد تدنست عينى وأنا طفلة . فرأيت المسخ ولم أعد قادرة على ادراك بهاء الجمال الصافى . وليس هذا كل شىء . لان تطفل هذا الرجل الوضيع الانانى المنحط على حياتى فى مستهلها جعلنى حين تزوجت رجلا فذا بمعنى الـكلمة يحبنى واحبه غير صالحة لنعمة تلك الحيـــاة الطاهرة . كنت كالجواد الاعرج لا يستطيع أن يساير جوادا سباقا . وعلى صخرة هذه الآفة الباطنية فى سريرتى تحطم زواجى

ـ رويدك . لا تحدثينى الآن عن زوجك ، لا لانى اشعر بالغيرة منه ، فأنا لا أغار الا ممن احتقرهم . ولكنى أريد اولا أن تحدثينى عن ذلك الرجل الآخر

ـ أى رجل آخر ؟

ـ عن ذلك الرجل الذى أفسد عليك زواجك . من هو ؟

ـ انه محام من أشهر المحامين فى موسكو . كان صديقا لابى . فلما توفى والدى وساءت حالتنا المالية مد يد العون الى أمى . وهو رجل أعزب ثرى . وأخشى أننى رسمت له صورة مفرطة فى السوء مع أنه رجل كغيره من الرجال فى مثل ظروفه . واسمه كوماروفسكى

ـ لماذا تحمرين خجلا هكذا ؟

ـ مجرد ذكر اسمه يثير اشمئزازى

ـ ان هذا الرجل نفسه كان محامى أبى . وكان رفيقه فى رحلته . وحمل والدى على الشراب والمقامرة لينسى ضائقته المالية ، وقاده الى الافلاس ثم دفع به الى الانتحار بالقاء نفسه من القطار . فهو المسئول عن يتمى الباكر يا لارا

ـ ما أعجب تصاريف القدر اذ يجمع بيننا بهذه الصورة ! لقد كان هذا الرجل شيطان الشؤم فى حياتك أنت أيضا ! لشد ما يقرب هذا بيننا يا يورى !

ـ ان حقدى اليوم عليه أشد ، لأنه الرجل الوحيد الذى أغار منه لانه كان أول رجل فى حياتك

ـ ولكننى لا أحبه ولم أحبه . أنى أمقته

ـ ان طبيعة المرأة حافلة بالغموض والمتناقضات . وليس من المستحيل أن يكون مقتك الشديد له سببا فى سيطرته على نفسيتك وخضوعك له أكثر من أى رجل أحببته طوعا واختيارا !

ـ ما أشد قسوتك ! ان تعبيرك فيه من القوة ما يجعله يبدو لى صوابا ، حتى لو لم يكن كذلك !

ـ لا تسيئى فهمى . انى أغار عليك من أدوات زينتك ، ومن ذرات الغبار . ومن العرق الذى يفرزه جسمك . وأغار من كومارو فسكى ، وكأنه مرض يهدد سلامتك . انى أحبك حب

الجنون يا لارا وأخشى ان يأتى هذا الرجل الرهيب الاسود كالموت وينتزعك منى . انه تصور جنونى ، ولكنى أحبك حبا لا يخضع لحدود العقل

وبعد صمت قصير استطرد قائلا :

ـ والآن يا لارا حدثينى عن زوجك

ـ رأيته آخر مرة من بعيد وهو يهم بركوب سيارته ومن حوله عدد كبير من الحراس . فلم أجد فيه تغيرا يذكر . بل رأيت وجهه الصبوح الصادق المستقيم الذى لا تشوبه ميوعة أو تصنع . ولكنى أدركت أيضا ان الصرامة والايمان بفكرة مجردة قد تسربا الى حياته وملامح وجهه . فأيقنت أنه أدمج شخصيته فى الايمان بفكرة عليا وسلطة تتولى تنفيذ تلك الفكرة ولكنها سلطة مميتة ستقضى عليه فى النهاية

ـ أريد أن تحدثينى عن علاقتك به قبل اندلاع الثورة

ـ اننى منذ طفولتى أرى فى الاستقامة مثلى الاعلى . وبعد أن سقطت زاد اجلالى للطهر . وكان هو نموذجا مجسدا للاستقامة والطهر . وكانت نشأته معى فى بيت واحد تقريبا . هو وجاليولين وأنا . وقد فتن بى منذ صباه وكان يكاد يفقد رشده حين يقع نظره على . وكنت أشعر بذلك وأتجاهل الامر رعاية له ، لأنه كان يخفى عاطفته الصبيانية فتفضحه نظراته وملامحه . وكان مختلفا عنى فى كل شىء فقررت بينى وبين نفسى أن أتزوجه عندما نكبر . وكان فى الحق فتى موهوبا ! أبوه كان عاملا بسيطا فى السكك الحديدية . ولكن الفتى استطاع بمثابرته ونبوغه أن يصل الى القمة فى دراسة الرياضيات ، والادب الكلاسيكى

ـ ولكن ما الذى أفسد زواجكما وانتما متحابان على هذه الصورة ؟

ـ ان الاجابة على هذا السؤال أمر عسير ولكنى سأحاول

أن أجيب . ان جميع أركان حياتنا قد تقوضت بحكم الثورة . انتهى كل معنى للنظـام والعائلة . ووجـد كل انسان نفسه متجها الى التكيف فى عالم جديد . فاستطاع هو أن يتكيف بايمانه كله وأن يمضى فى الطريق الجديدة بسرعة الصاروخ . أما أنا ، فقعد بى استعدادى حيث أنا

وسكتت برهة ريثما هدأت انفعالاتها قليلا ، ثم قالت :

ــ اسمع ! لو أن سترلينكوف ترك شخصيته الحالية وعاد كما كان ، باشا الذى أعرفه . ولو عادت عجلة الزمن القهقرى وحدثت المعجزة فرأيت نوافذ دارنا يشعشع من وصاوصهـا النور ، وقد أضيىء المصباح على مكتب باشا ، لو حدث ذلك وكانت دارنا تلك فى أقاصى الارض ، واستلزم منى الوصول اليها أن أزحف على ركبتى ، لما ترددت أن أزحف على ركبتى حتى أصل الى هناك ، لأن كل أنملة فى كيانى حرية حينئذ أن تلبى نداء ذلك الماضى . وما من شىء يستطيع أن يقف فى وجه تلك التلبية ، حتى أنت يا يورى . حتى حبنا هذا السمح الطلق السعيد . أوه ! عفوك لا أعنى هذا حقا ! لا تصدق !

ثم ارتمت فى أحضانه وهى تنشج بالبكاء . ثم لم تلبث أن تمالكت نفسها ومسحت ما ترقرق من عبراتها ، وقالت :

ــ أليس نداء الواجب هو الذى يدعوك أنت أيضا ويستحثك للعودة الى تونيا ؟ ما أتعس حظوظ بنى آدم وحواء ! ترى ماذا قسم لنا فى صفحة الغد وماذا نحن فاعلان ؟

وصمتت برهة أخرى حتى هدأت ، ثم استطردت :

ــ ولكنى لم أجب عن ســـؤالك ما الذى أفسد سعادة زواجنا . لقد فكرت فى ذلك طويلا فأدركت أن المسألة لا تتعلق بنا وحدنا ، وانما هى مسألة كثيربن غيرنا

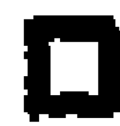
ــ قولى يا حبيبتى . فما أعدلك وأحكمك

ــ كان زواجنا قبل الحرب بسنتين . فما كدنا نقيم حياة

خاصة بنا ، وما كدنا نؤسس بيتنا حتى اندلعت نار الحرب . وفى بقينى الآن أن الوزر كله يقع على كاهل تلك الحرب ، فهى التى قوضت سعادة جيلنا كله حتى هذا اليوم . لأن هذه الحرب اتت بنظرة جديدة تباين تمام المباينة النظرة التى تربينا عليها فى اخريات القرن الماضى . فقد تربينا على الخضوع لاحكام العقل خضوعا لا جدال فيه . وكنا نؤمن أنه يجب على كل شخص أن يفعل ما يمليه عليه ضميره . فكانت حوادث القتل أمرا شاذا للغاية . لا نكاد نسمع بها الا فى الروايات البوليسية وفى الصحف بين الحين والحين . ولكننا لم نألف أن يحدث ذلك حقا ويكون جزءا فى حياتنا اليومية . ثم انقلبت موازين كل شيء فجأة فإذا القتل قد أصبح شعارا جماعيا يتردد وينفذ فى كل وقت وفى كل يوم ، باسم المجتمع وبأمره ، وبمكافأة منه . واضطرب كل شيء وانحل النظام فلا قطارات ولا تموين بل لا عائلة ولا أخلاق . وكان رأس البلاء الذى حل بوطننا « الروسيا » ضياع الثقة بالضمير وبالحس الأخلاقى المركب فى كل فرد ، وفشا الاعتقاد فى الجيل الجديد أن التقدم معناه الذوبان فى كتلة الجماهير كى يعيشوا بأفكار سواهم ، تلك الافكار التى حشيت بها أذهان هؤلاء الشبان الجهلاء حشوا . وهكذا انقضى ابتلاؤنا بقيصر ليبدأ بلاؤنا بالثورة . ولم يسلم من هذا التدمير الاجتماعى الاخلاقى أى شيء فى بلادنا ، حتى الاسرة . حتى الاحاديث العادية بين الافراد تجردت من الطيبة والانطلاق على السجية لتحل محلها خيلاء فارغة مفتعلة . فكل فرد الآن يرى من واجبـــه أن يتحذلق فى الكلام عن الموضوعات العامة والنظريات السياسية متشدقا بالمصطلحات الجديدة . وأحس باشا بالتغير الذى طرأ . لكنه اخطأ خطأ قاضيا حين ظن الداء خاصا بالنظام العائلى وحده . وبعائلتنا دون سواها ، فنفر من تلك الحياة . وذهب الى الحرب من

غير أن يطالبه أحد بالتطوع لانه ظن نفسه عبئا علينا فأراد أن يريحنا منه . وما أن بدأ فى الطريق الجديدة حتى سار فيها الى نهايتها وقد سيطر عليه الطموح الاحمق ، هذا الطموح الذى سينتهى به الى هلاكه . آه يارب ! لو كان بوسعى أن أنقذه !

ـ لشد ما تحبينه حبا عاتيا نقيا ! استحلفك بالله أن تستمرى فى حبه ، فلست أغار منه . ولن أفعل شيئا لأحول بينك وبين هذا الحب



واقبل الصيف ثم انقضى من غير أن يفطن أحد لقدومه وفواته ، وتماثل يورى للشفاء . والتحق بثلاثة أعمال مؤقتة على التوالى . وكان التدهور السريع فى قيمة العملة قد جعل الحصول على الرزق أمرا عسيرا

وكان ينهض كل صباح فى ساعة مبكرة ، فيغادر البيت الى المستشفى فيدخل من بابه الخلفى الى قسم العيادة الخارجية فى مستشفى الجيش ، وهنا كان عمله الرئيسى

وطريقه من مسكن لارا الى مستشفى الجيش تظلله الاشجار الوارفة . أما البيت الملاصق للمستشفى والمطل على حديقته فهو بيت زوجة أحد التجار واسمها جوريليادوفا . وواجهة بيتها مزخرفة بالرخام البراق على غرار منازل الطبقة العالية فى موسكو

وكان يورى يحضر أيضا ثلاث مرات على الاقل فى الشهر اجتماعات مجلس ادارة مصلحة الصحة العامة فى يوريانتين بشارع مياسكى

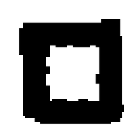
وفى الطرف الآخر من المدينة مؤسسة لامراض النساء كان قد أسسها والد سامديفياتوف تخليدا لذكرى زوجته . وقد سميت المؤسسة الآن باسم روزا لكسمبورج . وفيها كان

يورى يلقى محـــاضرات فى علم الامراض وفى مادتين أخريين يختارهما جزءا من الدراســة الجـديدة المختصرة فى الطب والجراحة

وفى الليل كان يعود الى البيت جائما تعبا ، فيجد لارا منكبة على مهنة المنزل تطهو وتغسل ، وقد تشوش هندامها وشمرت عن كميها ورفعت ثوبها الى فوق . فكان منظرها فى هــذه المباذل بالغ الروعة فى وقعه على فؤاد يورى ، ويراها حينئذ أجمل مما لو كانت فى قمة زينتها وقد ارتدت ثوب السهرة !

كانت لارا تطهو الطعام وتغسل الثياب وتمسح الارض بماء الصابون وتكوى الثياب وتصلحها لثلاثتهم . حتى اذا فرغت من ذلك كله لقنت كاتنكا درسا ، أو فتحت كتــابا لدراســة الثقافة السياسية الجـديدة كى تغـدو مؤهلة للتدريس فى المدارس التى أعيد تنظيمها على النظم الثورية

والحق ان اعجابه المتزايد بلارا والجو الذى أنشأته زاد من صعوبة موقفه ومن شـــدة الصراع الذى يعانيه ازاء واجب عودته الى زوجته . فكان ذلك الفصام النفسى مصدر عذاب شديد له ، فكأنه مصاب بجرح كلما أوشك أن يندمل عاد فانتكأ



ومرت أسابيع ، وفى يوم من أيام شهر أكتوبر قال يورى للارا :

ــ يبدو أننى سأضطر للتخلى عن وظائفى

ــ ولماذا ؟

ــ الحكاية القديمة المعادة . فى البداية يكون كل شىء على مايرام . « اننا نرحب بالمجهود المثمر الصادق وبالافكارالعلمية هيا قم بواجبك وكافح معنا » ثم يتضح بمضى الوقت أنهم

لا يريدون فى الواقع الا ثرثرة فارغة ، مدحا فى الثورة ، وذما فى العهد البائد . وقد سئمت نفسى ذلك كله . لأنى لا أصلح لهذا النوع من الاعمال ، مع اننى لست من أنصار العهد البائد طبعا . ولكنى لا أهضم القول بأنهم أبطال وبأننى برجوازى حقير كان يؤيد الطغيان . وأنا رجل أفسدته تعاليم الكاتب الفيلسوف نيــــقولا يفتش . أنه خـــالى وهـــو الـــذى بث فى نفسى أفكاره فنشأت أومن بالالهام والحــــدس . واستعملهما فى تشخيص الامراض . وهم يمقتون الحدس ولا يؤمنون الا بالتحليل العلمى الذهنى الخالص . وقد تجرأت فى محاضراتى على تمجيد طريقة الحدس التى أومن بهـــا وأتبعها . فاذا بجميع الطـــلبة يهتفون فى صوت واحد « مثالية مثـــالية برجوازية صوفية فلسفة شلنج » ولذا لابد من الاستقالة من مؤسسة الامراض النسائية ومن مصلحة الصحة العامة . أما المستشفى فسأظل فيه الى أن يطردونى

ـ لا قدر الله يا يورى ولكنى أرجوك أن تكون أشد حذرا فى المستقبل . فالنظام الجديد لابد فى بدايته أن يكون شديد التعصب لنوع معين من التفكير ، والانتصار للذهن . وبعد ذلك تأتى مرحلة القضاء على غير المخلصين للنظام الجديد . وفى هذه المرحلة تسود الجاسوسية وروح العنف . ونحن الآن فى بداية هذه المرحلة الثانية بدليل أن المحكمة العسكرية المحلية ضمت اليها عضوين جديدين من المجرمين السياسيين السابقين هما تيفرزين ، وانتيبوف ، وهما يعرفاننى معرفة جيدة ، وأحدهما عمى . ولكنى لم أخف على حياتى وحياة كاتنكا الا بعد انضمامهما لتلك المحكمة . فهما لا يتورعان عن هلاكنا ، وهلاك باشا يوما ما باسم العدالة الثورية العليا !

ولم يمر وقت طويل على هذا الحديث حتى تم تفتيش منزل الارملة جوريليادوفا القائم بجوار المستشفى . فعثرت

الحكومة على أسلحة وأوراق تدل على وجود منظمة معادية للثورة . واتسع نطاق الاعتقالات والتفتيش

فقالت لارا :

ـ لقـــد انتهى وقت الأمن والاستقرار ولابد أن يقبضوا علينا . وأنا لا يمكن أن اترك مصير كاتنكا للمقادير . فلابد من ايجاد حل للخروج من هذا المأزق

ـ فلنفكر قليـلا . ولكن هل فى وسعنا أن نتجنب هـذا المصير ؟

ـ أجل اننا لن نستطيع الافلات من المدينة ، فليس هناك مكان يمكننا أن نلجأ اليه . ولكننا نستطيع أن نتوارى قليلا عن الانظار بالانتقال الى فاريكينو مثلا . وهناك بيت مستعد لاستقبالنا . وستنقضى سنة على الاقل قبل أن يهتدوا الى وجودنا هناك. وسيكون سامديفياتوف هو همزة الوصل بيننا وبين المدينة . وسيساعدنا على الاختفاء . اجل ان فاريكينو موحشة خالية ، ويقال ان الذئاب تكثر هنـــاك فى فصـــل الشتاء . ولـكن الرجال الذين من طراز تيفرزين وانتيبوف هم أضرى واخوف من الذئاب

ـ لست أدرى ماذا أقول لك . ولكنك كنت تحثيننى على السفر الى موسكو بلا امهال . والسفر الآن ايسر . فالتدقيق على أوراق المسافرين قل عن ذى قبل . وخف اطلاق الرصاص على الناس لادنى شبهة بين المسافرين . لانهم تعبوا من هذا العنف الدامى . وأنا أشعر بالقلق لعدم ورود رد على رسائلى من موسكو ، فمن المستحسن أن أذهب الى هناك لأرى بنفسى ماذا حدث لهم . وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أوافق على ذهابك الى فاريكينو الموحشة المنعزلة بمفردك

ـ كلا . هذا فعلا مستحيل

ـ اسمعى ! خطرت لى الآن فكرة رائعة

ــ ما هى ؟
ــ اننا نرحل معا نحن الثلاثة الى موسكو !
ــ أتقول نرحل نحن الثلاثة الى موسكو ؟ هذا جنون ! فماذا أستطيع أن أصنع فى موسكو ؟ يجب أن أظل فى هذه المنطقة ، فهنا سوف يتقرر مصير باشا . وقد يتضـح فى وقت من الاوقات أنه فى حاجة الى
ــ ولكن يجب أن نفكر فى كاتنكا أيضا يالارا
ــ تحدثت فى هذا الموضوع مع سيما ، فهى تأتى لزيارتى أحيانا
ــ أعلم ذلك . فقد رأيتها هنا مرارا
ــ انك تدهشنى . فلو كنت فى مكانك لوقعت فى غرامها ! انها رائعة الجمال ذكية مثقفة صافية النفس طيبة العشرة
ــ أختها الخياطة هى التى قصت لى شعرى وحلقت لى ذقنى يوم وصولى
ــ ولهما شقيقة ثالثة موظفة فى المكتبة العامة . وثلاثهن مجتهدات مخلصات . ولذا فكرت اذا ألقى القبض عليك وعلى أن أطلب منهن العناية بأمر كاتنكا
ــ فكرة لا بأس بها ، ولن نكون بحاجة الى شىء من ذلك باذن الله
ــ ويقال أن سيما فتاة غير متزنة العقل . وهى فعلا غير طبيعية بسبب ذكائها الخارق وسعة اطلاعها . وأنتما متشابهتان فى هذه الصفة وفى وجهات نظر كثيرة . وكم يسرنى أن تقوم على تربية كاتنكا



وفى يوم عطلته ذهب يورى الى المحطة ولكنه لم يفز بطائل ، وعاد الى البيت منهوك القوى . وكان من عادته فى يوم العطلة أن ينام ساعات تكفيه لايام العمل التسعة التالية . لان الاسبوع

أصبح مؤلفا من عشرة أيام

ووجد سيما عند لارا . ولكنه لم يظهر نفسه لهما لرغبته فى الراحة ، فتمدد على الفراش وأخذ يصغى الى حديث سيما فى الحجرة الاخرى وهى تعرض خواطرها الفلسفية على لارا . ولارا تصغى وتناقش وهى منهمكة فى الحياكة

وأعجبه أن يجد آراءها النافعة مقتبسة من خاله نيقولاى وفلسفته . ولكن كان من الواضح أن ذكاءها متوقد وموهبتها فى الفهم والبيان عظيمة

ونهض من مكانه فاقترب من النافذة المطلة على الفناء ، وهى مجاورة للنافذة الاخرى التى يسمع منها حديث المرأتين . وكانت الظلمة قد بدأت تخيم على الفناء . ثم ظهر عصفوران راحا يبحثان فى الفناء عن مكان يأويان اليه . فقال الدكتور فى نفسه :

ـ طائر العقعق ينبىء بنزول الثلج قريبا

واذا به يسمع سيما تقول فى الحجرة الاخرى :

ـ طائر العقعق بشير بوصول أنباء جديدة . سيطرق بابك يالارا ضيوف أو يصلك خطاب

وبعد قليل رن جرس الباب فخرجت لارا من وراء الستار ، وأسرعت الى الباب ففتحته . وسمعها يورى تتحدث الى جلافيرا شقيقة سيما التى كانت قد قصت له شعره

ـ جئت تبحثين عن أختك ؟ انها هنا

ـ لم أحضر لهذا السبب ، وان كان لا مانع طبعا من عودتنا الى البيت معا . فقد جئت لاحمل رسالة الى صاحبك فمن حسن حظه أننى اشتغلت بعض الوقت فى مصلحة البريد . والله أعلم كم بدا تداولت هذه الرسالة . لانها قضت فى الطريق من موسكو الى هنا خمسة أشهر ولم يستطيعوا معرفة شخصية المرسل اليه . وأخيرا بدا لهم أن يسألونى . وبالطبع

عرفته فقد قصصت له شعره ذات مرة

وكانت الرسالة من تونيا . وهى رسالة طويلة تضم جملة أوراق موضوعة فى ظرف بال فتحه عمال مكتب البريد

وتحت ضغط المفاجأة لم يستطع الدكتور ان يكيف الموقف فهو لا يدرى كيف ناولته لارا الرسالة ففضها بيد مرتعشة وبدأ يقرأ . وأحس احساسا غامضا أنه لم يزل فى يوريانتين فى بيت لارا . ولكن الايغال فى القراءة مسح ذلك الادراك الضعيف للواقع الذى حوله . وعند خروج سيما حيته مودعة فرد عليها من غير وعى

وكانت الرسالة التى كتبتها انتونينا تجرى على هذا النحو :

« رزقنا بطفلة جديدة سميناها ماشا تيمنا باسم والدتك . وتم ترحيل عدد كبير من الاساتذة البارزين ذوى الميول الاشتراكية ومن بينهم خالك نيقولاى ووالدى . وهى كارثة كبرى ، ولا سيما وأنت غائب . ولابد من ترحيلنا نحن أيضا لان العائلات تتبع فى المنفى رجالها . ولكننا نحمد الله لانهم اكتفوا بالنفى . ففى مثل هذه الظروف قد تكون الاجراءات أعنف من هذا بكثير . ولو كنت هنا لرحلنا معا . ولكن من يدرى أين أنت الآن ؟ ولكنى سأرسل هذه الرسالة على عنوان أنتيبوفا لتسلمها اليك ان كانت تعرف أين أنت . ومما يضايقنى أن تصريح السفر الى المنفى ، وهو تصريح عائلى ليس من المضمون أن يشملك أنت أيضا عند العثور عليك . وأنا لم أيأس بعد من وجودك على قيد الحياة . فان قلبى المحب يؤكد لى ذلك وأنا أثق تمام الثقة بما يحدثنى به قلبى من أننا سنجتمع مرة أخرى فى صعيد واحد

« ان مشكلتى التى أعانى منها يا يورى اننى احبك وأنت لا تحبنى . ان هذه الحقيقة تحيرنى وتعذبنى لانى لا أجد لها مبررا . فكلما نظرت فى أعماق نفسى واستعرضت حياتنا معا

لم أستطع العثور على تفسير مقنع لهذه الظاهرة ولا أذكر أنني فعلت شيئا أستجلب به ذلك الشقاء على نفسي . فأشعر أنك تظلمني وكأنك ترى صورتي فى مرآة مشوهة !

« أما أنا يايورى فأحبك ! ليتك تعلم مبلغ هذا الحب ! أحبك على علاتك وشذوذك . أحبك لما هو صالح فيك ولما هو طالح على السواء . أحبك لسمو أفكارك التى تكسب وجهك بهاء لولاه لما كنت فى مرأى العين بهذا الجمال ! ان ذكاءك الخارق طغى على ارادتك الضعيفة ولكننى أحب هذا فيك

« سنرحل غالبا الى باريس . وساشا كبر قليلا . وكلما تذكرناك بكى . وهأنذى أيضـا أبكى . ولذا لن استطيع مواصلة الكتابة . فيجب أن أودعك الآن واباركك وانا لا ادرى كم سنة طويلة ستنقضى قبل أن نلتقى . انى لا ألومك على شىء من سلوكك ولا أوبخك ولا ألزمك بشىء . فتصرف فى حياتك كما تشاء ، وسيسعدنى أن تظفر بالسعادة كما تشتهى

« وقبل أن أغادر الاورال تعرفت الى لارا . وكم أنا مدينة لها لانها لازمتنى باستمرار فى ظروف وضعى العصيبة . انها امرأة تبعث على الاحترام . ولكنى لا أستطيع النفاق ، ولذا أبادر فأقول لك انها على العكس منى . فأنا امرأة بسيطة آخذ الحياة بسهولة ، أما هى فتعقد الامور وتخلق الفوضى

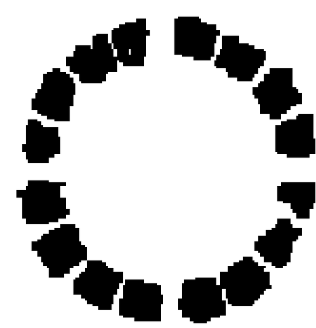
« والآن وداعا يايورى فقد آن لنا أن نحزم أمتعتنا . آه ياعزيزى وحبيبى وزوجى ووالد أولادى ، ماذا يخبىء لنا الغد ؟ هل يقدر لنا أن نلتقى يوما ؟ ان هذا السؤال يكاد يقتلنى جزعا ! هاهم يستعجلوننى لاختم الرسالة وانطلق معهم لحزم متاعى . فكأنما جاء الجلادون ليسوقونى الى ساحة الاعدام ! يورا ! يورا »

ورفع يورى عينيه اللتين يكاد الدم ينبجس منهما ، وتطلع أمامه فى ألم وغيبوبة ، فوجد الثلج يتساقط فى الخارج ، والهواء

يعبث بذلك الثلج ويكومه بجوار الجدران . ثم لا تلبث أن تهبط طبقات أخر من الثلج وتزداد كثافة كأنمـا تتحـدى الرياح

وكانت عينا يورى تحدقان فى ذلك الصراع الدائم بين الثلج والهواء . ولكن بغير وعى . لم يكن يرى أمام ناظريه الا سطور رسالة تونيا وكأنما الذى يتطاير فى الهواء أمامه ليس حبات الثلج ، بل ذلك الفراغ الابيض من الورق بين الحروف الصغيرة السوداء . فراغ أبيض مجهول تعبث به الرياح وترمى به الى مصير مجهول .

ولم يستطع فى حزنه الملتاع أن يذرف الدمع . فلما استعصى عليه أخرج من صدره آهة كشواظ النار ، ثم قبض على قلبه وقد شعر ببوادر الاغماء فارتمى على المقعد فاقد الرشد



الفصل الثالث عشر

الرجوع الى فاريكينو

دخل يورى المستشفى وهجم الشتاء فجعل الثلج يتساقط كتلا كبيرة • ولما استرد صحته غادرا المدينة معا ذات صباح مكفهر الاديم ، وكانا مستقلين زحافة ويحييان معارفهما . فلما رأتهما جلافيرا أخت سيما جعلت تلوح لهما • وعند قمة مرتفع التقيا بسيما نفسها وقد تدثرت بشالين ، فلوحت بيدها أيضا وصاحت :

ـ يجب عندما تعودان أن نتناقش فى كثير من الموضوعات يايورى أندريفتش !

ثم خرجا من المدينة أخيرا ، واستمر السفر طول النهار . ويورى يتولى قيادة الزحافة ، اما لارا فمشغولة بكاتنكا التى فى حجرها • وكلما ارتفعت بهما الحفة أو هبطت لوعورة الطريق تناثر الثلج على ثيابهما فتضحكان أو تصرخان وهما تتأرجحان بشدة

ووصل الثلاثة الى فاريكينو قبل هبوط الليل ، ووقفوا أمام بيت آل زيفاجو القديم فى أول القرية ثم دخلوه تحت جنح الظلام فلم يستطع يورى أن يتبين مقدار قذارة البيت • وكان معظم الاثاث سليما . ولكنهم لم يعثروا على شىء من المئونة طبعا • وانتابت يورى كآبة مفاجئة وهو ينظر الى الحجرات المألوفة فى ذهول وقد سادتها الوحشة ثم قال للارا فجأة :

ـ أفضل أن ننتقل الى دار آل ميكوليتسين فى الطرف الآخر من القرية وعلى الاثر انطلق الثلاثة نحوه

وكان بيت آل ميكوليتسين أصغر حجما وأكثر تنسيقا . وقد أمضى ثلاثتهم الليل من غير أن يخلعوا ملابسهم بل تغطوا بالمعاطف وناموا بعد تعب السفر نوما عميقا هادئا

ولما استيقظوا في الصباح الباكر ، نظر يورى الى المكتب الجميل القريب من النافذة ، وشعر برغبة شديدة في الجلوس أمامه للكتابة · بيد أنه أرجأ ذلك الى المساء ، حينما تكون لارا وكاتنكا نائمتين

وفى ساعة الغداء وضعت لارا على المائدة حساء البطاطس الذى استطاعت أن تحصل عليه من الحدائق المهجورة ، وكانت كمية تكفى عشرين شخصا فأكلت كاتنكا الى أن أتخمت ثم تغطت بمعطف أمها ونامت . وانصرفت لارا الى حديث حالم مع يورى ، فقالت له فيما قالت :

ـ آه يايورى · افرض على سلطانك وأخضعنى دائمـــا لارادتك ورغباتك ، ذكرنى على الدوام أننى أمتك التى تعبدك وتتدله فى حبك · اننى حين أنظر اليك وأعانقك أشعر أننى تحولت الى روح خالص فالى متى يارب هذا الحنين الوحشى الذى يأكلنا ويلتهم حنايانا ؟ !

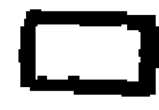
وطوقته بذراعيها وانهمرت دموعها . وأخذ هو يربت عليها ، ثم قال :

ـ انى منذ الصباح أفكر فى البقاء هنا فى هـــذه القرية المهجورة وحدنا أطول مدة ممكنة · وأنا لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة بغير عمل يشغل تفكيرى · ولا بد من يوم قريب تعود فيه الحياة الى حالتها الطبيعية فى الروسيا شيئا فشيئا وتستأنف المطابع نشر الكتب · ولذا خطر لى أن نحاول الاتفاق مع سامديفياتوف كى ينفق علينا ستة أشهر مثلا ، أقدم اليه فى نهايتها كتابا أتمه فى هذه الفترة . كتـــابا فى الطب أو ربما في الادب ، أو ترجمة لكتاب مشهور من الآداب العالمية·

وأنا كما تعلمين أتقن عدة لغات أجنبية ، وقد قرأت أخيرا اعلانا عن دار كبرى للنشر فى بطرسبرج لاتنشر شيئا سوى المؤلفات العالمية المترجمة • وهذا عمل لابد أن يدر مالا كثيرا وهو من نوع الاعمال التى أتمنى القيام بها

فتهلل وجه لارا ، وقالت :

ــ ما أسعدنا . لقد خطر لى هذا الشىء بعينه . ولكن لا أعتقد أننا سنبقى هنا طويلا • الا أنى أرجو أن تخصص فى المدة التى سنمكثها هنا بضع ساعات كل ليلة لتدوين قصائدك التى طالما أنشدتنى اياها ، خوفا من أن يغمرها النسيان



وفى نهاية النهار استحم الثلاثة بالماء الساخن وارتدوا ثيابا نظيفة وتظاهرت لارا بالنوم بجوار كاتنكا . وساد السكون العميق حول يورى وهو جالس الى المكتب تحت الضوء المصفر المنبعث من المصباح وأخذ يتذكر قصائده القديمة ويسجلها • فتحرك وتر الشعر فى نفسه ، وخطرت له أبيات جديدة ، وأحس باقتراب الوحى فشرع يكتب فى نشوة شديدة وعيناه معلقتان بمنظر لارا وهى نائمة محتضنة الطفلة الملائكية

وفى الهزيع الاخير من الليل سمع صوتا حزينا يتردد فى الفضاء حول البيت ، فارتدى معطفه وفتح الباب ووقف على عتبته ينظر فى ضوء القمر المنعكس على الثلج في وهج غريب• وفى بداية الامر لم يستطع أن يرى شيئا ثم بعد قليل تبين صفا من الذئاب . أربعة ذئاب تقف متلاصقة وهى ترنو الى البيت المضىء وتطلق عقيرتها بالعواء • وبعد قليل ادارت له الذئاب ظهرها واختفت ، وهنا شعر يورى بالارتياع لانه خشى أن تكون أوجارها قريبة من البيت • وهناك في الاسطبل فرس سامديفياتوف . فلابد أن رائحتها هي التى اجتذبت الذئاب الجائعة

وانتوى فى نفسه الا يحـدث لارا بشيء من ذلك حتى لا يفزعها ثم دخل وأغلق الباب · واتجه الى المكتب مرة أخرى· ولكن الرغبة فى الكتابة كانت قد تلاشت وتبددت . لان منظر الذئاب الجائعة العاوية أثار فيه القلق وفتح له باب التفكير فى الهموم التى تترصده ·

وفى هذه اللحظة استيقظت لارا وتقلبت فى فراشهـا . وقالت له فى نعومة وحنان :

ـ أمازلت ساهرا ياحبيبى ؟ تعال هنا بجانبى لحظـة . التصق بى فانى أريد أن أشعر بقربك كى أقص عليك ما رأيته الآن فى حلمى

وقبل أن يذهب ليلتصق بها ، نفخ بفمه المصباح فأطفأه



وعندما استيقظ يورى وجد الشمس تملأ الحجرة ، وأحس فى رأسه صداعا ،فظل طول النهار متناوما مستسلما للكسل، تزعجه فكرة وجود الذئاب عن كثب من البيت

وعندما هبط الليل جلس الى المكتب بعد أن نامت لارا ، وكاتنكا كما حدث فى الليلة الماضية · وبدأ ينظر فيما كتبه فى الليلة السابقة ، فوجد القصائد القديمة لاتحتاج الى شيء . أما الاشعار الجديدة التى كتبها تحت تأثير وحى الساعة فكانت مكتوبة بصورة غير مرضية ، بخط مشوش تنقصـــه بعض الحروف . لانه وهو تحت تأثير الوحى كتب وهو فى شـــبه غيبوبة · وفضلا عن هذا آكتشف أن هذه الاشعار التى كتبها والدمع يجيش فى عينيه لجيشان عواطفه ليست فى الواقع آلا وليدة صنعة وتكلف · وقد ظل كل حياته يمنى النفس بأصالة فى فنه · بأصالة من نوع خاص ، لاتبدو على سطح السطور ، بل تتوارى تحت شكل أسلوبى عادى · وقد ظل طول حياته ساهرا علي انضاج هذا الاسلوب المباشر البعيد كل البعد عن

التكلف ، والذى يدخل الى الذهن والقلب مباشرة كالهواء الذى يدخل الصدر من غير أن يلفت النظر أو يحتاج الى مجهود خاص . ولكن هاهو ذا الآن يكتشف أنه لم يزل بعيدا كل البعد عن تحقيق هذا الهدف

انه فى الليلة الماضية حاول أن يعبر ببساطة متناهية عما فى نفسه من مزيج غريب يجمع بين الحب والارتياع والندم والاقدام . وكان يريد لتعبيراته أن تنطلق من قلمه كأنما تتقوم وجدانياتها بغير حاجة الى كلمات ، كما تبدو الخمر فى الكأس الشفافة « أشربة بلا أوان »

وانصرف يورى الى تنقيح ماكتبه وجعل يكافح ضد الحشو ويستبعد كل عناصر التفخيم والتطريب التى لاتنتمى الىالمعنى

وزادت حرارة العمل من حماسته . فلما انتهى من ذلك التنقيح بدأ يكتب أسطورة مارى جرجس البطل فى أبيات قصيرة المقطع سريعة خفيفة ، حتى كاد يسمع وقع جواد ذلك الفارس المنتصر ، وهو يجوب أرجاء الروسيا الشاسعة . وقد أخذت الابيات تنثال تباعا حتى كادت يده تعجز عن ملاحقة خواطره

ولم يفطن وهو يكتب مستغرقا فى الوحى الى أن لارا استيقظت واقتربت من المكتب . وقد زادها قميص نومها الطويل طولا ونحولا ورقة . فلما فوجىء يورى بوقوفها أمامه ورأى الذعر مرتسما على وجهها ، قالت له همسا وهى تمد اليه ذراعيها :

ــ ألم تسمع نباح الكلاب ؟ انى خائفة . ياله من نذير شؤم ! متى طلع الصباح سنرحل . فلن أبقى هنا لحظة واحدة !

وقضى يورى ساعة يهدىء من روع لارا حتى عاد النوم اليها ثم خرج فوقف على عتبة الباب مثل أمس . فاذا الذئاب

فى هذه الليلة كانت أقرب الى الدار وأكثر عددا . وما أن رآته حتى اختفت ، ولم يستطع أن يعرف الاتجاه الذى توارت فيه



كان اليوم هو الثالث عشر فى فاريكينو . وكان شبيها بجميع الايام السابقة عليه . وفى الليل كانت الذئاب تعوى ، ولارا تحسبها كلابا فتتشاءم منها وتصمم على الرحيل . واستولى القلق على هذه المرأة التى عاشت طول عمرها تعمل وتكدح ، ولم تتعود أن تقضى يومها فى المناجاة العاطفية أو فى الاستسلام للحنان الدافق

ان كل شىء فى هذه الحياة يتكرر مرارا بصورة واحدة ، ولذا أخذت لارا فى صباح هذا اليوم تحزم الامتعة للرحيل . وكان مجرد النظر الى السحب الداكنة المنخفضة يدل على أنه من المحتمل سقوط الثلج بين لحظة وأخرى . أما يورى فكان يشعر باعياء شديد ، بدنيا وعقليا ، لسهره حتى الفجر ليالى متعاقبة ، فدب الوهن الى ساقيه وتشوشت أفكاره . عندئذ راح يتمشى من حجرة الى حجرة وهو يفرك يديه كى يطرد البرودة ، منتظرا أن تخبره لارا بما صح عليه عزمها كى يرتب أموره على ذلك الاساس

ولم تكن لارا نفسها تعرف ماذا تريد . كل ماهى واثقة منه انها تريد أن تستبدل بهذه الحياة الراكدة الفوضوية حياة أخرى منظمة يسودها القيام بالواجبات والمسئوليات المرهقة . فذلك فى نظرها شرط ضرورى لحياة كريمة

وبدأت لارا يومها كالمعتاد بترتيب الاسرة وكنس الارض واعداد طعام الفطور ، ثم أخذت بعد ذلك تحزم الامتعة . وطلبت من يورى أن يسرج الفرس لانها عزمت عزما أكيدا على الرحيل !

ولم يحاول يورى أن يراجعها فى ذلك القرار . أجل انه من الجنون الواضح أن يعود الى مدينة يوريانتين بعد أن بلغت الاعتقالات التعسفية هناك غاية العنف . ولكن كان جنوننا مطبقا أيضا أن يبقى فى فاريكينو وحيدا أعزل تحت رحمة القدر فى هذه الصحراء الجليدية . ولاسيما أن قبو الدار أصبح خاليا تماما أو يكاد يخلو من الشوفان . ولذلك كف يورى عن كل تفكير او مناقشة وذهب ليسرج الفرس

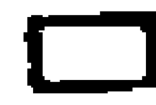
ولم تكن له دراية حسنة بهذا الامر . وبالرغم من أن سامديفياتوف علمه كيف يسرجها ، فانه نسى ، وجعل يتخبط الى أن أسرج الفرس حيثما اتفق ثم ربطها ودخل ليدعو لارا الى الركوب

ووجد الام وابنتها مستعدتين ، وقد أتمتا حزم كل شيء . ولكن لارا كانت فى كرب شديد فطلبت منه أن يجلس لحظة . وشفتاها ترتجفان كأنها على وشك البكاء ، ثم أخذت تتكلم بصوت متلعثم مأزوم :

ـ لا أدرى ما الذى أصابنى فدفعنى الى الرحيل فجأة . لكن ترى هل نستطيع أن نرحل الآن حقا ؟ عما قليل سيخيم الظلام ونحن فى وسط الغابة الرهيبة . وانا خائفة من الآن ، ولا أستطيع أن أتحمل مسئولية تلك الرحلة . قلبى منقبض وشىء ما يمسكنى هنا . فلماذا لا تتصرف أنت ؟ لماذا أنت صامت ؟ لقد ضاع اليوم على كل حال ويجب أن نتلافى هذا التأخير غدا . يجب أن تنهض مبكرا لنرحل من هنا فى السادسة أو السابعة صباحا . ما رأيك ؟ ستشعل الموقد وستمضى ليلة أخرى فى الكتابة . ثم ننام هنا ليلة أخرى جميلة ! لماذا لا تقول شيئا ؟ ويحى أنا الشقية !

ـ انك تبالغين يالارا . فلم يزل بيننا وبين الغروب وقت طويل . ولكن لابأس . فليكن ماتريدين . ولنبق هنا يوما آخر

ولكن لماذا تنفعلين بهذه الصورة ؟ هيا أخلعي معطفك . وهاهى ذى كاتنكا بدأت تشعر بالجوع فاعطيها شيئا تأكله . لقد أصيبت بالبقاء لاننا لم نعد للرحيل عدته ، لماذا تبكين بالله عليك ؟ سأذهب بالفرس لاحضر من بيتنا القديم شيئا من الحطب ، فلم تعد لدينا حطبة واحدة . ولكن بالله عليك كفى عن البكاء . وسأعود بسرعة وأشعل الموقد



وعندما عاد الدكتور بحزم الحطب رأى أمام الباب جوادا أسود مشدودا الى عربة ريفية مريحة . وهناك شاب بدين بعض الشيء نظيف الثياب يدور حول الحصان ويجس أعضاءه

وسمع من البيت أصواتا غريبة . ثم تعرف على صوت كوماروفسكى مختلطا بصوتى لارا وكاتنكا .. وكانت رنة الاضطراب والضيق ظاهرة على صوت لارا وكأنها تقاوم البكاء. أما صوت كوماروفسكى فكان كالعادة قويا . وخيل اليه أنه يتكلم عنه ، لانه سمعه يقول :

ـ انك اذ تعتمدين عليه وتطاردينه تطاردين فى وقت واحد ارنبين ، وتحاولين الجلوس على كرسيين !

ودخل يورى الى البيت فوجد كوماروفسكى فى الحجرة الاولى مرتديا معطفه السابغ . وما أن رأت لارا الدكتور حتى اندفعت نحوه قائلة :

ـ أين كنت كل هذا الوقت اسمع مايقوله ضيفنا وقدر بسرعة ماذا نصنع فان ضيفنا يحمل الينا أخبارا هامة ولابد لنا أن نسافر فورا

فأخذ يورى يهدئها ثم سلم على كوماروفسكى ، وسأله عن جلية الامر فقال :

ـ يظهر أن لارا تعنيبالاخبار التى أحملها وهيأن هناك قطارا خاصا وصل أمس من موسكو وسيغادر يوريانتين غدا . وهو

قطار نصف عرباته مخصص للنـوم . وتحت يدى تصريح باستعمال هذا القطار أنا ومن اختارهم من المعاونين لى فى عملى . ولن يتوفر السفر بهذه الراحة والرفاهية مرة أخرى . ولارا تقول أنها لايمكن أن تسافر مالم تسافر أنت معها أيضا . فان لم يعجبك ان ترحل معنـا الى فلاديفوستك فى أقصى الشرق ، ففى وسعك أن تذهب معنا الى يورياتين وهناك تفكر مرة أخرى فيما تصنعه ، ولـكن لابد من الرحيل فورا حتى لا يفوتنا ذلك القطار . وسيساعدك حوذى عربتى على تحميل زحافتك . وأرجو الا تأخذوا معكم الا الضرورى الذى لا غنى عنه من الامتعة . وكل هذه المحاولة من أجل انقـاذ حيـاة الطفلة كاتنكا التى لا يجوز لكما أن تهلكاها بالبقاء فى هـذه المنطقة . ولا داعى لاقفال الابواب . فليـذهب البيت الى الشيطان

ـ ما أعجب كلامك ! انك تتكلم كما لو كنت وافقت على السفر أنا أيضا ارحلوا أنتم ، وسأبقى هنا قليلا لارتب كل شىء وأغلق الابواب

فصاحت لارا بجنون :

ـ أنت تعرف جيدا أننى لايمكن أن أسافر بدونك

وقال كوماروفسكى :

ـ يظهر أنك مصمم على موقفك ولـكن فلتسمح لى لارا بالاختلاء بك دقيقـة واحدة بالمطبـخ لاقول لك كلمتين على انفراد

ـ هيا بنا الى المطبخ اذن

ـ اعتقل سترلينكوف ، وحوكم واعدم !

ـ ياللهول ! أهذا ممكن ؟

ـ لقد تأكدت من ذلك

ـ لا تخبر لارا حتى لاتصاب بالجنون

ـ طبعا لن أخبرها ولكنى أخبرتك أنت لتقدر أنها وابنتها تتعرضان بعد أعدامه لخطر داهم • فساعدنى على انقاذهما بالسفر معهما

ـ هذا موضوع لا محل للتفكير فيه

ـ ولكنها لن تذهب بدونك . فتظاهر على الاقل أنك رضيت بالسفر معنا ، ولو على أن تلحقنا بعد قليل . عدها بذلك وعدا كاذبا . أبذل كل مابوسعك كى تصدقك . قل لها انك ستسرج الفرس ثم تلحق بنا فى الطريق . افعل اى شىء كى تحملها على الرحيل وهى واثقة من لحاقك بنا

ـ الواقع أن ذهولى بنبأ إعدام سترلينكوف جعل ذهنى يشرد فلم أسمع ما قلته • ولكنى أوافقك على أن حياتى لارا وكاتنكا صارتا فى خطر على حسب سياسة الحكم الجديدة • خذهما الى أقاصى الارض . ان حياتهما الآن موكولة اليك . وذهنى فى هذه اللحظة مشلول عن التفكير السليم . وأخشى أن أرتكب خطأ أندم عليه طول حياتى . وفى الوقت نفسه أجدنى مضطرا ان أخضع لرأيك خضوعا اعمى حتى لا اجازف بحياة لارا وكاتنكا . أجل سأعدها وعدا كاذبا

ـ هذا هو عين الصواب . وبهذه المناسبة معى كمية من الفودكا سأتقاسمها معك لأنها ستنفعك هنا فى ليالى الشتاء الباردة

وعند الغروب كان يورى واقفا على عتبة الباب وظهره الى الدنيا ، يجيل عينيه فى الدار الخاوية وهو يغمغم :

ـ لقد آذنت شمس حياتى بغروب . ياجميلتى وياحبى الباقى على الزمن ! انك تعيشين فى ذراعى وعلى شفتى وفى قطرات دمى وخلايا أعصابى ! سأحفر حبك الباقى على صخرة الزمن بأشعار حزينة محتدمة . سأبقى هنا وحدى أستعيد ذكرى طيفك وحنانك وأكتب من ذوب دمى قصائد حبى

وظلت أفكار غريبة تدور فى رأس يورى . كأن هناك أعاصير تهب داخل جمجمته فانصرف عن العناية بالبيت والعناية بنفسه . وجعل يقضى الوقت فى احتساء الفودكا وينظم أشعارا فى لارا . وكلما كتب أبياتا أعاد تلاوتها فلم تعجبه ، فيشطبها ويعيد كتابتها من جديد . ثم يتبين أن كل الذى يكتبه عن لارا بعيد كل البعد عن تلك المرأة الحقيقية أم كاتنكا التى ملأت جنبات البيت وجوانب حياته ثم رحلت بعيدا الى أقصى الشرق مع طفلتها الصغيرة

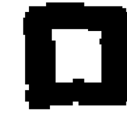
كان يعييه العثور على التعبير الدقيق القوى ، وكان يشعر بحائل فى نفسه يمنعه من التصريح بمكنونات عواطفه الشخصية واحساساته الحميمة ، فتخرج الأشعار خالية من نبضة الحياة وحرارتها . وهكذا غاب من تلك القصائد كل دام آخذ بمجامع القلوب ، ليحل محله ثناء هادىء تكاد تنعدم منه الخصوصية ، وكأنه تعبير عن موضوع عام

والى جانب تلك القصائد التى يندب بها حبه وحياته الخاوية ، كان يسجل قصائد قديمة وينقح مسودات مقطوعات كتبها عن الطبيعة والحياة اليومية . وتزدحم على رأسه فى تلك الاثناء خواطر شتى عن أزمة الفرد والمجتمع فى ذلك العصر المتقلب

انه وهو يبكى لارا ، يبكى أيضا حلما جميلا كانت تتمثل فيه الثورة رائعة نقية قبل أن تنقلب فى اطار الواقع الى آلة ضخمة للاستبداد والعنت !

وبعد أيام جاء حوذى كوماروفسكى يحمل اليه كمية أخرى من الفودكا وحدثه عن رحيل لارا أنتيبوفا وطفلتها مع كوماروفسكى . وحمل الحوذى معه الفرس الى صاحبها فى يوريانتين ، بحجة أن صاحبها فى حاجة اليها . ووعده أن يعود بعد أيام لكى ينقله نهائيا من فاريكينو

وانهمك يورى مرة أخرى فى قرض الشعر وفى استحضار صورة المرأة الباهرة التى حرم من حنانها ، فاشتد شعوره بالخيبة والحنين وأصيب بشبه حمى تؤرقه فيها ألوان من الرؤى والكابوس



كان الجو مايزال صحوا ، قبيل غروب الشمس ، حين سمع وقع خطوات مقبلة . كان القادم رجلا يسير فى هدوء واعتداد نحو البيت ، فأخذ يسائل نفسه :

ـ ترى من يكون هذا القادم سيرا على قدميه ؟ أن أنفيم سيحضر ممتطياجوادا ، وفاريكينو مقفرة من المارة ، لابد أنهم يقتفون أثرى ويبحثون عنى ، ولابد أن القادم حضر ليدعونى للعودة الى المدينة . بل لعلهم فى طريقهم الى اعتقالى . ولكن هل يكون ذلك بارسال شخص واحد ؟ لعلهما اثنان أو أكثر ! آه لعله ميكوليتسين فانى أعرف مشيته ، وغمره شعور بالبهجة لهذا الخاطر

ووصل الرجل المجهول أمام الباب المفتوح ، وتوقف لحظة ثم استأنف السير ، كأنه على بينة من المكان الذى يقصده

وكان يورى فى هذه اللحظة جالسا الى مكتبه ، وظهره متجه نحو الباب ، وهم أن ينهض لاستقبال الرجل ، فوجده قد وصل الى عتبة الدار ، وقد توقف عن المشى مشدوها . وسأله يورى فى دهشة :

ـ ماذا تبغى ؟

وعندما وقع نظر يورى على الرجل ، وجده بهى المحيا ، جميل قسمات الوجه ، قويا مفتولا ، يرتدى سترة مبطنة بالفراء ، وسروالا من نفس النوع ، وحذاء من الجلد الثمين ، وقد حمل معه بندقية صغيرة

وكان حضور الرجل مفاجأة ليورى ، ولو أنه كان يتوقع

حدثا كهذا ، فالدلائل التى تحيط به كانت تنبىء بذلك

وخطر بذهن يورى أن الرجل هو صاحب المؤن التى كانت مخزونة بالبيت . على أنه خيل اليه أنه رأى هذا الرجل فى مناسبة ما

وكان القادم يتوقع أيضا أن البيت ليس خاليا ، ولذا لم يفاجأ برؤية يورى ، فربمـا أخبره أحد بذلك . بل ربمـا كان يعرف أن الساكن هو يورى

وقدح يورى ذهنه متسائلا :

ـ من هو ؟ من هو ؟ وأين رأيته يا ترى ؟ أغلب الظن أننى ألتقيت به ذات صباح دافيء ، ولكن لا تحضرنى الذاكرة فى أى يوم كان ذلك ؟ وفى أية سنة ؟ فى محطة رازفيلييه ! فى عربة القوميسير الذى كنت أتوجس منه ! أفكار واضحـة كالمرآة ، وأحكام جامدة ، ومبادىء قاسية صارمة .. المستقيم الصالح .. المستقيم الصالح .. سترلينكوف !



أخذ الليل ينشر أجنحته ، والظلمـة تترامى على الكون ، عندما كانا يتحدثان ، وكأنهما الروسيان الوحيـدان اللذان يستطيعان التحدث كما يتحدث المجانين ، والمنكوبون بنوع خاص ، والحاقدون الملتاعون

ولم يكن سترلينكوف ممن يميلون الى الثرثرة ، ولـكن يبدو أن أسبابا قوية شخصيةجعلته يندفع فى الكلام دون توقف

لم يتعب سترلينكوف من الكلام ، بل اندمج بكليتـه فى الحديث مع يورى ، ولعله كان يسعى من وراء ذلك الى الهرب من الشعور بالوحدة . هل كان يرهب وخز الضـمير ، أم الذكريات الاليمة التى تلاحقه ، هل كان يئن تحت وطـأة الشعور بعدم الرضا عن نفسه ، حيث يصبح انسانا بغيضا

لا يحتمل ، ويكون مســـتعدا لان يمـــوت خزيا وعارا ٠ أم هل اتخذ قرارا رهيبا ، يؤثر ألا ينفذه وهو منفرد بنفسه ، أو يرجىء تنفيذه ، فرأى ان يلتقى بيورى ويثرثر معه ؟ !

وبدا على سترلينكوف أنه يحمل بين ثنايا ضلوعـه سرا خطرا ، أرهقه وطغى على جميع مشاعره واحساساته

وأخذ سترلينكوف يقذف بالـكلام فى فوضى ، وكأنه فى حالة حمى وهذيان ، ينتقل من اعتراف الى آخر :

ـ لقد كنا بالقرب من تشيتا ، ألم تؤخـــذ بتلك المنوعات الغريبة التى كدستها فى البيت، وملأت بها رفوفه وقواريره؟! انها من الغنائم التى فزنا بها ، حينما توغل الجيش الاحمر فى سيبيريا الشرقية واحتلها ، طبيعى أننى لم أنقلها وحدى ،فقد كان الى جانبى رجال مخلصون أوفياء ٠ هل رأيت القهوة ، والشاى ، والشموع ، والكبريت٠والورق ٠والحبر ٠أخذناها جميعها من مخازن المؤن التشيكية العسكرية ، ومن مخـــازن اليابانيين والانجليز ، ان هذا ثمين ! أليس كذلك ؟ هل تدرى أن تعبير « أليس كذلك » هو تعبير زوجتى المفضل ٠٠٠ ألم تلاحظ ذلك ؟ ! لست أدرى هل أتكلم فى صراحة بمثل هذه السرعة ٠٠٠ ! لعل من الاصوب أن أدخل فى الموضوع دون مقدمات ٠٠ لقد حضرت لأرى زوجتى وابنتى ، فلم يصل الى علمى أنهما هنا الا أخيرا ٠٠ ولكن هأنذا لا أراهمـــا ! وقد عرفت صلتك بها من التقارير ومن الاشاعات ! وعندما قيل لى « الدكتور زيفاجو » أخذتنى الحيرة ، وساءلت نفسى كيف استطعت أن أتذكر ، بين الآلاف من الوجوه التى مرت أمامى ، فى السنوات الاخيرة ، وجه الدكتـــور الذى وقف أمامى ذات يوم ٠٠٠ لاحقق معه !

ـ لعلك ندمت لانك لم تقتله !

ولكن سترلينكوف تجاهل سؤال يورى ، وكأنه لم يتنبـــه

لهذه المقاطعة ، وتابع كلامه ذاهلا متأملا :

ـ لقد كنت غيورا ، ومازلت ، وهل يمكن أن أكون غير ذلك ؟ ! لقد اختبأت هنا منذ بضعة أشهر ، بعد أن أصبح من المتعذر على الظهور فى الشرق الاقصى • وكان مقررا أن أحاكم أمام المحكمة العسكرية بسبب وشاية • ومن السهل جدا التخمين بنتيجة المحاكمة • وكنت أجهل اننى ارتكبت ذنبا • وكانت أمنيتى أن أظهر سلامة موقفى ، وأن أدافع عن سمعتى ، عندما تسمح الظروف بذلك • ولهذا رأيت أن انتظر ، وبالتالى أن اختفى ، حتى لا أعتقل • وألبس لباس أحد النساك المتجولين • وكان باستطاعتى أن أنجح ، لولا أن شخصا غدر بى ، فخاننى بعد أن منحته ثقتى • لقد اتجهت نحو الغرب ، عبر سيبيريا المترامية ، سيرا على الاقدام • فى فصل الشتاء ، واختبأت حتى فى التراب والطين ، وبلغ منى الجوع اقصاه ،حتى كدت أهلك وأموت • وكنت أتجنب الممرات المطروقة ، وأنام بين أكوام الثلج ، أو فى القطارات المغطاة بالثلج، المعطلة على طول الطريق • وجعلت اتخبط فى تشردى، حتى جمعتنى المقادير بفتى أفاق ، زعم أنه هارب من وحشية الانصار ، وأنهم كانوا قد حكموا عليه بالاعدام ، ولكن الاصابة لم تكن مميتة ،فزحف بين جثث القتلى وهرب ، ثم لجأ الى الغابة واختبأ ، حتى شفى ، وأنه الآن شرير مثلى • يتنقل من مخبأ الى آخر ولكنه كان فتى شريرا ،جاهلا سبق أن طرد من المدرسة لغبائه

وأمكن ليورى أن يتعرف على شخصية الفتى من الاوصاف التى ذكرها سترلينكوف ، فسأله :

ـ هل اسمه جاليولين ؟

ـ بالضبط

ـ ثق من أنه صادق فيما ذكره عن الانصار ، وعن الاعدام

وليس ما ذكره من وحى الخيال

ـ مما لفت نظرى أنه يحب والدته حب العبادة ، فقد أعدم أبوه كرهينة له ، ونمى اليه أن أمه سجينة ، وأنها فى انتظار اللحاق بأبيه ، فجن جنونه ، وود أن يبذل المستحيل كى ينقذها وحضر الى تشيتا ، يعترف بما جناه ، ويلتمس الصفح . ويعرض خدماته . فساوموه على ذلك بشرط أن يدلهم على مكان مخبئى ففعل ... ولكننى استطعت أن أكشف خيانته ، فاختفيت فى الوقت المناسب . وقد عانيت أهوالا جبارة ، واقتحمت مئات المغامرات ، حتى تمكنت من عبور سيبيريا والوصول الى هنا، حيث أعرف باسم الذئب الابيض . ولايخطر ببالهم مطلقا ، أننى أجرؤ على المجىء الى هنا . لقد بحثوا عنى طويلا حـــول تشيتا ،بينما كنت اختبىء أنا تارة فى هذا المنزل ، وتارة فى مخابىء أخرى فى الضواحى .. أما الآن فقد انتهى الامر ،لقد أدركونى فى النهاية .. اسمع ، لقد اقترب الليل ، وهوالوقت الذى أكرهه ، فاننى لم أذق طعم النوم منذ زمن بعيد . أغلب الظن أنك قاسيت مثل هذا العذاب . اذا كانت لديك بقية من شموعى ، أمكننا أن نستمر فى الحديث ، نتحـــدث قدر ما نستطيع فان فى ذلك متعة ، فى الليل ، على ضوء الشموع

ـ الشموع كما هى فلم أوقد الا قليـــلا منها ، لاننى كنت استعمل الغاز الذى وجدته

ـ هل لديك خبز ؟

ـ كلا

ـ بماذا كنت تقتات اذن ؟ ولو أنه من السخافة أن أسأل هذا السؤال ! طبعا بالبطاطس

ـ تماما ، وتوجد منها كميات كبيرة ، فقد كان سكان المنزل مدبرين ذوى خبرة . فعرفوا كيف يوفرونها ، ويحفظونهـا فى القبو دون عطب

وانتقل سترلينكوف ، الى الحديث عن الثورة :

ـ لا يعنيك هذا الكلام ، فأنت لاتستطيع أن تدركه ، لانك نشأت فى وسط آخر . كانت هناك دنيا القرى ، والسكك الحديدية ، وأوكار العمال . الفساد ، والتعاسة ، الانسانية المهينة فى شخص كل عامل ! والمرأة اليائسـه الذليلة ! كان هناك عالم رفعراية الفجور والقحة ! طلاب متأنقون متحذلقون، وأبناء تجار أثرياء . وكان يأخذهم الغرور ، ويتملكهم الهزء المسموم ، والسخرية اللاذعة ، فيستخفون بدموع الذين هضمت حقوقهم ، وأهينوا فى انسانيتهم وكرامتهم ، ويهزءون بأناتهم ! وهم ، تحف بهم الفخفخة والمهابة والخيلاء ، أهم ما يميزهم أن كلمة التعب ليست فى قاموس حياتهم ، ولذا لم يتركوا فى العالم أو يمنحوه أى أثر يذكرهم به ... ولقد نظرنا نحن الى الحياة على أنها ميدان صراع ، فأزلنا من الوجود جبالا فى سبيل من نحبهم ، واذا كنا قد جلبنا لهم الشقاء ، فاننا حفظنا لهم كرامتهم ، ولم نمسسهم بأية اهانة ، فاذا اعتبروا أنفسهم شهداء ، فاننا نفوقهم فى ذلك ... نصيحة أسوقها اليك ، بدافع من ضميرى ، يجب أن تغادر هذا المكان فى أقرب وقت ، اذا كنت تستمسك بأهداب الحياة ، فالمطاردة تقتفى أثرى ، وتلاحقنى ، وأنت ، باتصالك بى أصبحت مثلى متآمرا . أضف الى ذلك ، تلك الذئاب التى اتخذت هذا المكان مرتعا لها ، حتى لقد اضطررت أن أطلق النار عليها أمس كى أحمى نفسى

ـ لقد سمعت وأنا نائم طلقا ناريا ، فظننت ذلك جزءا من الكابوس الذى كنت أعانى منه

ـ بل أنا أطلقت النار حقيقة . ولن أمكث عندك طويلا . متى طلع الصباح سأمضى . والآن دعنى أتم ما بدأت من حديث . انك لا يمكن أن تتصور كم كانت جميلة وهى تلميذة صغيرة .

وكانت كثيرا ما تأتي الى بيت زميلتهـا فى المدرسة . وذلك البيت كان يسكنه عمال السكة الحديدية • وكان أبي (وهو الآن عضو فى محكمة يوريانتين العسكرية) من عمال المحطة . فكنت ألتقي بها هناك • وأرى فيها نفسا فذة تتمثل فيها جميع مزايا العصر ومشاكله ومفاتنه ومتاعبه وعيوبه . وكانت لارا فى طفولتها مزيجا رائعا من خفر العذارى ومن الخفة والاقدام

ـ ما أعظم براعتك فى الحديث عنها • ولقد رأيتها أنا أيضا فىطفولتها ، فوجدتها على تلكالصفة تماما• وكان ظلهايرتسم على الجدار متوجسا مستميتا على أهبة الدفاع فى كل وقت . لقد أحسنت التعبير عن روحها

ـ أنت رأيتها فى ذلك الوقت أيضا ؟ مهما يكن من شيء فان روح أخريات القرن التاسـع عشر التى تمخضت عن ثورات باريس وطبقات من المهاجرين الروس ومؤامـرات دامية أو فاشلة ، وحلقات لدراسة الماركسية فى منتديات أوروبا الفكرية، كل ذلك تجسم فى شخصية لينين ليصب العقاب على ذلك الماضي ويمحوه . وارتفع الىجانبه وجه الروسيا الجديد ، وقد انشقت عنه ظلمات المظالم كأنه شمعة تكفر عن خطايا الانسان وشقائه ... ومن أجل هذه التلميذة الصغيرة دخلت الجامعة ، ولاجلها صرت أستاذا وقبلت العمل فى يوريانتين التى لا عهد لى بها . وأقبلت على الكتب ألتهمها عسى أن أكون نافعا لها وللناس ، وفى متناول يدها حين تحتاج الى معونتى . ولكى أستعيد حبها تطوعت فى الجيش بعد ثلاث سنوات من زواجنا . حتى اذا انتهت الحرب وانطلقت من الاسر استغللت اشاعة موتى فى الحرب كى أكرس حياتى للثورة تحت اسم مستعار ، وانتقم من جميع الظروف الاجتماعية والخليقة التى سببت لفتاتى الآلام والذكريات الحزينة . وكنت أعلم أنها وابنتى عن كثب منى ولكنى كنت أقاوم رغبتى العارمة فى الاندفاع اليهما

كي أراهما ، لاني وضعت واجبي الانتقامي أولا • أما الآن فلا أضن بشيء في سبيل الظفر بنظرة واحدة اليها . انهـا نور حياتي ! كانت اذا دخلت على حجرة من الحجرات فكأنما انفتحت النافذة فجأة على مصراعيها فيتدفق الى الحجرة فيض من النور الرقراق ، والهواء النقي !

ـ اني أعرف تمام المعرفة كم كانت عزيزة عليـك اثيرة لديك . ولكني أستميحك أن أسألك هل لديك فكرة عن مدى الحب الذي تكنه لك ؟

ـ عفوك ! ماذا قلت ؟

ـ أقول هل تعرف أنت كم كنت عزيزا عليها ، أعز من كل مافي العالم ؟

ـ ما الذي يدفعك الى هذا الاعتقاد ؟

ـ هي التي أكدت لي ذلك بنفسها

ـ أهي قالت لك هذا ؟ لك أنت ؟

ـ لي أنا

ـ عفوك . أمن الممكن أن تخبرني ماذا قالت لك بالضبط في هذا الشأن ؟

ـ سأخبرك . قالت لي انك كنت دائما النموذج الـكامل للانسان المثالي . وانك الرجل الذي لم تصادف في حياتهـا نظيرا له . وقالت عنك أيضا انك كنت فذا فريدا في صدقك واستقامتك واخلاصك • وأنه اذا شيد لها في أقاصي الارض بيتك الذي ترضى أن تقبلها تحت سقفه ، لزحفت على ركبتيها الى ذلك البيت سعيدة راضية

ـ والآن أرجو أن تذكر لي الملابسات التي أحاطت بهـذا التصريح ، مالم يكن في ذلك تطفل على شخصياتك

ـ كانت تنظم هذه الحجرة وخرجت تنفض البساط

ـ عفوك . أي بساط ؟ فاني أرى اثنين

ـ ذاك ، الكبير
ـ ما أثقله . هل ساعدتها فى حمله ؟
ـ أجل
فقال سترلينكوف بصوت حالم :
ـ لكأني أراها ! • لقد تناولت البساط من طرفيه وانحنت الى الوراء وقد رفعت ذراعيها الى أعلى وأشاحت بوجهها عن الغبار المتطاير وهى تغمض عينيها ضاحكة • أليس كذلك ؟
ـ كذلك تماما
ـ وهل أجهل عاداتها ؟ وبعد ذلك اتجه كل منكما نحو الآخر طاويين البساط الثقيل طيتين ثم أربعـــا • ثم أطلقت نكتة وأشرق وجهها بالبشاشة . ألم تفعل ذلك تماما ؟
ـ تماما تماما
ووقفا ثم اتجه كل منهما الى النافذة وتطلع فى اتجاه مختلف• ولكن بعد قليل كان سترلينكوف هو الذى اقترب من يورى اندريفتش وتناول يديه وشدهما الى صـــدره ، ثم استطرد يقول :
ـ عفوك . أعلم انى ألمس أموراً عزيزة عليك تنزلها من نفسك منزلة القداسة . بيد انى أحب أن أستخبرك عن مزيد منها . واعذرنى لانى عشت ست سنوات كاملة من الكبت الذى يتجاوز طاقة البشر . وكل ذلك كان على أمل انتصار الحرية الكاملة ، فأشـــعر ان ذراعى حرتان فى ضمها الى صدرى . أما الآن وقد تقوض كل شىء فسيعتقلوننى غدا ولن يسمحوا لى بكلمة دفاع واحـــدة عن نفسى . سيغمروننى بالصياح والصراخ والسباب ويكممونني • ألست أعرف ماذا يصنعون ؟
وأخيراً استطاع يورى ان ينام الليل بطوله لأول مرة منذ عدة أيام . استغرق فى النوم بمجرد أن تمدد فى الفراش .

ونام سترلينكوف فى الحجرة المجـــاورة • وفي المرات القليلة التى تنبه فيها يورى ليتقلب أو ليحكم الأغطية عليه ، كانت متعة النوم تستولى عليه بسرعة من جديد

وقبيل الفجر رأى أحلاما قصيرةجميلة اشتملت على ذكريات من طفولته . وكانت هذه الاحلام من الدقة والتناسق فيما بينها بحيث خالها حقيقة واقعة

واستيقظ فى ساعة متأخرة وهو يشعر بصداع شديد لأنه أفرط فى النوم ، حتى لقد تعذر عليه لاول وهلة أن يدرك أين هو • وأخيرا تذكر أن سترلينكوف فى الحجـــرة الاخرى وأنه يجب أن يصحو ليعد القهوة . وقفز من فراشه وصاح يناديه فلم يسمع جوابا ، فقال فى نفسه :

ــ انه مازال نائما . لاريب فى أن نومه ثقيل !

وأخذ يورى يرتدى ثيابه على مهل لتراخى أعضائه المخدرة من أثر النوم ، ثم مضى الى الحجرة الاخرى

ورأى قبعة سترلينكوف على المكتب ، ملقاة فى اهمـــال • فأخذ يبحث عنه فى أرجاء البيت ، فلم يعثر له على أثر • فقال فى نفسه :

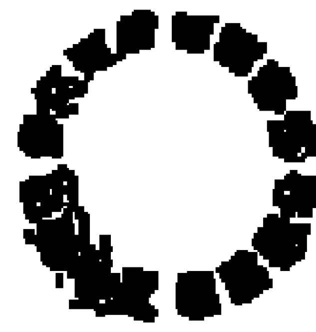
ــ ربما يكون قد خرج للتنزه ريثما استيقظ . يالى من كسول ! كان من المفروض أن أكون قد غادرت فاريكينو اليوم ، ولكن هاهو ذا الوقت قد تأخر بسبب كسلى . استسلمت للنوم فى الصباح الباكر وللأحلام الصبيانية . وشـاهدت فى المنام سقوط احدى لوحات أمى العزيزة عليها وتناثر حطامها ! ما أشد بلاهتى وكسلى !

ووضع الحطب فى الموقد وأشعل النار حتى تأججت . ثم تناول دلوا وخرج قاصدا البئر فى ساحة الدار ليحضر الماء

وعلى مدى أمتار قليلة من الباب رأى سترلينكوف ملقى فى وسط الممر ورأسه غائر فى الثلج ... لقد أطلق النار على

رأسه واستحال الثلج كتلة حمراء تحت صدغه الأيسر ...

وكانت قطرات الدم الصغيرة التى تدفقت من الجرح قد امتزجت بالثلج فتكونت كرات صغيرة قرمزية أشبه فى مرأى العين بثمار العناب المثلجة



الفصل الرابع عشر

خاتمة المطاف

لم يبق أمامنا الا أن نروى ما حدث خلال الاعوام العشرة التالية للدكتور زيفاجو ...

لقد تقدم فى هذه الاعوام بخطى واسعة نحو الشيخوخة . وفقد تدريجيا حذقه فى فنى الطب والكتابة . لأن حالة الانهيار أخذت تعاوده بين الحين والحين ، فما أن يشفى من احدى تلك الحالات حتى يبدأ العمل . بيد أن شعلة نشاطه كانت تنطفىء بسرعة ليغرق فى نوبات طويلة من عدم المبالاة بنفسه وبكل شىء فى العالم

وفى تلك المدة أيضا تطورت علة القلب التى شخصها هو بنفسه دون أن يدرك خطرها ، فزادت مع الزمن استفحالا ..

توجه الدكتور الى موسكو عند بداية تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة . وكانت تلك الفترة أشد عهود الحكم السوفييتى رياء وادعاها للتوجس . وحينما ذهب الى العاصمة كان فى حالة رثة ، وكان أشد ضعفا وهزالا مما كان عندما رجع الى يوريانتين بعد فراره من جيش الانصار . وترجع رثاثة حاله الى أنه فى أثناء الرحلة الطويلة تخلص تدريجيا من ملابسه التى لها بعض القيمة واستبدل بها خبزا ، وأغطية عتيقةستربها عريه . وهكذا حرم من معطف الفرو والبدلة ووصل الى شوارع موسكو وعلى رأسه قبعة رمادية من جلد الضأن . وعلى جسده معطف قديم من معاطف الجيش بلا ازرار . وكان من العسير تمييز الدكتور فى هذا المظهر من غالبية رجال

الجيش الأحمر الذين كانت تغص بهم محطات العاصمة وشوارعها وميادينها

ولم يكن الدكتور بمفرده حين وصل الى موسكو ، بل كان يتبعه كظله شاب ريفي حسن المظهر وان كان يرتدي أيضا ثياب الجيش العتيقة . فكان الاثنان يترددان على الصالونات القليلة الباقية في بيوت العاصمة • وهناك يحسنون استقبالهما ويتلطفون في سؤالهما

ـ هل استحممتما ؟ فان التيفوس منتشر !

وبعد ذلك يخبرونه كيف رأوا عائلته المسكينة تغادر الاراضي الروسية الى المنفى

وكان الاثنان شديدي الخجل ، ينطويان على أنفسهما معظم الوقت ، ولا يشتركان في الاحاديث الدائرة . وكان منظر الاثنين غريبا بعض الشيء . فالدكتور بقامته العالية وثيابه البالية يبدو كفلاح ينشد الحقيقة . أما الفتى الذي كان يتبعه كظله أينما ذهب ، فكان أشبه بتلميذ صبور يدفعه ولاؤه لملازمة أستاذه العجوز

فمن عساه يكون ذلك الفتى ؟



استطاع الدكتور أن يركب القطار في المرحلة الاخيرة من رحلته الى موسكو • أما القسم الاول والاكبر من هذه الرحلة فقطعه سائرا على قدميه . فتسنى له أن يشاهد القرى عن كثب فلاحظ أنها ليست أحسن حالا من تلك القرى الاخرى التي رآها في سيبيريا أو الاورال بعد أن هرب من الاسر . وكل ما هناك أن فصل الصيف في هذه الرحلة سهل له الامر بعض الشيء

كان نصف القرى التي مر بها مهجورا . والمزروعات في

الحقول لا تجد من يعنى بحصادها كأنما الارض قد وقعت فجأة في يد الأعداء

كانت الغلال الناضجة تتساقط فى الحقول وتقع على الارض . فكان يورى يجمعها فى راحة يده ويبحث عن وسيلة لسلقها ، وعندما لا يجد تلك الوسيلة كان يختصر المسألة ويضع الحب فى فمه ويحاول أن يمضغه . فكان ذلك يسبب له فى كثير من الاحيان عسر هضم وامساكا

وكان كل شيء فيما حوله يتحرك فى رتابة بطيئة . حتى الغيوم فى السماء كانت تتحرك فى تثاقل . ولم يصادف فى حياته مثل هذا العدد الضخم من الفئران . فكلما رقد وسط الحقول لينام ، كانت تقفز تلك الفئران الريفية السمينة على وجهه وداخل سترته وبنطلونه . اما فى النهار فلا تختفى عن الأعين بل تظل تقفز وتلعب على قارعة الطريق

وأما كلاب القرى التى انتقلت الى حال من الضراوة بسبب اقفار القرى والحقول من ساكنيها فكانت تتبعه وهى تتبادل النظرات كأنما تتشاور فيما بينها فى اللحظة المناسبة التى تنقض فيها عليه لتمزقه شر ممزق !

وقد كانت هذه الكلاب الضارية تتغذى بالجيف ، ولا تتعفف عن أكل الفئران . ولم يكن يتخلص منها ومن مطاردتها الا عندما يوغل فى الغابة فهذه الكلاب لسبب ما كانت لا تجسر على دخول الغابة

ولئن كانت الحقول قد أصيبت بضرر لهجر الانسان لها حتى بدت فى مرأى العين كاليتيمة ، فان هجر الانسان للغابات قد أضفى عليها جمالا وازدهارا ، فكأنها أسير أطلق سراحه !

فأشجار الجوز ، مثلا ، لا يتركها غلمان القرى الى ان تنضج . أما الآن فها هى ذى تتدلى ناضجة ، وتتراقص بين الأوراق وقد أوشكت على السقوط . وجمع منها يورى كومة أكلها ،

ثم ملأ جيوبه وجرابه منها وعاش أسبوعا كاملا على ذلك الغذاء الفاخر من الجوز والبنـــدق . فشعر بالبركة والأمن فى تلك الغابات ، حتى لقد تراءى له أن روح الله تسكن الغابة . أما الحقول فتتردد فيهـــا أصداء ضحكات ابليس الســـاخرة الشامتة

ووصل الدكتور بعد ذلك الى قرية محروقة مهجورة قد تقوضت جدرانها وما بقى منها كان مهجورا ، فدخل بيتا قائما مهجورا من تلك البيوت القليلة ذات مساء . وما أن دخل حتى رأى التبن ينتفض ودبت فى البيت حركة غريبة ، ثم أدرك أنه مسكون بجماعة من الفئران فزعت لدخوله وهربت فرأى أن يغادر البيت لسكانه ! وخرج ليرى الشمس وهى تغيب وراء الحقول ، فوق الضفة الاخرى للنهر ، وعليها جلس فوق حجر ملقى هناك بين الاعشاب ، ينظر الى الشاطىء العميق الذى يتوهج بأشعة الغروب .

وبعد قليل برز رأس مشعث ثم كتفان وذراعان . فأدرك الدكتور أن أحدهم كان يستقى من النهر ، لانه يحمل على كتفه قربة ماء . ولما رأى هذا الشخص الدكتور كف عن الصعود ، ثم قال :

ـ أتريد أن تشرب ؟ اذا لم تؤذنى فسوف لا أؤذيك !

ـ نعم أريد جرعة ماء . اقترب . ولماذا تخشى أن أؤذيك ؟

واقترب حامل القربة فاذا فتى فى العقد الثانى من عمره حافى القدمين مهلهل الثيـــاب ، أخذ يرمق الدكتـــور بنظرات التوجس وكأنه لا يطمئن الى كلماته الودية . وأخيرا وضع قربته على الأرض وتقدم قليلا ثم لم يلبث أن وقف مأخوذا مضطربا ، وغمغم :

ـ هذا محال ! لابد اننى فى حلم ! اعذرنى ايها الرفيق اذا ألقيت عليك سؤالا

ـ سل ما تشاء

ـ ألم أرك من قبل ؟ أنا متأكد أنى رأيتك من قبل . انت الدكتور . ألست هو ؟

ـ أنا هو ولكن من أنت ؟

ـ ألم تعرفنى ؟

ـ كلا

ـ كنا فى عربة قطار واحدة عندما سافرنا من موسكو وكنت أنا بين المساقين المجندين للسخرة

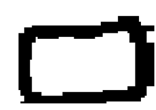
ـ فاسيا !

فارتمى الفتى على الارض أمام الدكتور وقبل يديه وبكى !

لقد كانت هذه الانقاض هى كل ما تبقى من مسقط رأسه قرية فيريتنكى . وماتت أمـه مع من مات . ألقت بنفسها فى النهر جزعا . فحينما أحرقت القرية اختبأ فاسيا فظنت أمه أنهم أخذوه الى المدينة مع الاسرى الذين سيعدمون ، فأصابها جنون مفاجىء وانتحرت . ألقت بنفسها فى ذلك النهر نفسه الذى كان يستقى منه فاسيا ، والذى يجرى تحت اقدامهما وهما يتحدثان

ويقال أن أختيه آليا وآريا على قيد الحياة فى مؤسستين من مؤسسات الايتام فى مكان بعيد . ولكنه لايدرى ان كان هذا صحيحا حقا أم غير صحيح

وهكذا رافق فاسيا الدكتور فى بقية رحلته الى موسكو . وفى الطريق حدثه عن أشياء كثيرة فظيعة رآها بعينيه فى تلك السنوات



وكان وصول الدكتور ، وفاسيا الى موسكو فى ربيع سنة ١٩٢٢ ، فى مطلع عهد السياسة الاقتصادية الجديدة . وكان

الجو دافئا ، وأشعة الشمس الساطعة تتراقص على القباب الذهبيـــــة

وكان الخطر الذى فرض على مزاولة الاعمال الخاصة قد رفع وصار من المسموح به مزاولة التجارة فى حدود ضيقة . لذا كانت الصفقات كلها تعقد بمقادير صغيرة • وترتب على ذلك تفشى أعمال الوسطاء وتقلب الاسعار • وكانت السلع التى تباع جهرا فى هذه الصفقات الصغيرة تباع بعـــــد ذلك فى السوق السوداء بعشرة أضعاف الثمن الاصلى أو أكثر

أما أصحاب المكتبات فقد اجتمعوا وجمعوا كتبهم كلها فى مكان واحد ثم أخطروا مجلس سوفييت العاصمة أنهم قرروا انشاء مكتبة تعاونية وطلبوا معونة على هذا الاساس • فسمح لهم مجلس السوفييت باستخدام محل كبير لبيع الاحذية فى وسط المدينة كان صاحبه قد أغلقه منذ بداية الثورة

وفى دكان مجاور ، كان فيما مضى متجرا للازهار ، تكونت جمعية تعاونية أخرى من زوجات الاساتذة الجامعيين يصنعن بأيديهن الخبز ويبعنه للناس وقد تخلين عن آرائهن القديمة وسرن فى ركاب الثورة

وفى موسكو قال الدكتور يورى زيفاجو للفتى :

ـ يجب أن تعمل شيئا يا فاسيا

ـ أريد أن أتعلم أولا

ـ طبعا طبعـــا

ـ وأريد أيضا أن أرسم صورة لامى من الذاكرة

ـ فكرة رائعة يا فاسيا ولكن يجب قبل هذا أن تتعـــــلم الرسم • هل جربت من قبل أن ترسم شيئا

ـ عندما كنت صبيا فى دكان خالى كنت أرسم بقطع الفحم أشكالا ، وهو غير منتبه

ـ هذه بداية لابأس بها • سننظر فى هذا الامر

وأبتدأ الدكتور يمتحنه فلم يجـده على درجـة كبيرة من البراعة والموهبة • ولكن استعداده كان كافيا لدخول معهد للرسم الصناعى • وفى الوقت نفسه تمكن يورى بمساعدة أصدقائه من الحاقه بمعهد ليلى ،تابع فيه ثقافته العامة ثم تخصص فى الطباعة والتجليد ورسم الكتب

وانصرف الدكتور الى وضع كتيبات صغيرة فى موضوعات مختلفة كان فاسيا يرسم موضوعاتها ويطبعها بكميات قليـلة باعتبارها أعمالا تدريبية على الطباعة فى المعهد ، ثم توزع بعد ذلك على محلات بيع الكتب القديمة • وفى هذه الكتيبـات آراء فلسفية ومعلومات طبية وتعريفات بالنظم الصـحية ، وتعليقات على نظرية التطور ، وأشعار وقصص قصيرة •• الخ

وجميع هذه المصنفات الصغيرة مكتوبة بلغة سهلة ،ولكنها تعتبر فكريا فوق مستوى الجمهور• وفى الوقت نفسه كانت تبدو نغمة غريبة وسط التيار الفكرى السائد حينئذ ، فراجت هـذه الكتيبات بين هواة جمع الكتب النادرة •

وفى تلك الايام أصبح كل شىء خاضعا لنظام التخصص ، حتى نظم الشعر وترجمة الكتب • وأنشئت مؤسسات لكل فرع من الفروع • فعمل يورى مستشـارا طبيا لبعض تلك المؤسسـات

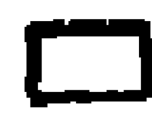
وبقى يورى وفاسيا مرتبطين مدة طويلة يتنقلان للاقامة من مكان متداع الى أنقاض خربة • وكان يورى قد توجه الى بيت أسرته القديم فوجده قد أعطى لسكان آخرين • ولم يجد أثرا لاى شىء من الاثاث القديم

وفى فترة من الفترات أصيبت الصداقة بين الدكتور وفاسيا بفتور • لان فاسيا كان قد تأثر بالآراء الثورية الجديدة التى تلقن فى المعاهد• وصار ينظر الى اراء الدكتور الخيالية كماينظر الى شىء متعفن

وفى الوقت نفسه كان الدكتور لايكف عن التردد على الدوائر الحكومية ساعيا في الحصول على عفو عن اسرته المنفية عسى أن تأذن لهم الحكومة بالعودة وفى الوقت نفسه تقدم لاستخراج جواز سفر الى باريس كي يعود باسرته من هناك • وكان فاسيا يلاحظ فتورا فى مساعى يورى فى ذلك السبيل ويتهمه بعدم الاخلاص فى مسعاه

ولم يثر الدكتور حين وجه اليه فاسيا ذلك النقد • ولكن علاقته به أخذت تفتر شيئا فشيئا • وأخيرا انفصمت عرى الصداقة تماما وافترق الاثنان ، وترك الدكتور يورى الغرفة التى كان يتقاسمها مع فاسيا وانتقل الى حى آخر كان البواب القديم ماركل ذا نفوذ قوى فيه ، فأفرد للدكتور ركنا خلفيا من بيت عتيق وهذا الركن عبارة عن غرفة حمام غير صالحة للاستعمال وغرفة أخرى ملاصقة للحمام بها نافذة واحدة وأرضهامتآكلة

وبعد أن انتقل يورى أندريفتش الى هذا المسكن هجر الطب وأهمل شأن مظهره • وتوقف عن زيارة أصدقائه • وعاش فى فقر شـــديد



وفى يوم أحد قاتم من أيام الشتاء كان الدخان يتصاعد من نيران التدفئة متسربا بلونه الاسود من النوافذ ، كان ماركل الذى أصبح مديرا لجملة من العمارات المملوكة للدولة جالسا مع عائلته ــ كعادته فى جميع ايام الاحد ــ حول مائدة كبيرة فى المطبخ يتناولون طعام الغداء • وفوق هذه المائدة بعينها كان الخبز فى فترة صرفه بالبطاقات يقطع الى أنصبة يلف كل نصيب منها فى ورقة كى يوزع على سكان العمارة جميعـــا • ولكن الحمد لله ان توزيع الخبز بالبطاقة قد انتهى وحلت محله أنواع أخرى من الرقابة • وصار فى وسع آل ماركل شابوف أن يأكلوا فى وجبة الغداء اية كمية يشاءون

وكان الموقد الكبير يملأ نصف حجرة المطبخ • وفوق سطحه العلوى فراش تتدلى الاغطية على جانبيه • أما بالقرب من باب المطبخ فكان يوجد صنبور ماء لم يتجمد ماؤه كبقية صنابير البيت • وعلى جانبى المكان صفت مقاعد لان المطبخ دافىء جدا بفضل الموقد المشتعل باستمرار فيستحب الجلوس هناك

وأمام الموقد وقفت أجافيا زوجة ماركل تحرك آنية الطعام والقدور داخل الفرن ، وقد شمرت كميها الى ما فوق المرفقين ، وتكاثف البخار على وجهها الذى أضاءته السنة النيران . وأخيرا أخرجت من وراء القدور لوحا من الصاج فوقه كعكة صنعتها . وبعد ان قلبتها على وجهها الآخر ردتها الى داخل الفرن كى تنضج . وفى هذه اللحظة دخل يورى حاملا دلوين فارغين . وقال للجميع :

ـ هنيئا مريئا

ـ مرحبا بك . تفضل كل معنا

ـ شكرا . لقد تناولت غدائى

فضحكت أجافيا ، وقالت :

ـ كلنا نعرف هذا الذى تسميه غداءك • فلماذا لا تجلس وتأكل طعاما ساخنا ؟ ان هذا الطعام ليس كالاطعمة المنفرة ، لقد صنعته بيدى

ـ شكرا ... انى آسف اذ تركت الباب مفتوحا . والبرد شديد . فانى أريد أن آخذ أكبر مقدار ممكن من الماء أملأ به حوض الاستحمام ليكون تحت تصرفى • ويؤسفنى أننى أقلقت راحتكم بهذه الصورة . ولكنى لم أعثر على ماء فى أى مكان آخر

ـ خذ ما تشاء • الماء صنف بالمجان • انه ليس شرابا !

وقهقهوا جميعا ضاحكين

وعندما عاد يورى للمرة الثالثة كى يملأ الدلوين الخامس

والسادس اتخذ الحديث مجرى آخر ، فقال ماركل :

ـ سألنى الناس عنـــك من تكون فأخبرتهم أنك الدكتور يورى زيفاجو . فلم يصدقونى . لماذا تركت الماء يبلل الأرض أيها الخائب ؟ اذا تجمد فهل أنت الذى ستزيل الجليد ؟ اقفل الباب جيدا أيها المجنون فان البرد شديد .. أجل قلت لهم من أنت فلم يصدقونى . ومعهم الحق ! تصور كل هذا المال الذى انفق على تعليمك ! فأين وصل بك كل هذا العلم يا مسكين ؟

وعندما رجع يورى للمرة الخامسة غمغم ماركل قائلا :

ـ مرة أخرى وكفى . فلو لم تكن صغيرتنا مارينا تحبك لاغلقت الباب فى وجهك غير مبال بمحتدك الكريم ! لا شـــك انك تذكر ابنتنا مارينا .. انها هذه السمراء الجالسة فى آخر المائدة. فها هو ذا وجهها قد احمرانظر ! انها تقول لى لاتحرجنى بهذا الكلام . ومن الذى يريد أن يحرجها ؟ انها فتاة مثقفة تعرف عدة لغات أجنبية وعاملة تلغراف فى المكتب الرئيسى . قالت لى عنك أنك مسكين سىء الحظ . وتألمت جدا لحظـك العاثر فى الحياة . حتى حسبت أنها لا تتردد فى احراق نفسها لو أن فى ذلك فائدة لك ! كأننى أنا المسئول عن تدهور حالك وترديك فى مهاوى الفقر ! الغلطة غلطتك أنت لانه ما كان ينبغى لك أن تهجر بيتك فى ظروف الانقلاب لتهرب الى سيبيريا . لقد صمدنا نحن هنا وقاومنا حصار البيض حتى انتصرنا ، وها نحن جميعا ما زلنا بخير وعافية . فأنت وحدك المسئول عما أصابك . ولو أنك عنيت بحال تونيا لما كانت الآن معرضة للموت فى أرض غريبة ! ولكن هذه مســألة تعنيــك وحدك . لا شأن لى بها . وكل ما يهمنى الآن أن أعرفه هو ماذا تنوى أن تصنع بهذه الكمية الهائلة من الماء ؟ لقد تبللت وصرت كالفأر المبتل

وقهقه الجميع ما عدا مارينا التى نظرت اليهم شذرا واخذت

توبخهم . ودهش يورى لنبرة صوتها ولكنه لم يدرك السر وأجاب ماركل قائلا :

ــ ان البيت قذر يا ماركل وأريد أن أمسح أرض مسكنى واغسل بعض حوائجي ايضا

واستولت الدهشة على آل شابوف ، وصاح ماركل :

ــ ألا تخجل من نفسك لانك تفكر فى أداء هــــذه الاعمال بنفسك ؟ هل تنوى أن تستبدل بالطب مهنة الغسيل ؟

وقالت أجافيا :

ــ ما هذا الذى تقول ؟ سأرسل ابنتى لتغسل لك ثيابك وتمسح لك الارض وترفو لك ما رث من ملابسك . وتكون فى خدمتك كلما احتجت الي شيء . لاتخـــــاف منه يا عزيزتى فستجدينه مهذبا جدا لا يؤذى بعوضة !

فصاح يورى :

ــ ما هذا الذى تقولين يا أجافيا ؟ أنا لا يمكن ان أفكر فى أن تقوم مارينا بمسح أرض بيتى . فلماذا توسخ يديها من أجلى ؟ سأقوم أنا بنفسى بكل ما يلزم

فقالت مارينا فى عتاب :

ــ أترى من الجائز أن توسخ أنت يديك ثم لا يكون جائزا أن أوسخ أنا يدى ؟ لماذا هذه المكابرة يادكتور يورىاندريفتش؛ الملك تقدم على طردى لو صعدت لزيارتك ؟!

وخطر على الفور ببال يورى أن مارينا جديرة بأن تكون مغنية . فصوتها صاف مستقر قوى عريض . أجل انها لم ترفع صوتها . ومع ذلك كان صوتها أقوى مما يلزم للحديث العادى . كان صوتا ملائكيا حقا

وبدأت الصداقة بين الدكتور ومارينا منذ ذهب يستقى الماء من مسكن أبيها فى ذلك اليوم من ايام الاحد . فقد أكثرت من زيارته فى مسكنه للقيام بأعمال البيت . وذات يوم مكثت

عنده طوال الليل ولم تعد الى بيت أبيها . وهكذا صـــارت مارينا زوجة يورى الثالثة مع أنه لم يطلق زوجته الاولى

ولم يسـجلا زواجهما رسميا ، وان كان هذا طبعا لم يمنعهما من انجاب الاولاد . وصار ماركل وأجافيا يتحدثان عن ابنتهما فى فخر وخيلاء ، باعتبارها زوجة الدكتور زيفاجو . وكان ماركل يقول أحيانا أن ذلك الزواج يجب أن يســـتكمل أركانه اما فى الكنيسة واما عند موثق العقود . ولكن اجافيــــا كانت تدق صدرها الكبير بيدها ، وتقول له :

ــ أمجنون أنت يارجل ؟ ان تونيا لم تزل على قيد الحيـــاة فلو تزوج مارينا رسميا لكان ذلك اقترافا لجريمة تعـــدد الزوجات !

أما الدكتور فكان يضحك احيانا ، ويقول عن حكاية زواجه:

ــ انها رواية غرامية فى عشرين جردلا من الماء !

على غرار قولهم رواية فى عشرين منظرا أو عشرين فصلا !

وعرفت مارينـــا كيف تفهم الدكتور وتغفر بدواته وتغضى عن الفوضى ، والقذارة التى ينشرها فى ارجاء البيت . فهو فى مزاجه وعاداته يجب أن يرخى لنفسه العنان . وهو يعـــلم ذلك . فما أكثر ما كان يتذمر ويثور ، وهى تغضى وتتحمله

وذهبت مارينا الى أبعد من ذلك فى اخلاصها اذ جر عليها شذوذه انها تركت عملها فى مكتب التلغراف لكى تشترك معه فى أعمال غريبة جدا . فى أعمال شاقة تتصل بخدمة البيوت ، ومنها قطع الحطب وتوريده لطبقة الاثرياء الجديدة التى كان معظمها من الفنانين والعلماء المشمولين برضوان الدولة . وقد سمحت الظروف لهؤلاء أن يقيموا فى مساكن مريحـــــة جميلة وأن يستخدموا الاجراء

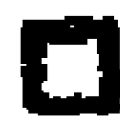
وفى ذات يوم كان يورى ومارينا يعبران بهو احد هذه المساكن حاملين الحطب الى حجرة المكتب التى جلس فيهـــا

« السيد » يقرأ كتابا استولى على اهتمامه كله . فلم يتنازل برفع وجهه ليلقى نظرة على هذين الخادمين

واستولى الفضول على الدكتور فقال فى نفسه حين رأى الرجل يسطر باهتمام شديد ملاحظات على هامش الكتاب الذى يقرؤه

ـ فلأنظر ماذا يقرأ هذا الخنزير

والقى من وراء كتف الرجل حين مر بجانبه نظرة ، فاذا على المكتب مجموعة كاملة من الكتيبات الفلسفية والادبية والعلمية التى كان يورى قد الفها فى الفترة الاولى من نزوله لموسكو ، وتولى فاسيا طبعها !



وفى أوائل صيف سنة ١٩٢٩ كان الجو حارا جدا . حتى ان الجيران كانوا يتزاورون بدون قبعات ، وبدون سترات

وكان يورى أندريفتش ومارينا يسكنان وقتئذ فى شارع قريب من الشارع الذى يسكن فيه جوردون . وقد رزق الدكتور ومارينا ببنتين : كابكا وعمرها خمس سنوات ، وكلاتسكا وعمرها ستة أشهر

وكانت حجرة جوردون جزءا من مكان كان يستخدم فيما مضى واجهة لمحل خياط . وكان المحل مؤلفا من طبقتين يصل بينهما سلم حلزونى من الحديد . وتطلان على الشارع بنافذة ضخمة كان الخياط قد كتب عليها اسمه بحروف مذهبة .

واما الآن فقد قسمت الطبقتان الى ثلاث طبقات بخلق طبقة جديدة فى الوسط . وأى شخص يمر فى الشارع يستطيع أن يرى من بداخل هذه الحجرة الى ركبتيه . لان الجزء العلوى من النافذة التى تحمل اسم الخياط يصل الى ذلك الارتفاع . ولكن جوردون تعود ذلك الوضع

وفي ذات يوم كان الدكتور زيفاجو ودودوروف ومارينا والطفلتان موجودين كلهم فى حجرة جوردون وبعد قليل انصرفت مارينا مع الطفلتين وبقى الرجال بمفردهم . وجرى الحديث فيما بينهم كما يجرى بين مجموعة من الرجال ربطت بينهم الصداقة سنوات طويلة منذ أيام الدراسة . وكان يورى اكثرهم امتلاكا لناصية الحديث لانه اكثرهم قدرة على استعمال لغة الالفاظ . أما جوردون ودودوروف فلم يكن لديهما موهبة الفصاحة والطلاقة فى التعبير وحينما تعوزهما العبارات المناسبة يذرعان الغرفة ويلوحان بأيديهما ، لانهما فى الواقع محدودا الذهن رغم ثقافتهما المتشعبة . فان الذوق الذى يهضم ويتمثل الامور لا يمكن ان تعوضه الثقافة

كان الحديث هو الذى يقودهما كالعربة الجامحة لاهما اللذان يقودانه .. لانه لم تكن لديهما القريحة الكفيلة بالقاء نظرة شاملة على الموضوع . .وكان ذلك يثير شفقة زيفاجو ، حتى لقد اوشك اكثر من مرة أن يقول لهما :

ـ ما أشد تفاهتكما أيها الصديقان العزيزان ! ليس فيكما شيء له قيمة سوى أنكما معاصران لى ، ومن أصدقائى !

ولكنه كان يكبح جماح أفكاره ويستمر فى الاصغاء لهرائهما فى صبر واناة حتى لا يجرح شعورهما

وكان دودوروف قد عاد اخيرا من منفاه وردت اليه جميع الحقوق السياسية التى حرم منها وسمحوا له باستئناف عمله فى الجامعة . وهو فى هذا اليوم يقص على صديقين قديمين مامر به من التجارب في منفاه . وهو يؤكد ان الطريقة التى عومل بها فى المنفى السيبيرى ، والاحاديث الطويلة أو الاستجوابات السياسية التى تمت مع قاضي التحقيق كانت بتفريغ محتوياته العقلية ثم أتموا تثقيفه سياسيا من جديد فصار شخصا

ناضجا صالحا لخدمة النظام السوفييتى

واعجب هذا الكلام جوردون فأخذ يؤمن عليه مثنيا ، ويعتبر ذلك الهراء متمشيا مع روح العصر . ولكن يورى أندريفتش استاء لهذه السطحية وكان من رأيه أن المفطورين على العبودية يجتهدون دائما فى ابتداع مبررات فلســــــفية للقيود التى يرسفون فيها . وهكذا كان يفعل العبيد فى القرون الوسطى

لقد رأى الدكتور زيفاجو فى ذلك علامة سيئة جدا ليس من المستساغ ظهورها لدى المثقفين السوفييت . وان كانت الدولة تسمى ذلك نضوجا سياسيا وسموا فكريا

وتلك الملاحظة أيضا أخفاها فى نفسه حتى لا يجرح شعور صديقيه . ولكنه قال لصاحبيه بعد قليل :

ـ ان الجو هنا حار خانق . يجب ان اخرج لاستنشق الهواء الطلق

ـ ولكن النافذة مفتوحة . لا شك اننا أفرطنا فى التدخين فثقل الهواء

ـ لا بأس يجب ان أخرج على كل حال . وأنتما تعلمان اننى لا أعارض . فأنا مصاب بتصلب فى شرايين القلب وقد تنفجر هذه الشرايين فى يوم ما مع اننى لم أبلغ الاربعين بعد ، ولم أفرط فى ملذاتى ولم أدمن الخمر

ـ ما هذا التشاؤم ! انك ستكون أطولنا عمرا

ـ لقد كثرت فى هذه الايام علل القلب . وهو مرض يتصل بالسلوك والطباع . فيصاب به من يعيشون حياة مزدوجة باستمرار . فمن الضرورى ان تتدهور صحتك اذا اضطررت فى كل يوم ان تقول غير الذى تعتقده ، وان تنحنى أمام من تحتقره ، وأن تستبشر بما يملأ قلبك غمـــا . والجهاز العصبى له وجود حقيقى . وله سلطان على أجسامنا . وأرواحنا لها وجود فى داخلنا كوجود الاسنان فى أفواهنا . فلا يمكن امتهان

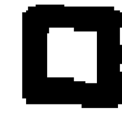
الروح من غير ثمن نؤديه . وقد تألمت ألما شديدا وأنا أسمعك أيها الصديق تمجد عملية تفريغ عقلك واعادة شحنه على حسب الثقافة السياسية الجديدة فكأنني استمع الى حصان متأبد يتشدق بكيفية ترويضه للحمل والجرى والركوب !لقد ضاقت أنفاسي . حقيقة لا مجازاً !

ـ لا تحاول المراوغة ! فلن نتركك تخرج مالم تجب اجابة صريحة على هذا السؤال : هل أنت مدرك أنه قد حان لك ان تغير منوال حياتك وتقوم ما أعوج من سلوكك ؟ وماذا أنت حازم أن تصنع ؟ وأول هذه المشاكل موقفك من تونيا وマرينا . وثانيها ان رجلا مثقفا مثلك ماهرا فى صناعة الطب لا يليق ان تنتهى حياته الى مثل هذا الضياع . تيقظ يا رجل واطرح عنك الخمول والغطرسة الفكرية . وعد الى مزاولة مهنتك

وسكت يورى قليلا ، ثم قال :

ـ لقد فكرت فى هذه الامور فى الفترة الاخيرة . وفى نيتى أن أدخل على منوال حياتى تغييرات أساسية . هذا ما عقدت عليه العزم فعلا . لاننى شعرت فى المدة الاخيرة باقبال شديد على الحياة ولا معنى للحياة الا بأن يسعى الانسان دوما نحو الكمال . وأما عن تونيا ومارينا فأنا لم أقطع صلاتى بأية واحدة منهما . كل ماهناك انى أجمع بينهما ولا أستطيع ان أستغنى عنهما . وأما أهلى الذين فى باريس فتصلنى اخبارهم باستمرار لقد كبر الطفلان وأوشك ساشا أن ينتهى من دراسته الابتدائية وأما ماشا فستدخل المدرسة قريبا وأنا لم أر هذه الطفلة مطلقا . ولكنى أشعر بارتباط غريب بها . ورغم الجنسية الفرنسية التى يتمتعون بها الآن فانه يداخلنى الاحساس بأنهم سيعودون يوما الى أرض الوطن . ويظهر ان تونيا تعرف هى ووالدها حقيقة معيشتى مع مارينا واننا انجبنا طفلتين . أنا لم أخبرهما بشىء فى رسائلى ، ولكن يظهر ان

رسائل الآخرين تكفلت بذلك التبليغ . وطبعاً شعر والدهـ بالاهانة والاستياء ولذلك انقطعت رسائله خمس سنوات . ولكن في الاشهر الاخيرة عادت الرسائل الى عهدها الاول ولعل سبب هذا اللين ان تكون تونيا التقت برجل . وارجو من كل قلبي ان يكون هذا الفرض صحيحا . والآن يجب ان أمضي والا أصابتني نوبة قلبية . وداعا



وفي صباح اليوم التالي أقبلت مارينا راكضـــة الى حجرة جوردون وهي في فزع شديد وتعب أشد اذ لم يكن لديهـــا أحد تتركه مع الطفلتين . فجرت احداهما من يدهـــا وحملت الصغرى على يدها الاخرى مدثرة باغطيتها · وسألت جوردون:

ــ هل يوري عندك يا ميشا ؟

ــ الم يعد اليك في الليلة الماضية ؟

ــ كلا

ــ لابد انه قضى الليلة عند دودوروف

ــ انا آتية الآن من هناك . ودودوروف في الجامعة ولكن الجيران يعرفون يوري جيدا وقد قالوا لي أنه لم يكن هناك

ــ أين يمكن أن يكون اذن ؟

ولم تجب مارينا بل وضعت ابنتها فوق مقعد واخذت تبكي بحرقة



ظل جوردون ودودوروف يومين لا يستطيعان ترك مارينا وحدها لسوء حالتها . فكان أحدهما يجلس بجوارها بينما يذهب الآخر للبحث عن الدكتور المفقود . واتصلا أيضـــا بجميع الاماكن التي يمكن أن يكون الدكتور قدذهب اليها وسألا عنه كل شخص من معارفه استطاعا العثور على عنوانه . ولكن جميع جهودهما ذهبت ادراج الرياح

ولم يقدما على ابلاغ الشرطة بتغيب الدكتور . فمع أنه لم يكن من المشبوهين السياسيين وليس له ملف فى البوليس السياسى ، الا أنه لم يكن يعتبر فى حياته مثلا أعلى للمواطن السوفييتى التقدمى . فقرر الصديقان أنه يجب عدم الالتجاء للسلطات فى البحث عنه الا عندما يكون ذلك الاجراء هو السهم الاخير فى كنانتهما !

وفى اليوم الثالث وصلت الى جوردون ودودوروف ومارينا رسائل من اماكن مختلفة كلها بخط يورى وتوقيعه . وفى هذه الرسائل ناشدهم الا يقلقوا عليه مؤكداً انه فى خير حال ومبديا أسفه للازعاج الشديد الذى سببه لثلاثتهم . وشدد عليهم الا يحاولوا العثور عليه ، لانهم لن يستطيعوا ذلك . وكل ما فى الامر انه اراد أن يبر بوعده فى اعادة تنظيم حياته تنظيما أساسيا سريعا . وكان لابد لتحقيق هذه الخطوة من الاختلاء بنفسه. ومتى استقر فى عمل مناسب وتأكد من أنه دفن أسلوبه القديم فى المعيشة ، فلن يتردد فى ترك مخبئه الاختيارى كى يعود الى مارينا والطفلتين

وفى رسالته الى جوردون طلب منه ان يدبر أمر مربية للطفلتين كى تتمكن مارينا من العودة الى العمل فى مكتب التلغراف وأرسل اليه «حوالة» مالية بمبلغ أدهش الصديقين . فأسرع جوردون باستئجار مربية . وعادت مارينا فعلا الى عملها الاصلى فى مكتب التلغراف

ولم يفارق الاضطراب والقلق مارينا مع أنها كانت قد تعودت من يورى الشذوذ والنزوات . ومع ذلك لم تجد بدا من الاذعان

واستمر الثلاثة يواصلون بحثهم عن الغائب بتؤدة ولكنهم بعد قليل أيقنوا ــ كما أخبرهم من قبل ــ ان البحث عنه عبث ليس تحته طائل

ولكن يورى لم يكن يبعد عن بيت جوردون بأكثر من مائة خطوة لانه عند خروجه من هناك التقى بأخيه ايفكراف ولم يكن رآه أو سمع أخباره منذ ثلاث سنوات . وعرف منه أنه عاد فى هذه اللحظة فقط الى موسكو فجأة . وكلما ألقى عليه يورى سؤالا تخلص من الاجابة بلباقة ، وكانت أفضل وسائله فى المراوغة هى النكتة

ولكن ايفكراف استطاع بسؤال أو سؤالين أن يعرف من يورى حقيقة حالته ومتاعبه . وعلى الفور رسم خطة ارتجالية لانقاذه. وكانت الخطوة الاولى فى هذه الخطة هى اختفاءيورى المفاجىء مدة من الزمن

واستأجر ايفكراف لأخيه حجرة فى شـارع كامرجا قرب مسرح الفنون . وأعطاه مالا وفيرا . وحصل له على عملمحترم فى أحد المستشفيات مع تخصيـص معمل له هناك لاتمـام ابحاثه

وأتم ايفكراف مكرمته بأنوعده بحل مشكلة عائلته الموجودة فى باريس ، وذلك بأن يمكنه من الذهاب اليهم ان لم يستطيعوا هم الحضور اليه

وكان لهذه النجدة الحاسمة أثرها فى أنتعاش روح الدكتور ولكنه ظل يجهل سر نفوذ شقيقه ايفكراف بل ولم يحاول أن يميط اللثام عن ذلك السر

وكانت الحجرة التى يسكنها يورى تطل على جهة الجنوب وتكاد تحاذى بناية مسرح الفن . فكانت فى نظره عالما صـغيرا قائما بذاته ، لا مجـرد مكان للنوم والعمـل . وعلى مكتبـه تكدست الكراسـات التى كانت تضيق عن أفكاره ففى هـذه الحجرة كانت ترتسم وتتجسد وتتحقق جميع أحلامه الفكرية والفنية

ومن المصادفات أن مفاوضات شقيقه مع ادارة المستشفى

الذى سيلحقه به تعثرت . فكان موعد تسلمه العمل يتأجل مرة بعد مرة ، فأتاحت هـذه التأجيلات ليورى أن ينصرف بكليته الى التأليف

وقد بدأ بتدوين أولى قصائد شبابه من مسودات حصل له شقيقه عليها . ولكن هذه القصـائد القديمة بدت له بعد قليل شيئا باهتا فلم يلبث أن تركها وشرع فى نوع آخر من العمل . فكان يبدأ فى تسويد مقال عن انطباعاته مثلا عنـدما ذهب أول مرة الى فاريكينو . ولـكنه لا يمضى صـفحة أو صفحتين فى ذلك العمل حتى يسأمه ويبدأ فى تسجيل مطلع قصيدة جديدة تواردت فى تلك اللحظة على خاطره

وفى أحيان أخرى كان يجد صعوبة كبيرة فى ملاحقة أفكاره لتسجيلها ولو بطريقة اختزالية . ولـكن لحظات ذلك الالهام كانت لا تطول . ثم تصاب مخيلته بنوبة ركود أو استرخاء ، فيحاول أن يوقظ قابليته الهامدة برسم تخطيطى على هامش الكراسة . ومعظم هذه الرسوم التلقائية كانت تمثل مفارق الطرق

ومن العجيب أن جميع مقـالات يورى واشـعاره فى تلك الفترة كانت تنصب كلها على موضوع واحد هو المدينة

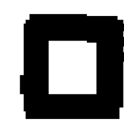
وهذه بعض النبذ التى وجـدت ، فيما بعد ، بين أوراقه من مخلفات تلك الفترة

« حينما عدت الى موسكو سنة ١٩٢٢ رأيتها وقد هجرها أهلوها وتحول معظم أبنيتها الى خرائب . انها تحمـل آثار متاعب وآلام الاعوام الاولى بعد الثورة . لقد قل عدد سكانها كثيرا ولم يشيد فيها بناء واحد جديد . أما البيوت القديمة فقد أصبحت نهبا للاهمال . ومع هذا فموسكو لم تزل مدينة عصرية كبيرة . والمدن هى الينبوع الوحيد لوحى الفن الحديث

« ان البساطة الريفية لم يعـد لها محـل فى الآثار الفنية

الحديثة . وكل ابراز لها فى الفن انما هو تزييف . فالاحساس الريفى قد انتهى عصره . وكل محاولة لتقليد البساطة الريفية انما هى خدعة تعتمد على الانشاء والتكلف . فروح عصرنا الحديث لا تعرف الا لغة واحدة هى لغة المدينة

« ان الضجيج الدائم الذى لا ينقطع ليلا ونهارا فى شوارع المدينة لازمة من لوازم الروح العصرية . فكأن هذا الضجيج المقاطع الاولى من افتتاحيات الاوبرا التى تؤذن بقرب ارتفاع الستار »



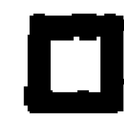
وفى صباح يوم من اخريات أيام شهر أغسطس ركب يورى السيارة العامة متجها لاول مرة الى مقر عمله فى المستشفى . وكان قد ذهب اليه قبل ذلك مرة أو مرتين لاستفسارات تتعلق بعمله الجديد . ولسوء حظه كانت هذه السيارة العامة تتعثر فى سيرها وتقف بين الحين والحين . وكانت هذه السيارة سببا فى تعطيل المواصلات ومضايقة الناس ، أما يورى فظل جالسا على مقعد منعزل فى الجهة اليسرى وراح يحدق فى المارة ويرسم لنفسه صورا خيالية لحياتهم وتشابكها

واستأنفت السيارة العامة سيرها ثم بدأت تصعد تلا . فشق عليها الصعود وتوقفت فى منتصف الطريق . وزاد الامر تعقيدا ان المطر بدأ ينهمر قطرات كبيرة . وفى هذه اللحظة أحس الدكتور بغثيان وضيق فى التنفس . فتحامل على نفسه ووقف ليفتح النافذة فلم يستطع . وصاح الناس من حوله ينبهونه الى أن النافذة مغلقة بالمسامير . ولكنه فى كفاحه ضد نوبته التى بدأت تشتد عليه لم يتبين معانى كلماتهم واستمر يحاول فتح النافذة . ثم اشتد عليه الالم بصورة لم يعهدها من قبل . فأدرك ان شيئا بداخله قد انفجر . وأن نهايته قد حانت . فجمع ارادته فى استماتة واندفع يزيح الناس من أمامه الى مؤخرة السيارة حيث مكان

الوقوف وحيث الباب ، فجعل الناس يحدقون فيه متعجبين :
واحس هو ان الهـواء الطلق الذى دخل رئتيه قد انعشه .
فظن أن كل شيء على ما يرام . ثم جعل يدفع الناس الواقفين امامه غير مبال بالسباب والسخط الى أن نزل من السـيارة المعطلة . وما أن مشي خطوتين حتى انكفأ على رصيف الشارع ولم يستطع النهوض

وعلى الفور قفز بعض من كانوا فى السيارة وقد علت ضجتهم وجعلوا يجسـونه . وسرعان ما اكتشـفوا انه جثة هامدة لايتردد فيها نفس ولا ينبض قلب

وتضخمت الحلقة التى تحيط بالجثةوكبر عددها . ومعظم القادمين كان الفضول يرتسـم على وجوههم من غير تأثر .
واقترح بعضهم نقل الجثة الى السيارة العامة كى توصـلها الى المستشفى . واقترح آخرون تبليغ الشرطة



ومن باب الحجرة المفتوح كان الناظر يرى مكتبا صغيرا فى ركنها يعلوه تابوت قد اتجهت قدماه الى ناحية الباب

وعلى هذا المكتب عينه كان يورى يقضى معظم ساعات أيامه الاخيره مسجلا سوانحه . تلك السوانح التى محيت جميع كراسـاتها من فوق المكتب ووضـعت فى الادراج كى تفسـح المجال للتابوت الكئيب

وكانت الجثة محاطة بباقات كبيرة من زهور الزنبق البيضاء التى يندر وجودها فى ذلك الوقت من العـام . وكانت هنـاك سـلال أخر من زهور مختلفة الالوان بلغ من كثرتها انهـا حجبت الضوء الذى أخذ يدخل من النافذة فيتسلل من بين البراعم ليسقط على وجه الطبيب الفنـان الذى يحاكى فى شحوبه لون الثلج

وكان الاتجاه الجديد الى حرق الموتى قد بدأ ينتشر . ولما

كان التغاضي عن الجناز الديني والطقوس الكنسية للدفن أمرا مستحسنا كي يسهل الحصول على اعانة للبنتين ، وحتى لا يتعرض مركز مارينا فى مصلحة التلغرافات للاضطهاد ، فقد رئى الالتجاء الى السلطات السوفييتية لتتولى احراق الجثة حسب النظام التقدمي . وكل شيء الآن فى انتظار وصول ممثل السلطات الموكل بهذا العمل

ولم يكن الصمت سائدا تماما فى حجرة الميت . لان وقع أقدام القادمين لاستئجار الحجرة لم ينقطع . وكذلك وقع اقدام المعزين . بيد أن المعزين كانت أقدامهم بطيئة . وأما الراغبون فى استئجار الحجرة فكانوا يتحركون بنشاط ورهبة

لم يكن عدد المعزين الوافدين لتحية الجثمان قليلا . فان اشعار يورى ومؤلفاته العلمية المبسطة جعلت له مكانة محترمة وكونت مجموعة من الاصدقاء المجهولين أحبوه عن بعد ولم يروه قط . فلما سمعوا نعيه حضروا كلهم ليلقوا على الاستاذ النظرة الاولى والاخيرة

لقد كان هذا الاجلال النزيه ، وباقات الزهر الكثيرة خير عوض عن الطقوس والبخور والادعية والشموع

ومنذ نقل الجثمان الى تلك الحجرة والحركة دائبة فى البيت . وكانت مارينا أول من حضر فارتمت على الارض وقد أطاشت الصدمة المروعة بعقلها وجعلت تدق بيديها على غطاء التابوت وتصيح بهم أن يفتحوه لترى الحبيب ، ودموعها تنهمر من عينيها كالشلال الدافق وصوتها العريض القوى يهز القلوب بتلك الصرخات التى ارتدت وراء التعبير اللغوى للتعبير عن الالم بالصيحة الحزينة والنشيج المختنق . ثم تندفع فى أعوال ومراث كالتى تعود أبناء الريف أن ينوحوا بها على الاحبة الراحلين . ولم تكن تعى للغرباء وجودا حتى تحتشم أو ترعوى

ولما كشفوا الغطاء عن الصندوق التصقت بالجثة فوجدوا عناء شديدا فى التفريق بينهما

كل ذلك حدث فى اليوم السابق . أما اليــوم فقد انهدت قواها فلم تستطع أن ترفع عقيرتها بالبكاء ، فكأنها فى شــبه غيبوبة من الاسى ، وهى جالسة فى هدوء وصمت

انها لم تفارق هذه الغرفة منذ نهار امس . وقد احضروا لها الطفلة كى ترضعها ، وحضرت الابنة الكبرى مع المربية برهة ثم انصرفت . وكان الصديقان جوردون ودودوروف لا يفارقانها وقد أذهلهما الحزن كذلك . أما والدها ماركل فكان يبكى طول الوقت بصوت مرتفع ، ثم يتمخط بصوت مرتفع أيضا . وأمها واخواتها من حولها ينحن أسفا على حظ أختهن العاثر

ودخل رجل وامرأة لم يظهر عليهما شىء من الحزن الذى ظهر على مارينا وآلها ولكن الاثنين كانا يبديان اهتماما شديدا بالبيت ، وقد أخذا علىعاتقيهما اتخاذ التدابير اللازمة لتشييع الجنازة واحراق الجثة

وقــل من بين الحاضرين والمشــيعين من عــرف هــذين الشخصين وقل من بينهم أيضا من استطاعوا عند التخمين أن يعرفوا من هما على وجه الظن

وبمجرد أن دخل الرجل والمرأة الجميلة الحجرة نهضت مارينا وآلها وخرجوا الى الدهليز الخارجى وتركوا الرجــل والمرأة وحــدهما مع الجثــة . فجلسا على كرسيين قرب الحائط ، وقالت الحسناء لصاحبها :

ــ ماذا وراءك يا ايفكراف ؟

ــ الليلة سيتم احراق الجثة . ففى مدى نصف ســاعة سيصل مندوبون من نقابة عمــال الطب لتسلم الجثــة كى ينقلوها الى نادى النقابة . وهناك فى الساعة الرابعة ستجرى

جميع الطقوس الدينية . والآن سأتركك ، لان جرس التليفون يرن

وخرج ايفكراف الى الممر المزدحم بالمعزين المتهامسين فيما بينهم وتناول السماع . وأخذ يتكلم بصوت مختنق ليرد على أسئلة محدثه المتعلقــة بمراسم الجنــازة وملابسات وفاة الدكتور . ثم عاد الى الحجرة واستأنف كلامه مع الحسناء :

ـ وارجوك يا لارا الا تختفى بعد الانتهاء من حرق الجثة . فلابد أن أعرف اين تقيمين . وأنا بحاجة اليك كى تسدى الى معروفا كبيرا . فانى أريد منــذ الغد أو بعــده أن أبدأ فى حصر اوراق أخى وترتيبها . وما من أحد يمكن أن ينجز ذلك العمل خيرا منك . فأنت تعرفين عنه الكثير ، بل لعلك أعرف بنى آدم به وبدخائله . لقد قلت لى انكوصلت من اركوتسك فى سيبيريا منذ يومين فقط . وأنك لاتنوين الاقامة طويلا . وأنك أتيت الى هذا المسكن وأنت لاتعرفين ان اخى يقيم فيه وأن حضورك كان لاسباب أخرى ، وهذا كله كلام غير واضح فى ذهنى ومع ذلك أرجوك ألا تبتعــدى أو تختفى من غير أن تتركى لى عنوانك . وقد يكون من الافضل ان نقضى الايام القليلة القادمة فى غرفتين بهذا البيت كى نعكف على انجاز تجهيز مخطوطاته للنشر فى أقرب وقت مستطاع

ـ لماذا تقول ان كلامى غير واضح ؟ وماوجه الغموض فيه ؟ لقد وصلت الى موســكو فتركت حقائبى أمانة فى المحطــة وسرت فى شوارع موسكو القديمة فاذا بمعظمها وقد تهدم فلم أستطع التعرف عليه لتقادم العهد . وظللت أمشى من شارع مجهول الى شارع آخر مجهول حتى وجدت أخيرا شارعا معروفا عندى هو شارع كامرجر . هذا الشارع نفســه ، فقد كان زوجى باشا أنتيبوف ـ الذى قتل ـ يسكن وهو تلميذ هذه الغرفة بالذات التى نوجد فيها الآن انت وأنا ويورى

وعن لخاطرى أن أدخل العمارة لعل بعض السـكان القدماء لايزالون قاطنين هنا . ولكن تبين لى أنه ما من أحد منهم له إثر . فلما صعدت الى هذا الطابق أدهشنى أن أرى البـاب مفتوحا وارى ضجة كبيرة وتابوتا مسجى فوق مكتب . هذا رجل ميت اذن ! وتساءلت من هو ، فدخلت بدافع الفضول والقيت نظرة ، فكدت أفقد عقلى وكنت أنت حاضرا فرأيتنى

ــ عفوك . لقد قلت الآن أن باشا أنتيبوف قتل . ولكنى اعرفه جيدا . لقد أصبح فيما بعـد قائدا وسياسيا معروفا باسم سترلينكوف . وكنت معجبا به جدا . وانا واثق أنه لم يقتل ، بل انتحر

فقالت لارا باصرار :

ــ سمعت هذه الاشاعة . ولكنى رفضت تصديقها . فما كان باشا بالرجل الذى يقدم على الانتحار !

ــ على رسلك يا لارا . ولكنى واثق أن أنتيبوف انتحر . أخى أكد لى ذلك . قال انه حضر بعد سفرك بقليل الى البيت الذى كنتما تعيشـان فيه فى فاريكينو . ولما وجدك رحلت انتحر . وقد عثر أخى على الجثة ودفنها

ــ هل انتحر حقـا ؟ طالما قال لى الناس ذلك ولكنى لم أصدق ! ان هذه التفاصيل ذات اهمية عظمى فى نظرى

ورسمت علامة الصليب على وجهها وازدردت ريقها ، ثم قالت له :

ــ ما أعجب تصاريف القدر ! ولكنى احب أن أعرف مزيدا من المعلومات عن ظروف انتحـاره . ولكن الوقت الآن غير مناسب لذلك طبعا فأرجو أن تسمح لى فى فرصـة أخرى بمزيد من الاستفسار فى هذا الشأن

ــ بكل سرور

ــ آه ! لقد طلبت منى أن أعدك بعدم الرحيل أو الاختفاء

قبل أن نرتب أوراق أخيك . وانى اعدك بهذا . فكم يسعدنى ويسرى عنى ان اراجع مرة اخرى مخطوطات ومخلفات يورى العزيز . فليس مثلى من يعرف دقائق خطه ومصطلحاته ! لقد تسربت معرفته الى دمي . ثم انى سأكون بحاجة الى معونتك أيضا فى أمر خطر للغاية . ان المسألة تتعلق بطفل مسكين . ولكن يجب أن ترجىء هذا الموضوع الى مابعد العودة من المحرقة . ما أنكد حياتي ! ولكن لماذا لا آتى واسكن هذه الحجرة مع عزيزتى كاتنكا . انها ذات موهبة خارقة فى الموسيقى والتمثيل وليتها تلتحق بمعهد للتمثيل أو للموسيقى . وهذا بالضبط من أهم أسباب حضورى الى موسكو . ولكننا سنتحدث عن هذا أيضا فيما بعد ... فانى أسمع لغطا عند الباب ولعل المختصين حضروا لاخذ الجثة فمن المستحسن أن تفتح الباب وتدعهم يدخلون

وقام ايفكراف وفتح الباب . ولكن لارا كانت قد ألصقت شفتيها بوجنة يورى وذهبت فى شبه غيبوبة حزينة

لقد فقدت الجميع ، أحبت اثنين مات أحدهما وانتحر الآخر . ولن يبقى حيا الا ذلك الذى حاولت أن تقتله بالرصاص فأخطأته وعاش ليتم تشويه حياتها

وحز فى نفسها جدا ألا يقام له قداس فى الكنيسة . فان طقوس الجنازة الدينية فخمة ذات أبهة ورواء ! فخامتها لا يستحقها الكثيرون من الموتى . اما يورى فما أجدره بكل جليل مهيب ! !

لقد هزتها شهقاتها المكبوتة ، لانها قاومت دموعها ، وبذلت فى ذلك جهدا فوق طاقتها . الا أن الصدمة كانت أقوى مما تحتمل أعصابها ، فانهمرت عبراتها ، وبللت وجنتيها وثوبها ، والتابوت الذى التصقت به

أعياها الكلام فلم تنبس ببنت شفة ، ولكن سيلا من الافكار

والرؤى والحقائق والنظرات والذكريات ، تتابع أمام ذهنها ، وزحمه ، وكم حدث ذلك مرارا لها من قبل خلال احاديثهما فى سكون الليل . كانت فيما مضى تشيع فى نفسها السعادة ، فقد كانت انسجاما وتفاهما ، وعواطف حارة نابعة من القلب

لقد عرفت الآن ، أنهـا المعرفة الغامضـة بالموت ، التهيؤ للنهاية ، تهيؤ يمحو كل شعور بالقنوط فى حضرته . لكأنها عاشت عشرين حياة ، الحيـاة تلو الاخـرى ، وفقدت يورى مرات لا تعد ، وتجمع فى نفسها من هذه الخلجات القلبيـة ما جعل كل ما تحسه الآن بجانب هذا التابوت صحيحا

لقد كان حبهما فريدا ، لا مثيل له ، فكانت مشاعرهما أشبه ماتكون بأنشودة ملائكية

لقد تحابا حبا لاتنفصم عراه ، لا حب مصلحة ، ولا بدافع الفريزة . لقد كان حبهما ساميا فوق مستوى الماديات ، وكانا يشعران أنهما ليسا وحدهما اللذين ينتشيان بذلك الحب ، بل انه كان يضفى السعادة على ما يحيط بهمـا أو يتصـل بحياتهما . وقد أحسا أن ذلك الحب عنصر من عناصر جمال الكون كله ، كان اندماجهما فى بعضهما بمثابة نسمة الحياة لهما

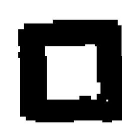
والآن ، وهى تراه مسجى أمامها ، تودعه وتبكيه ، وترثيه بكلمات تخرج من أعماقها ، يدفعهـا الحزن والاسى ، مبللة بدموع قلبها . وكانت عبراتها أصدق تعبير لمشاعرها ، وكأنها كلمـات تنبعث فى همس رقيق هو أشـبه بحفيف أوراق الاشجار ، وهى تقول :

حبيبى يورتسكا ، هاهى ذى الاقدار تجمعنا مرة ثانية .. يا لسخرية القدر ! لقد تخير لنا أقسى طريقة جمع فيها بيننا . هل هناك ماهو أفظع من هذا اللقاء .. ؟! اننى لا احتمل .. وليس باستطاعتى أن أكف عن النحيب . وهذا الذى أراه امامي الآن ان هو الا احدى حلقات حياتنا ، ولكنه الحلقـة

الاخيرة تتلخص فى كلمتين : ذهابك .. ونهايتى .. ولـكنه أمر فوق طاقة البشر ، لارجعة له . احجية الحياة والموت ، وسحر العبقرية والجمال الرباني ، كنا نستمتع بها ، ضاربين صفحا عن هموم الحياة الصغيرة .. وداعا يا معبودى العظيم يا قرينى بالروح ... وداعا يا من رفعتنى بحبك الى ذروة المجد والعزة ... وداعا أيها النهر العميق المتدفق حيوية ، كم احببت هديرك ، وكم أحببت أن اغوص فى أمواجك ... هل تذكر لحظة فراقنا ؟ وكيف انهارت أعصابى ، لانك تخلفت وتركتنى أذهب بدونك ... أعرف ان ذلك لم يكن عن رضا من نفسك ، بل انك ضحيت فى سبيل ذلك ، ظنا منك أنه من اجل اسعادى ... ولكن تهدم كل شيء فى حياتى . ويعلم الله كم قاسيت ، وكم تعذبت ، ولكن أنى لك أن تعرف !! آه ... ماذا جنيت يايورا ؟ اننى مجرمة .. انك لا تدرى ، ولكن الذنب ليس ذنبي ، قضيت ثلاثة أشهر بالمستشفى ، وشهرا رابعا وأنا فاقدة الوعي . وعند ذلك أضحت حياتى سعيرا وعذابا .. ان روحي ثائرة لا تعرف السلام . يكاد الندم المسموم والالم المضنى يفتكان بى . اننى اخفيت عنك أهم أمر ، لأننى لا أقوى على البوح به ، وفى كل مرة أستعيد فيها هذه الذكرى يفترسنى الرعب . لعلى لست مالكة لقواى العقلية »

وراحت لارا تهذى وتنتحب فى لوعة وأسى . ودون وعى منها ، رفعت عينيها فى دهشة ، وأجالت النظر فيما حولها ، فرأت الرجال وقـد دخلوا الحجرة ، وانهمكوا فى عملهم ، فابتعدت عن التابوت ، وقد غطت عينيها بيديها ، لتمسح دموعها

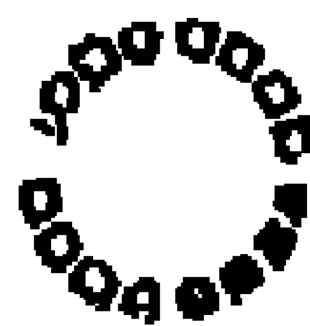
وحمل الرجال التابوت ، وابتدأ سير الجنازة



مكثت لارا بضعة أيام فى شارع كامرجر ، وأخذت تعاون

ايفكراف فى جميع مخطوطات زيفاجو ، وأخذت تتحدث الى ايفكراف فى امور كثيرة ، واخبرته بحادث هام

وخرجت لارا ذات يوم ، ولم تعد . ولعلها أعتقلت أثناء سيرها فى احد الشوارع . فقد اختفت ولم تترك وراءها اى اثر ، ترى هل ماتت فى أحد معسكرات الاعتقال فى الشمال ؟!



الفصل الخامس عشر

ما بعد النهاية

تم اقتحام كورسك وتحرير اوريل فى صيف عام ١٩٤٣ ، وكان المقدم دودوروف ، والملازم جوردون ، الذى رقى حدثا الى هذه الرتبة ، عائدين من موسكو ، وكان دودوروف في اجازة لمدة ثلاثة ايام ، كما كان جوردون يقوم بمهمة عسكرية

وعندما تقابل الاثنان وهما عائدان ، أمضيا الليل فى تلك المدينة الصغيرة تشيرن ، وكان نصيبها من التدمير أخف بكثير من المدن الاخرى فى تلك المنطقة التى اكتسحها العدو وأعمل فيها التخريب والتدمير أثناء انسحابه

وباتا ليلتهما عند مستودع لم يتهدم ، بين أكوام من القرميد والحجارة المفتتة التى تخلفت عن تدمير المدينـة . على أن النعـاس جفاهما ، فقطعا الليل فى الثرثرة . وأخيرا تغلب النوم على دودوروف ، فى الهزيع الاخير من الليل ، ولكنـه ما لبث أن استيقظ فى الساعة الثالثة صباحا والشمس لاتزال فى خدرها بسبب الضجة التى أحدثها جوردون ، اذ كان يأتى بحركات عجيبة ، يتدحرج ويتقلب فى الشوفان النضر ، كى يجمع ثيابه ويحزمها ، ثم هبط عن الشوفان واتجه نحو باب المستودع ، فسأله دودوروف فى استياء :

— الى أين يا صاحبى ؟ لا يزال الوقت مبكرا !

— أريد أن أغسل ثيابى فى النهر

— وما الداعى ؟ اننا سنلحق بفرقتنا فى هذا المسـاء ، وستريحك الغسالة من هـذا العناء وتبدل لك ثيابك ، لماذا تتعجل الامور ؟

ـ لقد تشربت ملابسي الداخليـة بالعرق من فرط التعب وشدة الحر ، ويجب أن أغسلها فورا وبسرعة ، وستجففها الشمس بسرعة أيضا ، فأستطيع أن أستحم والبسها نظيفة

ـ وهل يليق بك ، وأنت ضابط ، أن تفعل ذلك ؟

ـ الناس نائمون ، وسأتوارى ، ولن يرانى أحد . الافضل لك أن تنام بدلا من هذه الثرثرة

ـ لن يعاودنى النوم ، ولذلك سأرافقك

واتخذا طريقهما الى النهر ، فى محاذاة انقاض الاحجار الدافئة ، رغم أن الوقت لا يزال مبكرا . وصادفهما فى الطريق اناس تمددوا وسط الشوارع تلفحهم اشعة الشمس ، واحتقنت وجوههم وتصببت عرقا . وكانوا مجموعة من الرجال والنساء والاطفال ، تهدمت منازلهم ، بينهم بعض الجنود المحالين على الاستيداع . وقد سار جوردون ودودوروف فى حذر شديد بين النائمين ، حتى لا تصطدم أقدامهما بهم . وقال جوردون بصوت هامس :

ـ اخفض صوتك ، والا فسيستيقظون ، فلا أتمكن من غسل ثيابى

ثم تابعا بصوت هامس حديث ليلتهما السابقة

ـ أتعرف اسم هذا النهر ؟

ـ لا . لعله نهر زوشا

ـ أؤكد لك أنه ليس نهر زوشا

ـ أصارحك أننى لا أعرف اسمه

ـ لقد وقع حادث كريستينا على نهر زوشا

ـ صحيح ، فى أسفل النهر . قيل أن الكنيسة اظهرت قداستها

ـ كان هناك بناء حجرى اسـمه الاسطبل .. اسطبل سوفخوز ، وقد أصبح اسما تاريخيا . وكان الاسطبل عريقا

فى القدم ذا جدران ضخمة سميكة ، قام الالمان بتحصينه فجعلوا منه حصنا منيعا . وكانت المنطقة مكشوفة لهم ، على مرمى نيرانهم ، مما عاق هجومنا . فكان لزاما علينا أن نستولى على ذلك الاسطبل ، وأبدت كريستينا من المهارة والشجاعة ، ماأخذ بمجامع القلوب ، كى تقتحم المتاريس لتنسفه ، ولكن الالمان اعتقلوها ثم شنقوها

ـ لماذا تدعوها كريستينا أورليستوفا ، ولا تدعوهـا دودوروفا ؟!

ـ لأننا لم نكن قد تزوجنا بعد . فقد تواعدنا فى صيف عام ١٩٤١ على الزواج بعد أن تضع الحرب أوزارها . ولكنى اضطررت الى التنقل مع فلول الجيش ، وتعدد نقلى . ففقدتها ولم أرها بعد ذلك قط . أما معجزتها وموتها موت الابطال ، فقد سمعت بهما ، شأنى فى ذلك شأن سائر الناس ، من الصحف ، وأوسمة الجيش التى قلدوها اياها بعد استشهادها وأغلب الظن أنه سيقام لها نصب فى المنطقة . فقد وصل الى علمى أن الجنرال زيفاجو شقيق يورى اندريفتش ، يطوف بهذه الاماكن ليجمع كل ما يتصل بها من معلومات

ـ معذرة أيها الصديق اذ استدرجتك الى الحديث عنهـا فلا بد أن ذلك يبعث فى نفسك الاسى والشجن

ـ خل عنك ، اننا نتحدث . الق عنك ثيابك ، وانزل الى الماء ، لتفعل ما جئت من أجله . أما أنا فسأتمدد على الشاطىء ، وقد تأخذنى غفوة . . . وأحلم

ومضت فترة قصيرة ، ثم استأنفا الحديث :

ـ انك تتقن الغسيل ! كيف تعلمت ذلك ؟

ـ الحاجة أم الاختراع . ومن تضطره الظروف الى أمر ما يبذل جهودا ويتعلم كثيرا لكى يحصل على مبتغاه . لم نـكن من المحظوظين ، فقد صادفتنا أشنع المخيمات التأديبية ، وقد

فنى فيها الكثير . فمنذ أن وصلنا ، تخرج الفرقة الى مسطح من الثلج ، وقـــد تأبط الحراس بنادقهم ، تتبعهم الكلاب البوليسية ، ثم يؤتى بفرقة أخرى ، ونقف على امتداد الحقل على شكل دائرة كبيرة ، ظهورنا الى الداخل ، حتى لا يرى أحدنا الآخر . وتصدر لنا الاوامر أن نجثو على ركبنا ، ومن يحاول الالتفات الى غيره اصابه عقاب صارم . وعندئذ تبدأ اجراءات التفتيش المذلة التى تستغرق ساعات طويلة ، ونحن راكعون . وتصدر الاوامر لنـــا بالوقوف ، وتذهب الفرق الاخرى الى مكان آخر . أما نحن فنجدهم يوغلون فى ايلامنا ، اذ يأمروننا :

« هذا مخيمكم ! امرجوا فيه كما تشاءون ... وسـط صحراء من الثلج ، ينتصب فى وسطه عمود كبير ، يحمل لافتة مؤداها « قيادة المخيمات الرئيسية » أليس ذلك فظيعا ؟! »

ــ لقد قاسيتم أكثر منا ، ولذا نعتبر أنفسنا أوفر منكم حظا ، لأن أوضاعنا تختلف عن ذلك . اذ أن اعتبارى اعيد الى حين سرحت ، فاستطعت أن استأنف دراستى ، فلما نشبت الحرب واشتد أوارها ، استدعيت برتبة مقدم ، ولم التحق بسرية التأديب مثلك

ــ نعم . لم نر أمامنا الا ذلك العمود ذا اللافتة ، فكنا حين يشتد الصقيع ، نضطر الى تكسير الاغصان بأيدينا لكى نقيم أكواخا . قد يبدو ذلك غريبا فى نظرك ، ولكننا ، شيئا فشيئا ، أقمنا كل شىء بأنفسنا ، فكنا نبنى الغرف والاسوار والسجون وابراج المراقبة من أغصان الاشجار . وبعد ذلك أخذنا نستثمر الغابة ، فكنا ننقل الاخشاب الضخمة على عربات يجر كل عربة منها عدد من الجياد ، وكان الثلج يغمرنا حتى الصـدور . وقضينا على هذا الحال وقتا طويلا حتى عرفنا أن الحـرب قد اندلعت . ولم نخبر بذلك بادىء الامر . وفى أحد الايام

جمعنا وأنهى الى مسامعنا ان المتطوعين فى السرايا التأديبية سيسرحون اذا نجوا من المعارك . وحدث بعد ذلك ماحدث ، وياالهول ماحدث ، هجوم مستمر وأمامنا أميال من الاسلاك المكهربة والالغام والمدافع ، وانقضت شهور تتلوها شهور ، ونحن فى عاصفة من النار . فكنا كمن صدر عليهم حكم الاعدام ، فكان الموت يحصدنا عن آخرنا . ولا تسلنى كيف نجوت ، كيف استطعت النجاة ؟ ! وهل تتصور ذلك ، ان هذا الجحيم الدامي يعتبر جنة اذا قورن بالاهوال فى معسكرات التجنيد . لم تكن المسألة مسألة الاضطرار وقسوة الظروف ، بل كانت هناك أسباب اخرى

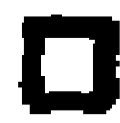
ـ لقد وفيت حقك يا صديقى

ـ لا يدهشنك اذن ان ترانى أجيد الغسيل ، فأى شيء لايتعلمه الانسان فى حياة كهذه ؟!

ـ لقد جاءت الحرب فقلبت كل شيء واثرت فى حياتنا ، وكأنها رسول الخلاص للأفكار وجميع مجالات الحياة . فقد وضعت حدا لتسلط الاوهام الاعتقادية على عقول الناس . ولم يفرح بها المتهمون من أمثالك وحدهم لانها زادت من حريتهم ، بل شعر الجميع فى الجبهة والمؤخرة على السواء بسعادة غامرة وهم يخوضون ذلك القتال الرهيب الذى يستخلص الحياة من براثن الموت

ـ لقد بدأت الآن النتائج البعيدة للحرب تظهر للعيان . فكوارث الحرب التى هزت أساس الأخلاق زودت الجيل الجديد بالصلابة وروح المغامرة والجلد والحماسة . ولهذا تجدنى سعيدا على الرغم من استشهاد كريستينا ، وعلى الرغم مما أصابنى من جراح وخسائر . وبالرغم من الاثر المدمر الدامى الذى يصحب الحروب عادة . ولا شك أن الذى أعاننى على تحمل الالم الذى سببه لى موت كريستينا ،

هو مجد التضحية الذى يضيىء لنا حياتنا جميعا كما أضاء نهاية حياتها ، وكانت كريستينا طالبة فى كلية التاريخ حينما كنت رئيسا للقسم الذى اختارته ، فاسترعى انتباهى نبوغها الباكر . وقد تحدثت معك فى ذلك حينما كان يورى على قيد الحياة . وفى هذه الفترة بالذات كانت هى بين تلاميذى . وكانت قد تفشت عادة نقد الطلاب لاساتذتهم بعنف وشدة . فكانت كريستينا تبدى فى نقدها لى عداء شديدا ونقمة لا يعرف أحد دوافعها ، حتى أن اخوانها الطلبة كانوا يستاءون لموقفها وينحازون غالبا لرايى ! وكانت كريستينا صاحبة فكاهة لاذعة وبديهة ساخرة . فكانت تهاجمنى بجريدة الحائط فى الكلية وترمز الى باسم مستعار يعرف الجميع أنه ينطبق على ، ثم فجأة تكشفت لى الحقيقة الرائعة ، وعرفت أن هذا العداء اللدود كان ستارا تخفى تحته حبا متأججا لى . وكانت عواطفى نحوها شبيهة بعواطفها نحوى . وقبيل اعلان الحرب سنة ١٩٤١ ، ثم فى خلال شهورها الاولى عندما كنت مع فرقتى قرب موسكو ، حضرت كريستينا مع جماعة من الطلبة والطالبات لتمضية العطلة هناك فى الثقافة العسكرية العملية . وقد أبدت بسالة عظيمة فى التمرين على الهبوط بالمظلات وفى الدفاع المدنى ضد الطائرات المغيرة ليلا . وفى ظل هذه الاعمال البطولية عقدنا خطبتنا . ثم انتقلت فرقتى فلم أرها بعد ذلك . وبعد تحسن الموقف الحربى حولونى الى الاعمال المكتبية فى القيادة لحاجتهم الى شخص يجيد اللغات الاجنبية . وهناك وجدتك أنت أيضا



وبعد هذا الحديث الذى جرى بين جوردون ودودوروف وصل الاثنان الى قرية كراتشيف التى كانت قد زالت من الوجود تماما ، وكان الاثنان يقتفيان آثار فرقتهما ، فالتقيا فى

تلك القرية ببعض جنود المؤخرة زاحفين سيرا على الاقدام

وكانت حرارة الصيف شديدة ، حتى ان التربة السوداء الخصبة تحولت الى لون بنى هو أشبه بلون الشيكولاتة . والشارع الرئيسى فى القرية مستقيم يتصل فى النهاية بالطريق الخلوى العام ، وكانت المنازل على أحد جانبى الشارع قد نسفت ، وانتشرت حولها بقايا الاشجار المحطمة أو المتفحمة التى كانت من قبل بساتين فيحاء تحيط بتلك البيوت . أما على الجانب الآخر من الشارع فأرض لم تصبها يد الدمار ، لانها لم تكن من قبل معمورة حتى تدمر

وفى الجانب الذى كان معمورا كان بعض السكان يقلبون الانقاض ويبحثون فى الرماد الذى لم يزل يتصاعد منه الدخان ؛ وكأنهم يبحثون عن شىء ضائع . وكان هناك سكان آخرون يحفرون فى الارض خنادق كى يأووا اليها عوضا عن البيوت ، ويبحثون عن أغصان ليجعلوها لتلك الخنادق عروشا

وفى الجانب المقفر انتشرت الخيام وسيارات النقل وناقلات الخيل وسيارات الاسعاف ، وكل ذلك مخرب معطل . وفى ظلال تلك المعدات رقدت حفنة من الجنود التابعين لفرق الامدادات وقد أنهكهم الهزال وأتت على قواهم الديزونطاريا . فاختلسوا ساعة من نوم قبل أن يستأنفوا مسيرهم الى جهة الغرب

وكانت هناك سحب من الدخان والغبار تتصاعد الى عنان السماء من آثار الأنفجارات المتخلفة . أما فى اتجاه السهول فكان هناك مرعى تحيط به الأشجار العتيقة الظليلة وتعزله عن العالم كأنه واحة فى وسط ذلك الدمار . وفى هذا المرج كانت الغسالة تانيا فى انتظار سيارة النقل التى يجب أن تحملها مع معداتها . وكان معها ثلاثة من جنود الفرقة أرادوا أن يستفيدوا

من هذه الفرصة . وكان هناك أيضا جوردون ودودوروف . وكانت تانيا لاتفارق المعدات الموكولة اليها ولا تبتعد عنهاخطوة واحدة . والجنود أيضـــا لايبتعدون حتى لاتفوتهم فرصة السفر بالســيارة ، مع أن انتظارهم طال اكثر من خمس ساعات . وليس أمامهم مايتسلون بعمله سوى الاصغاء الى تانيا التي كانت لاتكف عن الثرثرة . فهي محبة للكلام والهذر ، تخوض في جميع الموضوعات وقد روت لهم فيما روت مقابلتها مع الجنرال زيفاجو

ــ بالامس فقط تمت هذه المقابلة . قالوا لي ياتانيا الجنرال يريد أن يراك . فقلت وأنا أريد أن أرى الجنرال . فأخذوني اليه رأسا . ودخلت الى الجنرال زيفاجو . وكانت المقـــابلة بخصوص موضوع كريستينا . وكان يسأل بنفســه شهود الرؤية الذين عرفوها شخصيا . وكانوا قد ذكروا له اسمى وقالوا انني كنت زميلتها في الدراسة لذلك أمر باستدعائي . فهل تعتقدون انني شعرت بالرهبة من مقابلته ؟ أبدا ! فهو رجل مثل سائر الرجال . أسود الشعر له عينان نفاذتان . وذكرت له جميع معلوماتي عن كريستينا . فأصغى باهتمــام شديد لكل ماقلت ، ثم قال : « وأنت يا صغيرتي من أنت ومن أين ؟ » فلم أقل له شيئا . وماذا عساي أن أقول ؟ انى طفلة لا تعرف أبويها . ومن أين تأتي مثيلاتي الا من ملاجيء الايتام واللقطاء . ولما رأى ارتباكي لم يلح علي في السؤال ، وقال لي : « لماذا يحمر وجهك ؟ ليس هناك شيء يدعو للخجل » . فازداد وجهي احمرارا وأفهمته ظروفي بكلمات مقتضبة . وعندئذ أخذ يتمشى في الحجرة وهو يربت على خدي ، وقال لي : « فهمت كل شيء لا تقلقي . سأنظر في أمرك فيما بعد . وربما وجدت نفسك فجأة في نظر الناس كلهم بنت أخ الجنرال . وعندئذ لابد ان اهتم بدراستك العالية » هذا ما حدث أيها الرفاق . وأقسم لكم انه الصدق الصراح وليس فيه كلمة

واحدة من نسج الخيال

وفى هذه اللحظة وصلت الى المكان سيارة نقل كبيرة مما يستخدم فى بولنده لنقل المحصولات . ونزل السائق وحاول الجنود اقناعه بنقلهم ، ولكنه قال ان الاوامر التى لديه لاتسمح بذلك ونزل من السيارة ، ثم اختفى بين الاشجار . فجلسوا كلهم فى السيارة ، وقال جوردون لتانيا :

ــ قصى علينا قصة حياتك كما رويتها للجنرال ، فكلنا يريد أن يعرف من أنت ؟

فضحكت تانيا وظهرت التجاعيد حول أنفها الافطس ، وقالت :

ــ وما المـــانع ؟

ثم بدات تقص عليهم تاريخ حياتها العجيب

« ان قصة حياتى حافلة بالمغامرات . ويشاع ان الاسرة التى أنحدر منها ليست حقيرة . وقد سمعت ان والدتى رئيسا كوماروفا كانت زوجة الوزير كوماروفا الذى هرب الى منغوليا . ولكنى أعتقد أن كوماروفا لم يكن أبى حقا ، ولكن ليس هذا هو المهم . المهم ان الجيش الاحمر عندما زحف على كروشيتسكى فى أقصى الشرق من سيبيريا قرب بلاد الصين ، أمر كوماروفا بترحيل جميع العائلات فى قطار خاص ، ومن بينهم أمى . وكانت أمى قد ولدتنى فى فترة انفصالها الطويل عنه ، فهو لا يعلم بوجودى ، وكانت تفزع من أن يكتشـــف زوجها أمرى . ولذلك أرسلت أمى فى الحـال قبـل رحيلها الى فلاحة كانت تورد اللبن للبيت واسمها مارفا . فأودعتنى بين يديها . ومن ذلك اليوم عرفت المذلة والقسوة مع ان الخالة مارفا تقاضت مبلغا ضخما نظير عنايتها بى . ولكن يالها من عناية ! لقد فكرت فى ان أشنق نفسى وأنا طفلة . كدت أجن

« ولم تكن الخـــالة مارفا فقيرة . فعندها مزرعة وبقــرة

وحصان ودواجن وحقل واسع لزراعة الخضروات . وكان بيتها بجوار المحطة ، وكان زوجها عامل التحويلة فيها ، واسمه العم فاسيلي ، وكنت أناديه يا أبى . ومع أنه كان سكيرا ، الا انه كان رجلا لطيفا مرحا . ومتى سكر يتحدث فى كل شيء فكان جميع أهالى المنطقة يعرفون حقيقة أمرى من فمه ومع ذلك كنت أحبه . أما مارفا فلم تطاوعنى نفسى على أن اناديها يا أمى . ربما لانها فظيعة ، أو لاننى لم استطع أن أنسى أمى ، لهذا دائما كنت أدعوها « خالتى مارفا »

« ومرت السنوات ثم بدأت أخرج الى المحطة واساعد فاسيلى فى عمله . كما صار فى مقدورى أن أحلب البقرة واربط الحصان . وعلمتنى الخالة مارفا فن الغزل والكنس والمسح والطهو . وتعلمت كذلك أن أعنى بابنهما باتيا الضعيف الساقين ، والذى كان فى الثالثة من عمره ولا يستطيع ان يمشى ، فكنت أحمله . وحتى اليوم ارتعد كلما تذكرت نظرات مارفا الى ساقى القويتين فى حسد وحقد !

« ولما حدث التضخم باع فاسيلى بقرة وقبض الثمن كيسين حافلين بالنقودثم سكر وأخبر جميع أهالى المنطقة بما أصابه من الثروة . وفى ذات يوم أبصرنا امرأة عجوزا تهبط التل والهواء يعبث بثيابها . وكانت تبكى وتمسك جنبها . وتوسلت الينا ان نسمح لها بالدخول وهى تنتحب وتتأوه . فاسرج فاسيلى الفرس وربطها فى العربة . ثم وضع العجوز بداخلها وانطلق بها الى المستشفى الذى يبعد عن بيتنا أحد عشر ميلا . وبعد قليل نمنا أنا والخالة مارفا لان الليل كان قد ارخى سدوله .ثم سمعنا صوت فرسنا وهى تدخل ساحة الدار فى سرعة فقامت الخالة مارفا وأشعلت مصباحا ، وارتدت معطفها ثم فتحت الباب دون أن تنتظر الطرق المعتاد

« ولم تجد أمامها أبى بل رأت رجلا غريبا عبوس الوجه

مخيف الشكل .

قال لها :

ــ أين النقود التى حصلتم عليها ثمنا للبقرة ؟ أعلمى انى قتلت زوجك فى الغابة . وبما أنك امرأة فلن أمسك بسوء اذا سلمتنى المال . والا فدمك على رأسك ! واسرعى ! فليس عندى وقت !

« ولا حاجة بى الى وصف الرعب الذى أصابنا لقتل العم فاسيلى أولا . وللموت الذى كنا ننتظره على يدى هذاالمجرم متى استولى على المال حتى لا نشى به .

« وارتمت الخالة مارفا على الارض تحت قدمى القاتل تستعطفه وتزعم أنها لا تعرف أين خبأ المرحوم النقود . فلم يصدقها طبعا وهددها الى أن اعترفت له ودلته على مكان الكنز . ولكن الرجل قال لها :

ــ فى الكهف ؟ اذهبى وهاتى النقود من هناك اذن . فسواء عندى أن تصعدى الى السطوح أو تنزلى الى باطن الارض ، فكل ما أريده هو المال . وتذكرى أن التلاعب لا يجوز على

« فقالت له مارفا :

ــ كنت أنزل الى الكهف بكل سرور لولا ان الفزع خلخل ركبتى . سأقف لك على رأس السلم وفى يدى المصباح . وسأبعث ابنتى هذه معك

« وشعرت بفزع شديد . لانى أدركت أنها ستهرب وتصيح مستغيثة فيقتلنى الرجل . ولكن الرجل أنقذنى بقوله :

ــ أتحسبيننى مغفلا . أنا أعرف والجميع يعرفون أن هذه ليست ابنتك

« وانقض على ابنها باتيا الكسيح وحمله بيد واحدة ثم فتح الكوة الحديدية التى تسد فوهة سلم الكهف باليد الاخرى . ثم نزل والطفل على كتفيه والقنديل فى يده . ولكن

يظهر انها اصيبت بجنون . فما ان هبط قليلا مع باتيا حتى أغلقت الكوة ، ودعتنى كى أجر صندوقا ثقيلا وضعته فوق غطاء الكهف وجلست فوقه وهى فى غاية السرور بما فعلت .

وأخذ الرجل يدق من تحتها ويصرخ فلا نتبين ما يقول . ثم استطعنا ان نفهم ماذا يعنى : اما ان نتركه يخرج واما أن يقتل الطفل !

« وكانت قد جنت بالتأكيد لانها كانت تعلق على ذلك بالضحك وهى تغمزنى أما أنا ففزعت وجعلت أتوسل اليها أن تدعه يخرج . ثم أخذت ادفعها بكلتا يدى ، ولكنها استماتت فى موضعها وابت أن تتحرك . فانتابنى ذعر لا أنساه على كثرة ما رأيت من مواقف الرعب فى الحياة . فان الكسيح الصغير باتيا أخذ يصرخ ويتوجع . وستظل صرخاته ترن فى أذنى الى آخر نسمة فى حياتى . فقد خنقه المجرم بيديه خنقا

« وتساءلت ماذا أستطيع أن افعل بين مجنونة وقاتل محبوس فى كهف . يجب أن أفعل شيئا على كل حال ، ولكنى لا أدرى ما هو . وفى تلك اللحظة سمعت صهيل الحصان كأنه يقول لى :

ـ هيا يا تانيا نذهب ونأت بمن ينقذ الموقف

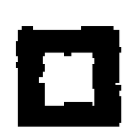
« ونظرت من النافذة فاذا الفجر قد لاحت أولى أشعته . فأسرعت لاركب العربة . وعندئذ سمعت صفير قطار قادم فأخذت الفانوس ورايات الاشارة وخرجت الى شريط السكة الحديدية وجعلت ألوح للقطار الى أن وقف واطل منه السائق . وكان يعرفنى ، وسألنى :

ـ ما الخبر ؟

« فجعلت أصيح ليسمع رغم الرياح الشديدة وأفهمته ان لصوصا هاجموا البيت واقترفوا جريمتى قتل . وان المجرم محبوس فى الدار . وعلى الفور رأيت جنودا من الجيش الاحمر

يقفزون من القطار ويسألونني عما حدث . فأعـــدت عليهم القول . فذهبوا معي الى البيت وقبضوا على القاتل ، وهــو يصرخ فزعا ويطلب الرحمة . فلم يلتفتوا لصراخه ، ولم يتقيدوا بالاجراءات القانونية بل جروه مكبلا من خلاف وألقوا به فوق القضبان وأمروا السائق فمر من فوقه !

« وزاد ذلك من فزعي فلم أعد الى البيت لاخذ ثيابي بل تعلقت بالقطار الذي به الجنود . فأخذوني معهم . وجبت كثيرا من الاقاليم الروسية مشردة . وقد سمعت ان الخالة نقلت الى مستشفى الامراض العقلية وشفيت فيما بعـــد وخرجت من المستشفى »



وبعد ان فرغت تانيا الصغيرة من قصتها مشى جوردون ودودوروف وحدهما في ظل الاشجار صامتين برهة . ثم قال جوردون :

ــ هل عرفت من هي تانيا ؟

ــ طبعا . فما أشبهها حين تضحك وقد أحاطت التجاعيد بأنفها الافطس بصديقنا يوري

ــ لاشك أن الجنرال ايفكراف زيفاجو سيحوطها بالرعاية الواجبة . وليست هذه أول مرة يهوى فيها المثال السامي الى حضيض المادة . فمن قبل تقلص ظل الحضارة الاغريقية أمام حديد الرومان ونارهم . وأتت على الثقافة الروسية الرفيعة غوغاء الثورة الروسية



وبعد أعوام قد تبلغ العشرة التقى في أمسية من أمسيات الصيف الصافية جوردون ، ودودوروف مرة أخرى أمام شرفة تطل على موسكو ، وبين أيديهما كتاب يضم آثار يوري الادبية

والعلمية التى جمعها ايفكراف . لقد قرآه كثيرا من قبل وحفظا معظم مافيه

ان بشائر الحرية قد بدأت تشرق على حياة النـاس بعض الشيء فىموسكو ، وهذا يبشر بأن المستقبل سيكون أقل ظلمة وظلما . فزاد ذلك من اعزازهما للرجل الذى سطر هذه الآثار وتغنى بهذه المعانى وعاش لها ، ومات من غير ان يفقد ايمانه بالحرية والروح ، رغم الظلمة الحالكة التى كان يعيش فيهـا الضمير الروسى

انتهت

فهرس الجزء الاول

صفحة

فهرس الجزء الثانى

كتاب الهلال يقدم :

مذكرات

محكوم عليه بالاعدام

للكاتب الأشهر

فيكتور هيجو

ترجمة

لطفى سلطانه

يصدر فى ٥ فبراير ١٩٦٠

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنان و الاقليم الشمالي : وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا
صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت

العراق : السيد محمود حلمي ـ المكتبة العصرية
ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١

البرازيل :
Dr. Michel H Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا :
Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

نيجريا :
Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA

سيراليون :
Messrs, Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

هذا الكتاب

هذا هو الجزء الثاني والاخير من رواية « الدكتور زيفاجو » التى صدر جزؤها الاول فى الشهر الماضى ، وقد اعتبرت هذه الرواية حدثا سياسيا ، الى جانب قيمتها الادبية . فى هذا الوقت ، اذ هى أول صورة أدبية خرجت الى العالم من قلب الاتحاد السوفييتى ، ووصف دقيق لكثير من الحوادث التى وقعت داخل تلك البلاد فى أخطر مرحلة عرفها قطر من الاقطار فى التاريخ الحديث

وبطل هذه القصة طبيب شاب ، وهو رجل مفكر موهوب ، يبحث عن الحقيقة ، اسمه الدكتور زيفاجو

ولقد أجمع سائر النقاد فى العالم على أن هذه الرواية عمل أدبى شامخ ، وانها جديرة بالاطلاع والاقتناء . وقد ترجمت فى أقل من عام الى جميع لغات الارض كلها ، ووزعت منها ملايين النسخ ، على أثر فوز صاحبها بجائزة نوبل لعام ١٩٥٨ . وبذلك قفز اسم مؤلفها ، بوريس باسترناك ، الى الصف الاول بين أدباء العصر

انها وثيقة كتبها شاعر أديب ، فيها روعة الفن ، وصدق التجربة ، وعمق التحليل